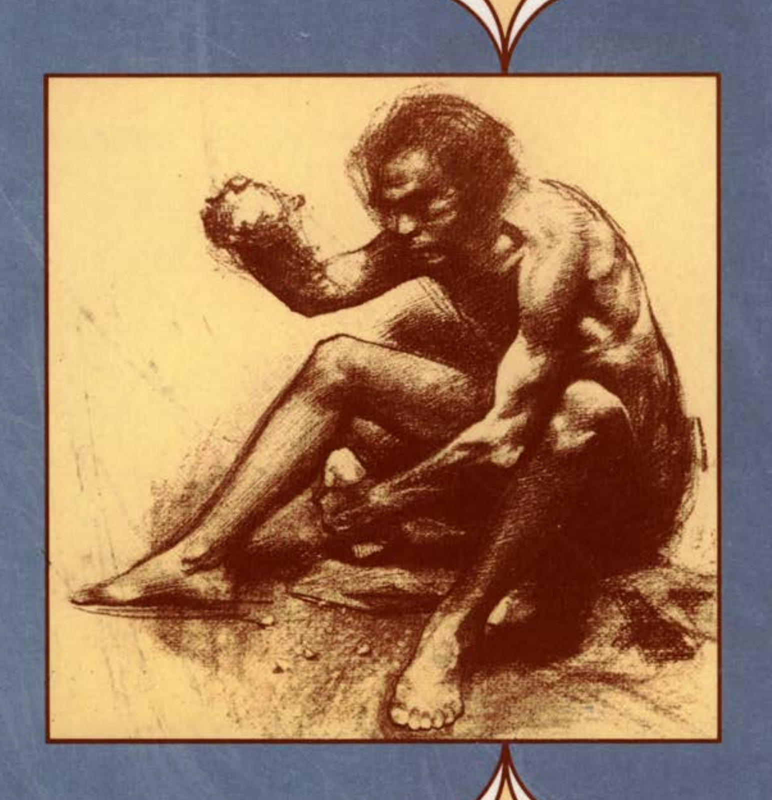
د. طالب الجنابي

نظرية التطور الداروينية

خرافة باسم العلم



دار الأضواء




نظرية التطور الداروينية

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

دار الأضواء
للطباعة والنشر والتوزيع

حارة حريك - شارع دكاش - ص.ب: ٢٥/٤٠ - برقياً: غبيري - حسنكو - بيروت - لبنان .

نظرية التطور الداروينية

خرافة باسم العلم

تأليف

الدكتور طالب الجنابي




بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء :

الى شباب الأمة



بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمة المؤلف

منذ اكثر من قرن من الزمان ومفهوم التطور يسيطر على عقول العلماء والناس العاديين ، خاصة في مجتمعاتنا الحاضرة، وبالنسبة للبعض فان التطور حقيقة لا جدال فيها وقد وجدت المادية المعاصرة سندها القوي في المفاهيم التي تطرحها فكرة التطور . ونتيجة لذلك فان المادية انتشرت وسيطرت على سلوك المجتمعات الحديثة ، جالبة معها الوثنية القديمة باطار جديد مغلف بقناع العلم . وقد ساعد في ذلك عجز الكنيسة الغربية في الدفاع عن نفسها وعن مفاهيمها بسبب تعارض هذه المعتقدات مع الاكتشافات العلمية ، خاصة في حقول الفيزياء والفلك والاحياء ، وسهولة برهان خطأ هذه المعتقدات فلسفياً .

لقد أنجز علماء الأحياء عملاً ضخماً لفائدة البشرية . ومن المعلوم فان التعامل مع الكائنات الحية أصعب بكثير من التعامل مع الموجودات المادية ، ولذا فان عمل هؤلاء العلماء لم يكن سهلاًابداً ، ولا يمكن لأحد أن يستصغر أو يستهين بالاكتشافات العظيمة لهؤلاء العلماء ، ولكن عندما تصل المسألة الى طرح فكرة التطور فان الموضوع يصبح قضية أخرى تخرج عن اطار العلمية ، وتدخل في اطار آخر لا علاقة له بعلم الاحياء ، وذلك لأنه استقراء فلسفي ، وبذلك

فانه يدخل في مجال الفلسفة . ولذا يمكن التعامل معه على هذا الأساس .

وعند تمحيص الآراء والأدلة المطروحة من قبل التطوريين تبين لنا أن الوضع يختلف اختلافاً جوهرياً عما هو شائع ، وعما يريد هؤلاء العلماء لنا أن نعتقد . فالأدلة العلمية قليلة ومبعثرة ولا يمكن بأي حال من الأحوال بناء نظرية معقدة كأصل الحياة عليها . ونتيجة لذلك فان الذين يؤمنون بالتطور تعثروا كثيراً بطرح نظريات خاطئة ثم تخلوا عنها بمرور الزمن . وليس هناك اتفاق بين العلماء على نظرية واحدة الى يومنا هذا ، كما أنه لا توجد نظرية تمتلك سنداً فلسفياً كافياً . وفي الواقع فان التطور أصبح مجرد اعتقاد ، فأما أن تؤمن به أو لا تؤمن وبالنسبة لأولئك الذين يعتقدون به فانهم (وكما سنرى) يؤمنون بهذه الفكرة ويبحثون عن أدلة لتبريرها وليس العكس (أي ايجاد الأدلة التي تكشف أن فكرة التطور هي الواقع) كما هي الحالة مع الاكتشافات العلمية في حقول العلم الأخرى .

كذلك فان نظريات التطور في تفسير أصل الحياة لا تمتلك أي دليل علمي لاسنادها على الاطلاق ، ولا تتعدى أن تكون مجرد استقراء مبني على أساس أن فكرة التطور صحيحة ، ومنها يرجع العلماء الى الوراء لطرح بعض الآراء على هذا الأساس .

لقد شُيِّد مفهوم التطور على فكرتين ، الأولى هي وجود التشابه بين الكائنات الحية ، والثانية أن بعض الأحياء انقرضت ولذا فان احياءاً أخرى بالضرورة قد ولدت . إلا أنه لا تتوفر أدلة تسند فكرة ولادة هذه الأحياء الأخرى . وعندما حاول التطوريون تطبيق نظرياتهم على الانسان جابهوا صعوبات خاصة ، فالأدلة بينت ان الانسان ظهر فجأة على الأرض ، وان انسان النياندرتال الذي كان يُعتقد أنه من فصيلة القرود اتضح انه انسان من نوع آخر ظهر على الأرض وانقرض بنفس هيئته ودون أي تغيير أو تطور مزعوم ، وليس هناك أي علاقة بينه وبين الانسان الحديث . ومشكلة الانسان كانت أكثر

استعصاءاً على التطوريين عندما حاولوا تفسير قابلياته العقلية التي فاقت كل متطلباته للبقاء ، ويتضح أن فكرة التطور قد طُرحت على عجل ، وبدون تمحيص للتعقيدات والتبعات الفلسفية التي تصحبها ، ذلك لو أن أي من الكائنات الحية يتم تمحيصها بعناية ، فان الصعوبات التي سوف تُواجَه هي نفسها كتلك التي واجهها التطوريون مع الانسان .

وهناك مسألة أخرى لم تأخذها نظريات التطور بنظر الاعتبار ، وهي المسألة التي تخص المعلومات التي يحتاجها الكائن الحي لكي يتمكن من أداء وظائفه ، والتي تمثل الفرق ، كل الفرق ، بين الحياة والمادة ، وبدلاً من ذلك فان التطوريين نظروا الى الكائن الحي وكأنه نظام مادي فقط . وكان هذا أضعف ركيزة استندت عليها النظرية . فعند النظر بعناية الى الموضوع وجدنا انه حتى الخلية الحية الأولى المزعومة ، والتي يقولون أنها انبثقت بطريقة الصدفة ، احتاجت الى كمية كبيرة من المعلومات المعقدة لكي تصبح حية ، وانه لمن الصعوبة بمكان تصور امكانية اجتماع هذه المعرفة المعقدة بنفس الوقت بطريقة الصدفة . وقد بين التحليل (المطروح في الكتاب) أن التطور مفهوم يناقض نفسه بنفسه ، وان هناك تفاسير أخرى لأصل الحياة أكثر منطقية من التطور . والأدلة العلمية الحديثة بينت أن الإنسان ليس مجرد مادة ، وأن الروح موجودة ، وأن الخلق بواسطة الله تعالى هو التفسير الوحيد المعقول والذي لا يتناقض مع الأدلة العلمية . واذا حررنا بعض المفاهيم من المعتقدات المسيحية الخاطئة فانه بالامكان اعطاء تفاسير صحيحة ومنطقية لكثير منها ، مثل مفهوم العدل الالهي ومعنى العبودية لله واحقيّة الجنة والنار ، وتتلاشىٰ عند ذلك التناقضات التي يجدها المفكرون الغربيون في المعتقدات المسيحية التي كانت السبب الرئيسي وراء تخليهم عن فكرة الله واللهث وراء فكرة التطور لتفسير اصل الحياة .

وقد أشار الفلاسفة الالهيون الأوربيون الى أن الله لا يخضع للزمن . ولكن بالرغم من ذلك فانهم لم يستطيعوا أن يحرروا أنفسهم من اطار الزمن عند

التكلم عن الله . هـذا ، وبالاضـافة الى عجـزهم عن توضيـح فكـرة أن الله لا يخضـع الى ما يَخْلُق وأحـد المخلوقات هـو القانـون ، فان ذلـك مكّن الفلاسفـة المـاديون من أن يجـدوا نقاط ضعف في الفلسفـة الالهية (التي تؤمن بـالله) والتي استطاعوا أن ينتقدوها بكل قوة . كـذلك فـان الفلاسفـة الالهيون ، بـالرغم من محـاولتهم تفسير أصـل الروح فـانهم لم ينجحوا في ذلـك ، خاصـة عنـدمـا تـأتي القضيـة الى تفسير كيفيـة امتزاج روحَيْ كـل من الحيمن والبويضـة لتكوين روح واحـدة وليس روحين . لـذا فانهم قـالوا بـأن الروح تـدخل الجسم بعـد تكوين الجنين مما دعا (برتراند رسل) الى القول أن ذلـك يجعل الله شـريكاً في الـزنا ، ذلك أن الزاني يضع الحيمن عند البويضة ، ثم يأتي الله ليضع الـروح في الجنين الحرام ، حسب زعمه . وهـذا يبين الى أي حـد وصل الفـلاسفة الأوربيـون في تخبـطهم وخلطهم بـين المفـاهيم الالهيـة الحقيقيـة وبـين المفـاهيم الـدخيلة . و (رسل) هذا الذي ينتقد كون الروح تأتي بعد تكـوين الجنين يحـاول أن يضع نظريته في تفسـير العلاقـة بين الـروح والمادة فيقـول أن المادة والعقـل عبارة عن نوعين من الظواهر تُبنىٰ من شيء ثالث أكثر أساسية من كليهما . وهو في الواقع لم يضـع نظريـة جديـدة وإنما قـال ما قـاله اولئـك الـذين انتقـدهم ولكن بصـورة مختلفة . وعلى كل حال فان كلتا النظريتين ، نـظرية الفـلاسفة الالهيـين ونظريـة (رسـل)٠ لا تفسران كيفيـة نضوح العقـل عند الانسـان مع تقـدم العمـر من الطفولـة حتى البلوغ بالـرغم من أن الانسان يُـدخل الى جسمـه المادة فقط عـلى شكل غذاء . ونظرية (رسل) لا تستطيع تفسير كيفيـة امتزاج الـظواهر المكـوِّنة للعقـل (أو الروح) عنـد كل من الحيمن والبـويضة لتكـوين عقـل واحـد عنـد الجنين وليس عقلين .

والواقـع ان النـظرية الـوحيدة التي بـامكانها تفسـير العلاقـة الوثيقـة بـين الروح والجسم (اي العقل والمادة) هي نظرية الفيلسوف الاسلامي الكبير صدر المتألهين الشيرازي . ومن خلال هذه النظرية فان تفسيـراً مبسطاً يمكن الحصـول

عليه لكيفية امتزاج روحَيْ كل من الحيمن والبويضة ، وكيفية نضوج العقل عند الانسان مع مرور الزمن ، والى الوجود المتصل بين المادة والعقل والأنواع الأخرى من مستويات الوجود المحتمل وجودها .

لقد حاولت في هذا الكتاب الاجابة على بعض الاسئلة التي دأب على طرحها الماديون ، والتي عندما لم يستطيعوا الإجابة عليها قالوا بأن الله ليس موجوداً . وصعوبة الإجابة على هذه الاسئلة كانت في نظري ، مسؤولة جزئياً عن تخلي الملحدين عن فكرة الله واللهث وراء نظريات التطور . ولذا كان لا بد من التطرق اليها لاتمام البحث ، فبعد توضيح خرافة فكرة التطور لا بد من توضيح المفاهيم الالهية التي كان سوء فهمها حجر عثرة أمام كثير من المفكرين ، وخاصة الاوروبيين منهم ، لان الرجوع الى تفسير الكنيسة لهذه المفاهيم يصطدم بالرفض المنطقي لها والذي يصاحبه رفض فكرة الله باعتباره الصانع لهذا الكون .

كتب هذا الكتاب في الاصل الى قراء اللغة الانكليزية بسبب طغيان فكرة التطور على تفكير الانسان الاوربي لتبيان الأسباب التي دفعت الاوروبيين الى اتباع هذه الفكرة ونكران وجود الله ، ولتوضيح عدم علمية الفكرة بالرغم من تغليفها بالعلم . وبسبب اهمية الموضوع فقد قررت اعادة كتابة الكتاب باللغة العربية الى قرائنا الاعزاء . والكتاب ليس ترجمة حرفية للكتاب الأول لان كلاً منهما موجه الى ما يستسيغه قراؤه مع الاحتفاظ بجوهر المعلومات في كليهما . ويلاحظ اننا حاولنا استعمال آراء اولئك الذين يؤمنون بالتطور انفسهم لتفنيد الفكرة التي يؤمنون بها زيادة في الحجة عليهم وانطلاقاً من مبدأ العلمية والنقد الموضوعي .

الدكتور طالب الجنابي
١٩٨٩/١/٥



الباب الأول

تخبط الفكر الاوربي



الفصل الأول

الحالة الفكرية للكنيسة الاوربية الحديثة والفكر المادي

قيل ان الانسان الشرقي نظر الى السماء دائماً على أنها سبب الخليقة بينما نظر الانسان الأوربي دائماً الى الأرض ، وقد لا يكون هذا صحيحاً دائماً ، الا أنه ليس خطأ أيضاً فهو يشير بوضوح الى الفلسفات المادية التي نشأت في اوربا وبقيت تظهر بين الحين والآخر على مر التاريخ كلما كانت الظروف الاجتماعية تسمح بذلك .

وقد حكمت الكنيسة خلال العصور الوسطى في اوربا بقبضتها القوية ومعتقداتها الصارمة . فالحقيقة كل الحقيقة عن الخلق بالنسبة لها كانت موجودة في الانجيل . ولكن بتقدم العلوم واكتشافاتها في العصور اللاحقة ظهر نزاع بين الدين والعلم . وبذلك فان موقع الكنيسة ومعتقداتها بدأت تتقهقر في أوربا ، وظهر خط فكري انشأه بعض العلماء والفلاسفة انحرف تدريجياً عن معتقدات الكنيسة . (وبرتراند رسل) يوضح هذه المشكلة بالقول[1] (بالنسبة للمسيحية كانت هذه النزاعات على نوعين، فأحياناً قد يكون هناك نص عن الانجيل

(١) انظر المصدر رقم (٢٥) ص ٩ ـ ١٠ .

يؤكد حقيقة معينة ، مثلاً أن الأرنب البري يمضغ الجرو . . . وبصورة عامة فان عدم الاتفاق بين الدين والعلم كان في البداية من النوع الأول ، ولكنه أصبح بمرور الزمن يخص قضايا تعتبر من التعاليم الأساسية للمسيحية) وقد أصبحت بعض المعتقدات ، مثل أن المسيح ابن الله ، صعبة القبول في الأوساط العلمية والفلسفية ، كذلك فان تاريخ الطوفان الذي ينص عليه الإنجيل في عهد النبي نوح (ع) وُجِدَ انه مخالف للحقائق التأريخية حيث كانت هناك حضارات ، مثل الحضارة البابلية والحضارة المصرية في ذلك الوقت(*) . وقد اعتبرت الكنيسة أن نظرية غاليلو التي تقول أن الكرة الأرضية تدور حول الشمس بدعة ، وذلك لان المعتقدات المسيحية كانت تعتبر الكرة الأرضية مركز الكون ، فالكنيسة التي اعتقدت أن المسيح هو ابن الله تصورت أنه من غير المعقول أن يرسل الله ولده الى جرم تافه كذلك الذي تصوره نظرية غاليلو . فمركز الكون هو المكان الوحيد الذي يليق بابن الخالق . وهذا بطبيعة الحال يتبعه تصور أن الكون مخلوق على شكل كرة وأن المركز هو المهم ، وهذه تصورات لا أساس لها على الاطلاق . فليس هناك ما يدل على أن الكون كروي ، وليس هناك ما يدل على أن المركز أهم من غيره . ومع ذلك فان غاليلو في نظر الكنيسة قد كفر . ولم يعلم غاليلو ولا الكنيسة أن القرآن كان قد أخبر المسلمين قبل ذلك بقرون بأن الكرة الأرضية ليست سوى جرماً سابحاً في الفضاء مَثَلها مَثَل الاجرام الأخرى . الا أن الكنيسة التي كانت تحرق الملايين من النساء بدعوى السحر لم يكن لديها متسع من الفراغ للعلم، أو العلماء .

وبعد تقدم العلم وتغير الأوضاع الاجتماعية في أوربا بدأت الكنيسة تفقد

(*) لاحظ ان القرآن لا ينص ان العالم كله غرق وانما قوم نوح فقط كما في سورة الفرقان الآية ٣٧ ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل اغرقناهم وجعلناهم للناس آية ﴾. كما ان القرآن لا يصرح بتاريخ الطوفان .

سيطرتها على المجتمعات الأوربيـة مما أدى الى رفـع الاضطهـاد عن العلماء الذين بدأوا يتحدَّون الكنيسة علناً . فقد ظهرت اكتشافات علمية لا تقبل الشـك أدت الى زعزعة ايمـان كثير من العلماء والمفكـرين بالمسيحيـة . فالانجيـل ، وباعتبـاره كتاباً الهياً ، يجب أن يكون صحيحاً بأكمله . فالله لا يمكن أن يخطأ ، وأي خطأ فيه يعرضه الى خطر كونه ليس صادراً عن الله . و (برتراند رسل) يوضح ذلك بقوله[1] (ان هـذه الحجة تستنـد على سلطة الانجيـل التي يمكن المحافـظة عليها فقط اذا قُبِـل الانجيل ككـل . وقد حـاولت الكنيسة الـدفاع عن نفسهـا ولكنها فشلت . فـالحقائق العلميـة كانت سـاحقة ولا يمكن مقـاومتها بـواسـطة حجـج الكتاب المقدس) . ويستمر (رسل) بوصف وحدة الإنجيل الهشة بقوله[2] (ان الوحدة المنطقية قوة وضعف بنفس الوقت . فهي قوة لأنها تنص على أن من قبل مرحلة معينة من الجدال يجب أن يقبل المراحل التي تليها ، وهي ضعف لأن من يـرفض أي من المراحـل التاليـة يجب أن يـرفض بعض المـراحـل السـابقـة عـلى الأقل . والكنيسة تعـرضت في نزاعهـا مع العلم لكـلا القوة والضعف النـاتجتين عن الترابط المنطقي لمعتقداتها) . وكانت هذه خطوة الى الوراء بالنسبة للكنيسـة التي عانت من اندحارات كثيرة في معـركتها ضـد العلم . فالتنـاقضات لا يمكن التغاضي عنها ، ذلك انه اذا كان الانجيل كتـاباً الهيـاً فانـه لا يجب أن يتعارض مع العلم ، والنتيجة أن الكنيسة خسرت المعركة ضد العلم كما يوضح (رسل) ذلك بقوله[3] (بين الدين والعلم كان هناك نزاع مرير وطويل حتى السنين القليلة الأخيرة ، وقد برهن العلم بصورة ثابتة على أنه المنتصر فيـه) . فانسحب العلماء والمفكرون من الكنيسة اولاً ، ثم تبعهم الناس ، ثم انعكست العجلة وتراجعت الكنيسة الى الداخل ، الى صلاة يوم الأحد . والآن فان الكنيسة تحـاول جاهـدة

---

(١) انظر المصدر رقم (٢٥) ص ١١ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٣١ .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٧ .

ارجـاع النـاس الى المعتقـد بعـد أن تخلوا عنـه . وتعتقـد الكنيسـة الآن أن تعـاليمها يجب أن تتغير بموجب متـطلبات المجتمـع وتتـطور مـع احتيـاجـاتـه . أي أن الـتعـاليم يجب أن تتـطور لـكي تـتـمـاشى مـع رغبـات الـنـاس وليس على الناس أن يتبعوا التعاليم ، والذي معناه ان الله يجب يخضع لرغبـات النـاس وليس الناس هم الـذين يتبعون أوامـر الله . وهذا يـدعونـا لأن نتساءل: اذا ، كانت هذه هي الحـالة فلمـاذا أرسل الله عيسىٰ (ع) لكي يصحـح اليهود ويقف ضـدهم ويدعـوهم الى الـرجـوع الى أوامـر الله ؟ الم يكن المفـروض فيـه (بمـوجب هذه النـظرية) أن يقبـل بتغييرهم لتعـاليم التـوراة لكي تتمـاشىٰ مـع متطلباتهم في ذلك الوقت . ولكن إذا كانت التعاليم يجب أن تتغـير كما يـزعمون أليس المفروض أن يغيرهـا الذي وضعهـا أولاً وهو الله تعـالى ؟ أليس من المنطق أن يرسل الله رسولاً آخر ليخبـر الناس بـالتعاليم الجـديدة ؟ وهذا بطبيعـة الحال يتفق مع سيرة البشرية وإرسـال الأنبياء من قبـل الله على مـر التاريـخ . وإذا كنا نعطي أنفسنا الحق في تغيير التعاليم فلماذا ننكر هذا الحق على اولئك الذين عاشوا قبلنا وندعي أن اليهود على خطأ لأنهم غيروا تعاليم موسى كما يشتهون؟وإذا كان باستطاعة البشر اختراع التعـاليم وتغييرهـا فلماذا الحـاجة الى الأنبيـاء ؟ ان هذه الفكـرة تنسف ضرورة ارسـال الرسـل من الأساس ، ويصبـح الناس الـذين لا يتبعون الأنبياء ليسـوا كفاراً ولا يحق لنـا أن ندعـوهم هكذا مـا دام لهم الحق في تغيير التعاليم واتباع ما يرغبون . وهكذا فان الكنيسـة تخلت تدريجيـاً عن معظم معتقداتها ، و (رسل) يوضح ذلك بالقول[1](ان الحجـة التي في صالـح الدين تستنـد الآن على تـأثير الـدين في الدعـوة الى حياة أفضـل عـلى الأرض أكـثر من ارتبـاطه بـالحياة الآخـرة . . . ان الاعتقاد بـأن الحياة الـدنيـا هي تحضـير لحيـاة أخرى ، والذي كان له تأثيره عـلى الاخلاق والمُثـل والسلوك ، قـد تـوقف الآن

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٣٦ .

من التأثير حتى على أولئك الـذين لم يتخلوا عن هذه الفكـرة بصورة واعيـة) . وهـذه اشارة واضحـة على تـأثير المادية الحـديثة عـلى الكنيسـة الأوربية. ويؤكد (روبـرت باين) هـذه النقطة بـالقول[1](ان الكنيسـة أصبحت عـدواً للعقيـدة بالنسبة لكثير من المسيحيين وأصبح البابا عدواً للمسيـح . وتبدو قسـاوة الكنيسة واستبدادها وتنـظيمها مخـالفة للحـرية التي تنسب الى المسيـح . ولذا فـان الثورة كانت واسعة الانتشار ، وأحياناً يمكن رؤيتها ضمن الكنيسة نفسها) .

ان مشكلة الكنيسـة هي ان معتقداتهـا لم تكن صحيحة كليـاً ابداً للسبب البسيط هـو أن المسيحية دين صنعـة الانسان . فقـد وضعت المعتقدات بـواسطة رجال انحرفوا عن تعاليم المسيح الحقيقية منذ البداية وهؤلاء الرجال جمعوا هـذه المعتقدات وفلسفوها للخروج بدين عالمي جديد . و (برتراند رسل) يذكر ذلك بعـد الغوص في تـاريخ نشـوء المسيحية وتـطورها فيقـول[2](ان المسيحية ، وفي البداية ، بُشِّرت بواسطة اليهود لليهود على أساس أنها تصحيح لليهـودية . وقـد أراد لهـا القديس جيمس ، وكـذلك القـديس بـطرس بـدرجـة أقـل ، أن تبقى كذلك ، وكان من الممكن أن تكون هكذا ، لكن القديس بولص هو الذي كان مصمماً على ادخال الاميين[*] اليها بدون المـطالبة بـالختان او الاذعـان الى قوانـين مـوسى . . وبسبب القديس بـولص فان المسيحيـة احتفـظت بمـا هـو جـذاب في عقيـدة اليهود بـدون السمات التي كـان الأميون يجـدون صعوبـة في تقبلها) . ويتكلم (رسل) عن القديس امبـروس Ambrose والقديس جَـرَمي Jerome والقديس أوغسطين Augstine فيقول[3](انهم ثبّتوا القـالب الذي بنيت ضمنـه

---

(١) انظر المصدر ٣١، ص ٢٩٧ .

(٢) انظر المصدر ٢٨ ص ٣٢٥

(*) الاميون هم غير اليهود.

(٣) انظر المصدر السابق ص٣٣٥ .

الكنيسة أكثر من أي رجال آخرين) . أما (حاييم ماكوبي) فـانه يقـول[1](ان الحقيقة هي أن المسيح لم يؤسس ديناً جديداً ، ولكنه بحث عن أداء دور في قصة دين موجود ، وهـو اليهوديـة ، ولقد كـان مؤسس المسيحية هـو القديس بـولص الذي قام بذلك بواسطة اختـلاق قصة جـديدة ، قصـة قديـرة وعاصفـة ما فيـه الكفاية للتبشير بدين عالمي جديد ، وفي هذه القصة الجديرة أعطِيَ المسيـح دوراً قيادياً ، ولكن هذا لا يجعله صانعـاً للمسيحية أكـثر مما يجعـل هامليت(**) كـاتباً لروايات شكسبير . . . لقد كان القديس بولص ميالاً عـظيماً للخيـال ، فاختلق خرافة المسيحية بتأليه عيسى الذي كان يمثل المسيح المنقذ لليهود ، والذي كـانت تطلعاته الحقيقية تقع على مستوى السياسة اليهودية المثالية وغير الواقعية) . ومهما يكن رأي (حاييم ماكوبي) ، وهو رأي يهـودي لا نتفق معه كليـاً ، الا أنه يبـين حقيقة مهمة وهي أن المسيحية التي نعرفهـا لم يؤسسها عيسى (ع) ولكن الـذي شيدها هو القديس بـولص . ويؤكد (روبـرت باين) هـذه الحقيقة عنـدما قـدم وصفاً تاريخياً لشخصية القـديس بولص وكيف ذهب القـديس ليضفي معتقداتـه وآراءه الشخصيـة على دين عيسى الـذي أخـذه عن القـديس بـطرس والقـديس يوحنا ، فيقول[2]« فظ ونبيل ومسافر وجاف ومتعصب وكان أحـد أولئك الـذين تجرأوا لإنجاز الأشياء المستحيلة .

لقـد أعطي بـولص المجـد لكـونـه الشخص الأول الـذي صـاغ العقيـدة المسيحية كما نعرفها اليوم . فقد صب نفسه في المسيح وصب المسيـح في نفسه ، وستحمـل الكنيسة دائـماً آثار تلك العمليـة المستمـرة للتقـطير التي شغلت نصف حياته . . . ومع ذلك كان هناك شيء ناقص . فبولس كـان يتكلم عن المسيح ،

---

(١) انظر المصدر (٢١) ص ١٨٤و٢٠٤ .

(**) هامليت شخصية اخترعها شكسبير في كتبه ولها الدور القيادي في الأحداث التي تذكرها تلك الكتب .

(٢) انظر المصدر ٣١ ص ٦٢ ـ ٦٩ .

ونادراً عن عيسى ، فالرجل الذي كسر الخبز وبارك الخمر كان دائماً ابن الله على يمين الأب .

وربما كان ذلك لا بد منه ، لأن بولص لم يغفر لنفسه أبداً عدم استطاعته رؤية عيسى في الجسد(****). وقد اعتقد انه نُصِّب الهياً بواسطة المسيح لجلب الخلاص الى الاميين ، وقد جاءه الأمر على شكل رؤيا ، والمسيح الذي عرفه كان مسيحاً خيالياً ، عبارة عن صوت يتكلم بنور عظيم ، وليس لأحد أن يمسه . وبالنسبة لبولص فان المسيح كان فكرة تجريدية .

ونزعته (أي بولص) كانت استبدادية ، وكانت فيه إنسانية قليلة . وبالنسبة له ، وله فقط ، تكشفت الحقيقة . . . وهو دائماً المرتجل ، والمخترع ، مشاهداً أثناء سيرته صوراً ذهنية مثيرة وتعقيدات متداخلة أكثر فأكثر .

« انه ليس مسموحاً الذهاب ما وراء الأشياء المكتوبة » هكذا كتب هو نفسه في احدى الرسائل الانجيلية ، ولكنه كان يذهب وراءها بصورة مستمرة ، مفسراً كلمات عيسىٰ بموجب نزوات عقله الذي كان يلتهب ناراً . وأنه لواضح أنه لم يكن يعرف أي من الأناجيل ، لأن الأول بينهم لم يكتب حتى الوقت الذي قرب موته . ويبدو انه كان ، وبكل دهشة ، يعرف القليل عن حياة عيسىٰ على الأرض . والذي كان يهمه فوق كل شيء هو الصَلْب ، وهو رآه ليس شيئاً يُقاسى، ولكن لهيباً من الطاقة الالهية النابعة من عار الظروف الانسانية ، ونصراً سماوياً . وما كانت تقوله الأناجيل بعدئذ فانه نَكَرَهُ أحياناً . واعتقاداته الجوهرية كانت اعتقاد الرجل الذي تأمل حادثة واحدة على حساب اقصاء الحوادث الأخرى .

(***) بولس لم يعاصر عيسى لانه ليس من الحواريين .

لقد كانت في عقله قوة ، وتصميم قوي لاستخدام تلك القوة الى قصارى جهده .

وهو يرجع مرة أخرى الى الحجة القائلة انه ليس هناك ما يكسبه الأميون باطاعة قوانين موسى .

ومهمة بولص في رحلاته التبشيرية كانت لايجاد كنائس جديدة ولإجبار اخراج تفسير لرسالة المسيح خارج القانون . . ولم يهمه في شيء أن بطرس كان من بين المرافقين الحميمين للمسيح ، وأنه في مناسبات مختلفة وعديدة كان بطرس شاهداً لحوادث استثنائية والتي كان قد شاهدها القليل من الآخرين . ولقد كان بطرس ويوحنا الامينين الرئيسيين للسر المقدس ، وكلاهما كانا غير مهمين بالنسبة لبولص الذي كان يجبر تفسيره للانجيل بالقوة بالرغم منهما ، وإذا كان ضرورياً ، فضدهما . .

وكان بولص قد انتصر بهذا الشكل المثير في زرق هويته المتحمسة الى المسيحية المبكرة بسبب لوقا بقدر ما كان بسبب فعالياته التبشيرية ورسائله الملتهبة ». انتهى كلام (بان).

وعلى كل حال ، فان (باين) يذكر أيضاً أن هناك الكثيرين بعد بولص الذي شاركوا في صياغة المسيحية التي نعرفها اليوم . فهو يقول[1](لم تكن المسيحية بدائية حتى في بدايتها وذلك بسبب دخول أفكار مختلفة فيها . والعقيدة كبرت من خلال حياة عيسىٰ كما مسجلة في الأناجيل ، ومن خلال رسائل القديس بولص والرؤيا الملتهبة ليوحنا البطموسي غير المعروف ، وأصبحت العقيدة تشبه شجرة البلوط الموجّهة أوراقها التي لا تحصى نحو الشمس . وقد غذت هذه الشجرة جذور لا تحصى ، فاختفت الأغصان بين الأوراق المزخرفة

---

(١) انظر المصدر السابق ـ ص ٢٩٦ .

الكثيفة . وكذلك يذكر (ماين ميكس) في هـذا الصدد[1](انـه واضح من كـلا الرسائـل والأسفار أن المسيحيـة البولصيـة لم تكن عمل شخص واحـد ، ولكنها عمـل جماعـة موسعـة من الرفـاق) . ومن هنا جـاءت ، آيات القـرآن الكريم الكثيرة التي تبريء عيسى (ع) من المعتقدات المسيحية ، منهـا[2](**﴿ واذ قال الله يـا عيسى ابن المـريم أأنت قلت للنـاس اتخـذوني وامي الٰهـين من دون الله قـال سبحانك ما يكون لي ان أقول ما ليس لي بحق ان كنتُ قلتَه فقد علمتَه تعلم ما في نفسي ولا أعلم مـا في نفسك انـك أنت علام الغيـوب ، ما قلت لهم الا مـا امرتني به أنْ أعبدوا الله ربي وربكم ﴾**. وقال تعالى[3]: **﴿ لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد) .**

وبعد هذا السرد الذي يقدمه المفكرون المسيحيون يتضح أن المسيحية التي سادت منذ البداية لم تكن تعاليم عيسى (ع) ولكنها تعاليم القديس بـولص . وبطبيعة الحال فانه من غير الممكن أن تستطيع المعتقدات التي من صنع الانسـان أن تنجح في تفسير الـوجود بصـورة صحيحة ، لان الانسـان ناقص ، وبصـورة عامة جاهل بأمور الوجود . وفي أفضل أحوالها فان هذه المعتقدات لا تستطيع أن تشتمل على الحقيقة المطلقة للوجود ، لأن الناقص لا يمكنه أن يتضمن الكمال .

ان السؤال الـذي يطرح نفسـه هو : بمـاذا يعتقد النـاس بعد التخـلي عن معتقدات الكنيسة ؟ وقد يرد بعض الأوربيين بالقول (بلا شيء) وهـم يعتقـدون ذلك ، إلا أنه ليس صحيحـاً لأننا نـرى حتى أولئك الـذين يدعـون الايمان بـلا شيء يؤمنـون ببعض القيم التي وضعها لهم المجتمـع أو يضعـونها هم أنفسهم . وهنـاك الفلاسفـة والمفكرون الـذين يهمهم معرفـة سر الـوجـود وتهمهم سعـادة

---

(١) انظر المصدر ٣٢، ص ٧ .

(٢) سورة المائدة ـ الآية ١١٦ و١١٧ .

(٣) سورة المائدة ـ الآية ٧٣ .

مجتمعاتهم ، لذا فانهم ينشؤون القوانين والأعراف التي يسير عليها المجتمع . اذن فـالجواب عـلى سؤالنـا هـو ليس الايمـان بـلا شيء ، ولكن بـوضـع بعض القيم والايمان بها ، والذي معناه الايمان بمعتقدات معينة أيضاً (فحتى اولئـك الذين لا يؤمنـون بخلق آدم(ع) فانهم يؤمنـون بالتـطور) . وبطبيعـة الحـال فـان هـذه المعتقدات يجب أن يكون لها ما يبـررها بـالرغم من أن ذلـك ليس ممكناً دائـماً . فبعض الناس يبررون معتقداتهم بطرق غريبة . وعـلى سبيل المثـال ، ظهرت في السبعينات ظاهرة تعري بعض الشبـاب والشابـات في الأماكن العـامة عـلى حين غفلة في بـريطانيـا (وتسمى ستريكنـك Streaking ' والشخص المتعري يسمى ستـريكر، Streaker)، وقـد سألت احـدهم لماذا تتعـرىٰ ؟ فأجـاب : ولم لا ؟ وبطبيعة الحال فان جوابه هذا كان تبريراً معقولاً بالنسبة له ، أما بالنسبـة لي فقد كان تبريراً سقيماً وإهانة للفكر الإنساني الذي وصل الى الحضيض. ومثال آخر ، أن أحـدهم قال لي وهـو يوميء الى كـأس نصف مملوءة بالمـاء والتي قلت لـه أنها نصف مملوءة : «كلا انني لا اتفق معك ، انها نصف فارغة» . والقضيـة بطبيعـة الحال ليس فيها عدم اتفاق كـما ظن الرجـل ، فالاختـلاف لا يكـون على وصف الشيء نفسه بتعابير مختلفة أو بـطرق مختلفة ، ولكن الاختـلاف الحقيقي انما هـو ذلك الاختلاف الذي يحدث على أسس منطقية . فاذا كـان منطقي لا يتفق مـع منـطقك فـان هناك مشكلة حقيقيـة ، ذلك لان المنـطق يجب أن يكون صحيحـاً دائـماً . المشكلة اذن ليست في المنـطق ولكن في كيفيــة استعمـال المنــطق أو في الأسـاس الذي يبنىٰ عليـه المنطق ، فـاذا بدأنـا منطقنـا من قـاعـدة أو افتـراض خاطئين ، فان المنـطق يوصلنـا الى نتيجة خـاطئة لا محـال ، ولقد كـان نيتشة ، الفيلسوف الألماني ، ذكياً جداً الا أن منطقه قاده الى نتائـج وخيمة وكـان السبب في ذلـك هو انـطلاقته الخـاطئة وايمـانه الخـاطيء بـأن الانسـان القـوي يجب أن يتخلص من الانسـان الضعيف بواسـطة الابادة بـالقوة تمشيـاً مع مفهـوم التطور القائل أن البقاء للأقوى .

ولكن كيف نعرف ما هو الأساس الصحيح وأين هو ؟ ان الجواب على هذا السؤال ليس سهلاً ، ولكنه ليس مستحيلاً أيضاً . والصعوبة تكمن في الرواسب التي تعج بها عقول الناس والتي سببها المجتمعات التي نعيش فيها ومعتقدات الآباء التي تنتقل الى الابناء تلقائياً فيتلقفها الأبناء دون تمحيص وامعان ، وتصبح تشكل خلفية قوية للاختلاف بين الناس . ولنا في قصة ابراهيم (ع) مثلاً رائعاً في ذلك . والقرآن الكريم يلخص لنا القصة بقول الله تعالى:[1] **﴿ واتل عليهم نبأ ابراهيم ، اذ قال لابيه وقومه ما تعبدون ، قالوا نعبد اصناماً فنظل عليها عاكفين ، قال هل يسمعونكم اذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾** .

[2]**﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾** .

[3]**﴿ بل قالوا وجدنا آباءنا على امة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾** .

[4]**﴿ قال أوَلَو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما ارسلتم به كافرون ﴾** .

[5]**﴿ فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه او حرّقوه فأنجاه الله من النار ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾** .

ونرى هنا أن قوم ابراهيم لم يكتفوا بتكذيبه ولكنهم قذفوه الى النار . وهذا يبين الى أي درجة يمكن لرواسب الماضي أن تصل وكم يمكنها أن تفعل .

والسؤال هنا ، كيف نستطيع أن نتخلص من رواسب الماضي ؟ لا شك

---

(١) سورة الشعراء ـ الآيات ٦٩ ـ ٧٤ .

(٢) سورة الزخرف ـ الآية ٣٠ .

(٣) سورة الزخرف ـ الآية ٢٢ .

(٤) سورة الزخرف ـ الآية ٢٤ .

(٥) سورة العنكبوت ـ الآية ٢٤ .

أنها مشكلة الفرق بين النـور والظلام ، ومشكلة الفـرق بين الصحيـح والخطأ . ويستـطيع الانسـان الواعي أن يـلاحظ الى أي مـدى تؤثـر رواسب المجتمعـات الغربية على أناسها ، فالفلاسفة الأوربيون عندمـا يريـدون الاشارة الى الفلسفـة القديمة يذكرون الفلسفة اليونانية فقط وكـأنها الفلسفة الـوحيدة القـديمة . وهـذا يبين مثالاً صارخـاً علـى تأثير التحيز غير الواعي .

ومهما تكن خلفياتنا فان هناك شيئاً سنـواجهه كلنـا وبدون استثنـاء ، ذلك هو الموت . ويستهـين الماديـون بهذا المـوضوع بـالقول انـه ليس هناك شيء بعـد الموت ، وهم بطبيعة الحال لا يستطيعون اثبـات ادعائهم هـذا . والمشكلة تكمن في أن طريق الموت ذات اتجاه واحد ، وليس هناك رجعة بعـد الموت . ولـذا فان قضية الموت كانت مركزية في تفكير الانسان منذ القدم . واذا كان هناك شيء مـا بعد الموت فانه بالتأكيد لا يمكننا معرفته الا بعد اخبارنـا به بـواسطة قـوة خارقـة للطبيعة ، وبطريقة نستطيع فهمها بواسطة ما يتيسر لنا من وسائل السمع والبصر وغيرها. ذلك لأننا محدودون بالنسبة الى عالمنا ولا يمكننا أن ننفذ الى عالم مـا بعد الموت بأي طريقة من الطرق لنرى مـا فيه . اننـا ، وبكل بسـاطة محصـورون في عالم حواسنا . ولكننا مع ذلك نمتلك آلـة مقتدرة من نـوع آخر ، وهـذه الآلة لا تستطيع النفاذ الى العالم الأخروي ولكنها يمكنها ان تعرف وجـوده أو عدم وجـوده اذا ما استعملت بصورة صحيحـة . وهذه الآلـة هي العقل . وتبقى التفـاصيل التي لا بد من نقلها لنا بواسطة اخرى .

وانه لمن العجيب أن ذلك الانسـان الذي يـأخذ حـذره الأقصى وهو يقـود سيـارته عـلى طريق سـريعة عنـدما يقتـرب من منعطف لأنـه لا يعلم مـاذا وراء المنعـطف بامتـار قليلة ، يعطي نفسـه الحق في القول أنـه ليس هنـاك شيء بعـد الموت . أن الحقيقة لا تتغير سواء عرفناهـا أم لم نعرفهـا ، وتبقى حقيقة بـالرغم من الأهواء . والخطأ يبقى خطأ حتى لو اعتقد الجميع صوابه . وقد تكون هنـاك فائدة بالنسبة لنا اذا عرفنا الحقيقة . ولكن لا يهم الحقيقة بشيء اذا عرفناها أم لم

نعرفها ، لأننا نحن الذين بحاجة إليهـا ، أما هي فليست بحـاجة الينـا . وهذا يبين ضعفنا ونقصنا لأننا بحاجة الى شيء آخر ، مثل الحقيقـة . فالحـاجة ضعف لأنها نقص . واذا كانت هذه هي الحالة ، وهي بالتأكيد كذلـك ، فان المـوضوع يجب ان يعـطىٰ الأهمية والعنـاية التي يستحقهـا ، الا أنه يبـدوا ان عجلة الحيـاة تجرف معها كثيراً من الناس الـذين لا يجدون متسعـاً من الوقت للتفكـير في هذه المسـائل التي هي من الأهميـة بمكان . وانـه لمن الجهل أن تهمـل مسألـة كهذه . ولكي يشعـر الانسان كم هـو وحيد في هـذا العـالم ، فلينـظر الى السـماء في ليلة صيف صاحية عندما يكون الناس نيام ، وليغوص في بحر الفضاء بفكـره ليشعر كم هو وحيد في هذا الوجود . اننا في الواقع محتاجين كل الاحتياج لمعرفة الحقيقة مـا بعـد المـوت . فـأجسـادنـا لا تحتمـل الألم . وان الانسـان ضعيف ، وكـما قيـل[1](مسكين ابن آدم ، مكنـون العلل ، محفوظ العمـل ، مكتـوم الأجـل ، تؤذيه البقة ، وتنتنه العَرْقة وتقتله الشَرْقة).

وعندما نبدأ بالتفكير بقضيةٍ ما كالحياة والموت فاننا نواجه مـرة أخرى تـأثير الرواسب علينا ، وعلى سبيل المثال فان من يعتقد بالتطور على أنه حقيقة سيجـادل بأن الله لم يخلق آدم ، وبذلك فانه سيرفض مـا جاء بـه الأنبياء ، وهـذا بطبيعـة الحال يقوده الى الاعتقاد بأن الأنبياء كذبوا بادعـائهم أن الله خلق آدم على هيئتـه كـانسان ، واذن فهم ليسـوا انبياء وأن الله لم يـرسل أحـداً ، عندهـا فـان الله لم يخبرنا عن وجوده وإنما الإنسان هو الذي اختلق فكرة الله ، وبذلك فليس هناك من دليل على وجود الله . هذا هو منطق المـاديين ، ونـلاحظ فيه كيف انـه يصل الى نتيجة خاطئة بسبب استناده على القاعدة الخاطئة التي تقول أن التـطور حقيقة واقعية بالرغم من عدم قيام البرهان القطعي على صحتها . وهناك من يحاول أن يوفق بين اعتقاده بوجود الله وبين التطور لأنه يؤمن بالاثنين معاً فيقول ان التطور

---

(١) نهج البلاغة ـ الامام علي (رض).

لا يدل على أن الله ليس موجوداً لأن الله هو الذي خلق قابلية التطور في الكائنات . وهذا الرأي يصطدم بفكرة خلق الله لآدم كما انه لا يستطيع أن يوفق بين الفكرة الالهية القائلة أن الله خلق الكائنات الحية وبين فكرة التطور القائلة أن الكائنات الحية تطورت من خلية واحدة انبثقت بطريقة الصدفة . وأصحاب هذا الرأي أغلبهم ممن يعتقد بوجود والله ولكنهم مع ذلك يذعنون لادعاء التطوريين بسبب اعتقادهم بصحة آرائهم التي تُصَوِّر لنا على انها علمية وأن الدليل العلمي قد قام على صحتها ، وهم يجهلون أن هذا الادعاء باطل من الأساس . فكما سنرى ان آراء التطوريين ليست سوى آراءاً شخصية لا تستند على أدلة علمية قطعية . وقد يكون هذا الكلام غريباً ، ولكنه أغرب من الخيال . فهذا الغبار الذي يُثار حول عقول الناس بكثافة شديدة لحملهم على الاعتقاد بالتطور أساسه آراء بعض الناس الذين لا يؤمنون بالله لأنهم نكروا تعاليم الكنيسة للأسباب التي سردناها . وبالنسبة لهم فان الديانة المسيحية تمثل الديانة الالهية ، وعند اقامة الدليل على خطأ بعض معتقداتها فان ذلك قادهم الى الاعتقاد بخطأ جميع الأديان الأخرى دون النظر في تعاليم تلك الأديان ، وبذلك فانهم كفروا بوجود الله ولم يكن امامهم سوى الرجوع الى المادية ، وهذا قادهم الى الاعتقاد بحقيقة التطور ، اذ لو أن الله لم يخلق الكائنات الحية فمن أين أتت هذه الأحياء ؟ لا بد وأنها جاءت من الأرض . ولما كانت بعض الكائنات أكثر تعقيداً من بعضها ، وبسبب وجود التشابه بينها ، فلا بد وأنها تطورت بعضها من بعض ، وهكذا الى آخر المطاف . وهذه ، هي الخلفية التي كانت وراء ظهور فكرة التطور ، وتبين لنا مرة أخرى كيف يوصل المنطق الانسان الى نتيجة خاطئة عند اعتماده على أساس خاطيء . ووراء هذه الرعونة جرى مثقفونا العرب الذين بهرتهم تكنولوجية الانسان الأبيض ، هذه التكنولوجية التي لم ترتفع بالانسان الأبيض الى مستوى معاملة المرأة في مجتمعه على حد السواء مع الرجل . فهذه كندا وامريكا ، ولعجبي الشديد ، اكتشفت فيها أن أجور المرأة أقل من اجور الرجل عندما يؤديان نفس الوظيفة . وكما قال احدهم

انهم لكي يبيعوا جوارب نسائية ثمن الواحدة دولاراً واحداً فانهم يعرضون دعاية لمرأة عارية في سبيل جذب النساء لشراء هذه الحاجة البخسة . والمطلع على الحياة الغربية يلاحظ أن أكبر تجارة رابحة هي الدعارة وما يتصل بها . وهكذا بالنسبة لهم ، فان الانسان أصبح آلة ليس الا . فاذا كانت التكنولوجيا دليل التقدم فلماذا لم تتقدم نفوسهم باتجاه احترام الانسان اذن ؟ واذا كانت التكنولوجية قد تمخضت عن هذا الواقع ، فماذا يتوقع منها مفكرونا عندما لهثوا وراءها ؟

لقد ركض بعض مثقفينا وراء الحضارة الغربية بدون وعي ، والبعض الآخر بقي في منتصف الطريق ، فلا هو يركض ولا هو واقف ، وإنما حاول الموازنة ، فهو يأخذ من الغرب نصف ما عندهم ويحاول توفيقه على مجتمعه ، وهؤلاء خسروا المشيتين . أما البعض الآخر فقد بقي واقفاً ولم يعبّر عن رأيه بصراحة بسبب خوفه من التيار الذي أوجده الآخرون ، الا القليل القليل منهم ، وهؤلاء ، ولشديد الأسف ، وصمهم الآخرون بالتأخر فتراجعوا الى مواقعهم بدل الدفاع عن أنفسهم ، أولئك الذين كان التعري بالنسبة لهم هو التقدم والإباحية هي التقدم . تالله متى كان التعهر تقدماً ؟ أو ليس ذلك معناه أن المومسة أكثر تقدماً من العفيفة . . أو يكون هذا معقولاً . . ولكن لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

وأنا لا أعير أهمية كبيرة الى المجادلات بين المدارس الفكرية المختلفة ، سواءاً اثيرت هذه المجادلات بسبب النزعات الشخصية ، أو بسبب الجدال من أجل الجدال والذي يجعل الموضوع تضييعاً تاماً للوقت والجهود ، ولكن ما اعير له أهمية هو العدالة لأن العدالة هي الحقيقة ذاتها . والعدالة هي اعطاء كل ذي حق حقه ، لا أقل ولا اكثر . وبذلك فان طريق الحقيقة ينتهي عند معرفة الحق ومعرفة لمن يعود هذا الحق . ولكن متىٰ نستطيع أن نعتبر الحق حقاً ؟ وللإجابة على هذا السؤال فانه من الضروري التخلي عن رواسب الماضي والابتداء من جديد ، من بديهيات العقل الأساسية ، ومن اللبنة الأولى للمنطق . والحق يجب

أن يتفق مع المنطق ، وما لا يتفق مع المنطق يجب لفظه . وعند البحث عن الاحقية يجب أن نعي بأن علينا اتباع الطريق خطوة خطوة . واذا لم نستطع الحصول على تفسير منطقي مقبول لأي خطوة على الطريق يجب أن لا نقفز من فوقها الى الخطوة التي تليها كما يفعل البعض دون وعي منهم ، لأن هذه القفزة قد تكون هي الفرق بين البقاء على الطريق الصحيح أو الإنحراف عنه . والمشكلة في هذه القفزة أن الناس الذين يفعلونها إنما يقومون بها اعتماداً على خلفياتهم العقلية المملوءة بالرواسب والمستمدة من طريقة تفكيرهم المحشوة بأخطاء المجتمع التي سببها الجهل المتراكم خلال التاريخ .

ولعله من المفيد هنا ان نذكر ان بعض الناس يعتقدون أن المنطق يختلف من انسان الى آخر اعتماداً على خلفيات الناس وعلى المعلومات التي يمتلكونها . وهذا خطأ شائع ، فالمنطق ، كما ذكرنا ، لا يختلف من انسان الى آخر اذا لم يُسخّر للأغراض والنزعات الفردية ، لأن المنطق هو المنطق وهو نفسه بالنسبة لكل الناس اذا كان الغرض من ورائه التماس الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة . . فعقل الانسان جزء من هذا الكون الذي تسري العدالة في جميع ارجائه ، والتي يمكن تحسسها من خلال قوانينه الصارمة المسيطرة عليه ، والتي نظمت كل جزء فيه ، وأحد هذه الأجزاء هو العقل البشري الذي يمثل نظاماً متطوراً من أنظمة الكون . وأنا لا أنكر ان عقل الانسان الاعتيادي معرض الى تقبل المعلومات الخاطئة بسبب قلة الوعي ، ولكن المفكر او الفيلسوف ، وكما وصفه افلاطون ، يبحث عن الحقيقة ولا شيء سواها ، ولذا فان المفكرين والفلاسفة يتحملون مسؤوليات ضخمة تجاه الناس ، وانه ليس من باب اللهو ان يتفلسف المرء ، ولا من باب اللهو أن يلعب بعقول الناس . ومن هنا فان من يضع افكاره على الورقة لكي يقرأها الناس عليه أن يمحص هذه الأفكار جيداً قبل أن يطلقها الى الناس . لان المسؤولية جسيمة . ولكن ، ولشديد الأسف ، فان هذا آخر ما يفكر فيه المفكرون الذين عادة ما يملكون فكرة يؤمنون بها

ويتحمسـون لها فيـطرحونها الى النـاس دون العبء بنتائجهـا . وهـذا مـا يفعله المفكرون ، الأوربيون ، ويركض وراءهم انصاف المفكرين منا . .



الفصل الثاني

الانسان ومشكلة الخليقة

لسنا مخطئين اذا قلنا أن عدد الآراء الموجودة يساوي عدد الناس الموجودين ، على فرض أن كل انسان يمتلك على الأقل رأياً واحداً (في قضية ما) يختلف عن آراء الآخرين . وسبب ذلك أن كل انسان له خصوصيته وفرديته التي تميزه عن الآخرين . وفي الواقع أن الناس ، وبالرغم من التشابه الذي يلاحظ بينهم في الآراء ، فان كل واحد منهم له عالمه الخاص . فكل انسان عالَمٌ بحد ذاته ، ومن هنا نستطيع القول ان عدد العوالم الموجودة بقدر عدد الناس الموجودين . وهذه العوالم هي الصور التي يرسمها كل فرد في مخيلته عن الأشياء ، كل الأشياء . فعالمي هو صورة العالم التي ادركها أنا عن العالم ، وعالمك هو صورة العالم التي تدركها انت عن العالم . وبالرغم من أن هذه الصور قد تختلف في بعض النقاط الا أنها تلتقي في نقاط اخرى . وفي الحقيقة فان نقاط الالتقاء اكثر عدداً من نقاط الاختلاف . فعندما يتفوه أحد بجملة فان الآخرين يفهمونها ، كذلك فان الألم غير مرغوب ، ولكن اللذة مرغوبة ، وأيضاً بامكاننا أن نميز بين الأبيض والأسود . وبالرغم من أننا قد نختلف في ادراكاتنا للأبيض بدرجات متفاوتة وادراكاتنا للأسود بدرجات متفاوتة أيضاً إلا أننا نتفق

على أيها الأبيض وأيها الأسود .

ولكن هناك بعض المواضيع التي نتفق عليها ، الا أننا نختلف عليها في النهاية . وهذه هي المنطقة التي حصل فيها الجدال والنقاش بين الناس على مر التاريخ . وهذه المواضيع تصبح القوانين والمفاهيم التي تحركنا وتوسع ، ولشديد الأسف ، الفروق بيننا في النهاية . واثنان من هذه المفاهيم هما الصح والخطأ (أو الحق والباطل)، فكلنا نتفق أننا يجب علينا أن نقول ونتبع ونفعل الصح ، ونرتدع عن قول واتباع وفعل الخطأ . ولكن في كثير من الحالات نختلف عن الشيء الذي يجب اعتباره صحيحاً والشيء الذي يجب اعتباره خطأ . فان ما تعتبره جماعة صحيحاً قد تعتبره جماعة اخرى خطأ ، والعكس بالعكس . وعندما تحدث هذه الحالة فان الاختلاف يصل الى ذروته ، وقد يقود الى انهيار الصلة بين الجماعتين انهياراً تاماً ، والذي بدوره قد يؤدي الى اشعال نار الحرب التي تدمر كل شيء . ومثال على ذلك اننا نتفق على حرية الانسان ، ولكننا نختلف على النظام السياسي الذي يعطي الانسان حريته . مثال آخر اننا كلنا نتفق على ان الوالدين مسؤلان عن تربية الأطفال ، ولكننا نختلف عن مقدار التدخل المسموح للأبوين في شؤون ابنائهم .

لماذا نختلف على الأشياء التي يجب أن نعتبرها صحيحة والأشياء التي يجب أن نعتبرها خطأ ؟ بطبيعة الحال فان المشكلة تكمن في قصة ابراهيم (ع) التي ذكرناها سابقاً ، وهي معتقدات المجتمع الذي نعيش فيه وطريقة الحياة التي يحياها الناس ، والتي يقاومون أي تغيير لها . ويبدو أن معظم الناس يتقبلون المفاهيم والأفكار السائدة في مجتمعاتهم والتي يتربون عليها بدون مناقشة ، وبدون أي تساؤل فيها اذا كانت هذه المعتقدات صحيحة أم لا . وقد يكون السبب هو أن الناس يجدون هذه المعتقدات تتماشى مع طريقة حياتهم ، وهي كذلك دائماً لأن المعتقدات هي التي تقرر طريقة الحياة والتي يرثونها من المجتمع هي الأخرى ، ويعتبرونها صحيحة ، أو على الأقل ، لا خطأ فيها وليس هناك ما

يوجب تغييرها . وعندما لا يمحص الناس الأخلاق السائدة في المجتمع ، فان هذه الأخلاق تدخل الى حياتهم بسهولة ويتعودون عليها ، وتصبح جزءاً من المعتقدات . وهنا تكمن الخطورة .

وينشأ الناس وهم يعتبرون المَساويء الموجودة في مجتمعاتهم على أنها امور عادية ومقبولة ويجب التعايش معها ، حتى وإن كانت لا يقبلها العقل والمنطق . وبنفس الوقت يعتبرون مساويء المجتمعات الأخرى على أنها مخالفة للعقل وغير مقبولة ، وأحياناً ظواهر غير حضارية يجب رفضها . وهذه طريقة حياة تُحرِّك الناس في معظم المجتمعات ، خاصة الأوربية . وأحياناً فان الأوربيين يرفضون كل شيء يجدونه عند مجتمعات العالم الثالث التي يعتبرونها متخلفة دون نقاش ، ويعتقدون أنها يجب أن تتعلم كل شيء منهم وأنها لا تمتلك ما هو مفيد ، عدا خيرات أراضيها ، وفي نظرهم ان هذه المجتمعات غير قادرة على الاستفادة منها . ويعتقد الأوربيون أن اناس العالم الثالث أقل تحضراً منهم وأقل تقدماً (أو بالأحرى ان احبارهم جعلوهم يتصورون هكذا والنتيجة واحدة بطبيعة الحال سواء كانوا هم يعتقدون ذلك أم أنهم جُعِلوا يعتقدون ذلك) . ويحس الأوربيون بعقدة الاستعلاء تجاه العالم الثالث ، وهذه العقدة مغلفة بالجهل العميق لطبيعة الانسان والتاريخ . والقصة التالية توضح هذه المسألة . في احدى المهمات لدراسة الصحراء العربية التي قام بها مجموعة من العلماء البريطانيين ، يقول هؤلاء العلماء انهم عندما وصلوا الى الصحراء كانوا يلبسون ملابسهم ذات الطراز الغربي في البداية ، ولكنهم اكتشفوا بعد فترة قصيرة ان ملابسهم لا تلائم جو الصحراء والعواصف الرملية الموجودة في مثل هذه المناطق ، لذا فانهم بدلوا ملابسهم الى ملابس خفيفة وفضفاضة ، ولكنها لم تكن ملائمة هي الأخرى أيضاً . واستمروا في تبديل ملابسهم حتى بدأوا ، وبعد بضعة أشهر ، يلبسون نفس ملابس البدو . وعندئذ فقط ، وهو ما يثير التساؤل ، ادركوا أن البدو لم يلبسوا تلك الملابس الا لأنها الوحيدة التي تلائم تلك البيئة ، والتي تحميهم من

قساوة الظروف الجوية في الصحراء . وبطبيعة الحال فان البدو كانوا قد توصلوا الى هذه الملابس قبل آلاف السنين ، ولم يكن تخلفهم السبب في لبس الملابس العريضة والبسيطة ، كما ظن أولئك العلماء ، ولكن الطبيعة هي التي أملت عليهم ذلك . ولنفس السبب (وهو الطبيعة) تختلف ملابس الأمم تبعاً لطبيعة الظروف . فنشاهد مثلاً ان سكان المناطق الجبلية يلبسون السروال الثقيل لكي يقيهم البرد . فالانسان ذكي ما فيه الكفاية لكي يعرف كيف يحمي نفسه ، ولكن العلماء البريطانيين « المتحضرين » لم يدركوا ذلك في البداية . فهل كانوا يجهلون هذه الحقائق البسيطة وهم الذين بدأوا رحلتهم لدراسة الأمم الأخرى ؟ أم هو اعتقادهم الذي رزقه مجتمعهم في عقولهم منذ الصغر بأن المجتمع البدوي المتخلف لا يملك شيئاً من العلم يقدمه لعلماء بريطانيا المتحضرة ؟ ولكن كيف يسمح المجتمع الذي يدعي التحضر لشيء كهذا أن يحدث بالرغم من كونه مخزياً ومشيناً للفكر البشري وللانسانية المتحضرة ؟ والأنكى من ذلك انه يحدث دون وعي العلماء . فهل ان هناك غشاً وخداعاً في المعلومات المقدمة لهؤلاء الناس عن الشعوب الأخرى ؟ وكم هم مخدوعون ؟ ومن هو الذي يخدعهم ؟ واذا ادركوا أنهم مخدوعون ، فهل يستطيعون حقاً أن يصححوا أنفسهم ومعتقداتهم وطريقة حياتهم ؟ انني أشك في ذلك . فالناس في العادة لا يكترثون كثيراً ، وتسوقهم الحياة وهم لا يشعرون وخاصة اذا كانوا مرتاحين في حياتهم . والأوربيون يحسون بالتحضر زيفاً ، خاصة عندما يرون الصح ولكنهم يستمرون على الخطأ .

وأَحَدُ أعمق أنواع الخداع الذي يعاني منه الأوربيون منذ نشوء الفكر الأوربي الحديث، ويلهث وراءهم في ذلك من بهرتهم الصورة الأوربية المثالية الخادعة التي يرسمونها لهم ، هي قصة الخليقة التي يزعمونها في عصرنا الحاضر . وبعد التخلي عن الكنيسة فان الأسئلة التي يطرحها المفكرون منذ فترة هي نفس الأسئلة التي طرحها الناس على مر التاريخ عندما لم يؤمنوا بالله . فيقولون كيف

أتى كل شيء الى الوجود ؟ ولماذا ؟ وبالنسبة للبعض الذين تجرفهم مشاكل الحياة ومتطلباتها فانهم يشعرون بأن الموضوع كله لا يستحق الاكتراث . وهؤلاء تائهون ، لا يعلمون ، ولا يريدون أن يعلموا ، وهم[1]﴿ كالأنعام بل أضل سبيلاً ﴾. فهم يرون أن الانسان يحيا ثم يموت ولا تبدوا هناك أي غاية في الموضوع . فنحن نأتي من العدم ثم نذهب الى العدم مرة اخرى . وفي الواقع أن القول بأننا نأتي من العدم ثم نذهب الى العدم بحد ذاته يثير السؤال : من هو هذا الذي يأتي من العدم ثم يذهب الى العدم ؟ لأننا نعلم أن أجسادنا تتكون من التراب وعندما نموت فان التراب يرجع الى التراب . الجواب الوحيد هو أن المقصود بذلك هو (الأنا) ، أو الروح . وبطبيعة الحال فان العدم بموجب التعريف لا يتحول الى وجود وإلا فأنه ليس عدماً ، ولا الوجود يتحول الى عدم وإلا فانه ليس وجوداً ، ولذا فان القول بأننا نأتي من العدم ثم نرجع إليه قول غير منطقي ويتضمن في طياته التناقض المرفوض الذي يجعله خطأ محضاً .

وبنفس الوقت الذي يرفض فيه بعض الناس الأوربيين فكرة الخالق ، فان بعضهم يتمسك بها . والذين يرفضون فكرة الخلق (والكلام عن أوربا) يعتبرون الذين يتمسكون بها متخلفين . ولكنه ليس تخلفاً أن يستعمل هؤلاء الرافضون لفكرة الله اللغة التي طورها المجتمع على مر العصور ، وليس تخلفاً اعتبار تلك الشناعات الوحشية التي اقترفتها مجتمعاتهم بحق الانسانية على أنها مجد وحضارة يتشدقون بها ، وليس تخلفاً أن يرثوا عنصريتهم ضد الآخرين من الناس لا لسبب معقول إلا لأن ألوانهم تختلف ، ولكن عندما تصل المسألة الى الخالق ، فان التمسك بهذا الميراث تخلف وخرافة الماضي . وبالنسبة لهم فان افتراض الصدفة كأساس لخلق الكائنات الحية منطقي وعلمي . وهذا الوجود

(١) سورة الفرقان آية ٤٤ .

العظيم للمخلوقات ليس سوى عدداً هائلاً من الصدف الغريبة ، التي هي اغرب من الخيال . ولكن ذلك الاحتمال الواحد الذي يقول ان الله هو الخالق ليس علمياً ، وصدفة غير محتملة الحدوث اطلاقاً . وأنه منطق مقبول لكثير من العقول العلمية والمفكرين المشهورين ، أن عدداً لا نهائياً من الصدف حدث لانتاج الكائنات الحية المتنوعة ، ولكن هذه الصدفة الواحدة التي تقول ان الله خلق الانسان مرفوضة رفضاً كلياً وتعتبر تفاهة مستحيلة . ولنأخذ الفيلسوف (برتراند رسل) على سبيل المثال ، فهو يذهب الى تفاصيل دقيقة وكثيرة لكي يبرهن أن الله ليس موجوداً ، ولكنه يؤمن بأن الكائنات الحية جاءت بطريقة الصدفة دون أن يجهد نفسه العناء في كتابة جملة واحدة لتبرير معتقده هذا ، فهو ، وبكل بساطة ، يقول[1](قد يبدو غريباً أن تحدث الحياة بواسطة الصدفة ، ولكن في عالم واسع كهذا فان الصدفة تحدث) . وهو يضع كلامه هذا وكأن الصدفة تعتمد على الحجم ، لا على الأسباب أو الظروف . ورأيه هذا شبيه بالقول (قد يبدو غريباً أن يولد طفل اسود في عائلة للبيض بواسطة الصدفة ، ولكن في عدد كبير للبيض كالموجود على الأرض فان الصدفة تحدث) . فهل نستطيع أن نعتبر هذا القول مقبولاً علمياً ؟ أليس الواقع هو أن هناك أسباباً وقوانين صارمة تحكم كون الانسان أبيض أو اسود ، وليس الصدفة التي تجعلها هكذا . و(رسل) هنا ، وبخلاف الطريقة التي يطرح فيها آراءه عادة ، يؤكد رأيه باستعمال فعل التأكيد (تحدث) بدلاً من القول (قد تحدث) ونحن نعتقد انها حيلة سيكولوجية لكي تبدو القضية وكأنها حقيقة واقعية لا جدال فيها ! . و(رسل) يذهب الى التأكيد على قضية الصدفة أكثر من ذلك بالقول[2](ان العالم الذي نعيش فيه يمكن فهمه على أساس أنه نتيجة لصدفة ملخبطة ، ولكنه اذا كان حصيلة غاية متعمدة ، فان هذه الغاية لا بد وأنها غاية

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٢١٦ .

(٢) انظر المصدر ٢٧ ، ص ٧٣ .

شيطان مريد . وبالنسبة لي فانني أجد الصدفة أقل أَلماً ، وفرضية اكثر معقولية) . يا له من انحطاط وإهانة للفلسفة وللعقل البشري !! فيلسوف يتمسك برأي بهذه الصلابة دون أن يعطي أي تبرير منطقي له ، ولكن بمجرد شعور وأحاسيس . وهذا الرأي يجعل اندفاعه وراء تأكيد فلسفته الالحادية التي قضى حياته يلح في وعضها واضحاً ، ومع ذلك فانه يقول في اماكن أخرى اننا يجب أن نبحث عن الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة .

ولكن ما الذي يزيح التوازن الفكري للناس بهذه الطريقة الغريبة نحو رفض فكرة وجود الصانع لهذا العالم المتناهي في التعقيد والتنظيم ؟ انني اعتقد أن الكنيسة مسؤولة ، ولو جزئياً ، عن ذلك . فما الذي يمكن توقعه من عقيدة محرفة شوهها الانسان على مر العصور . وانه لواضح مما كتب (رسل) عن المسيح والمسيحية انه وجد صورة المسيح التي تُصوِّرها العقيدة المسيحية غير مقبولة على الاطلاق . ولأن المسيحية هي الدين الوحيد المتيسر له ، فانه رفض فكرة الله لأنه رفض المسيحية التي وضعها الانسان لا الله . وهذا هو نفس السبب الذي أدى الى انتشار موجة الالحاد التي اكتسحت أوربا بعد تقدم الاكتشافات العلمية الحديثة وتحرير الانسان الأوربي من القيود التي وضعتها حوله الكنيسة لقرون طويلة . وهذه الموجة امتدت الى انحاء كثيرة من العالم معيدة معها الوثنية الى مسرح الحياة من جديد ، ولكنها في هذه المرة أكثر خطورة من العصور البالية ، لأنها جاءت مبطنة باسلوب فلسفي انتهى بالبشرية الى الدمار تحت المعتقدات المادية الظالمة .

ولما لم تستطيع الكنيسة تبرير معتقداتها التي تعارضت مع العلم ظهرت مقولة جديدة تزعم أن العقل لا يستطيع أن يصل الى معرفة الله ، ولكن الوصول الى الله يكون بواسطة القلب والحب ، وبواسطة نور يرميه الله في قلب الانسان فيحس به ويؤمن . و (رسل) يذكر ذلك بقوله[١](ان البروفسور

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٧٥ .

ج . س . هـالدين يـزعم « انه ضمن أنفسنـا فقط ، وبـواسـطة مُثُلنـا الفـاعلة للحقيقة والصح والالهام والجمال والألفـة مع الآخـرين ، التي تلي ذلـك ، فاننـا نجـد الهام الله ». والـدكتور مـالينوسكي يقـول ان « الالهام الـديني ، وكمسألـة مبدأ ، عبارة عن احساس يقع ما وراء حقل العلم »). ونحن نتساءل لماذا دُفِعَ هؤلاء الـذين يؤمنون بـالله الى الخلف ، وحوصـروا في زاوية لا يُحسـدون عليهـا وهم يحملون فقط هذه الادعاءات المختَـرَعَة المهـزومة والمهينـة في معركتهم ضـد الالحاد ؟ السبب في ذلك هـو أنهم لم يجدوا في معتقـداتهم ما يكفي لاسنـادهم . وهنـا ، وكما هـو واضح ، فـان الكنيسة قـد ألغت عقول اتبـاعهـا في معـركتهم وتركت الملحدين بكامل عقولهم النشطة ، وبـذلك وضعت فكـرة الله في موضـع متراجع . كيف يستطيع القلب أن يفـوق العقل في معـرفة قضيـة بهذه الخـطورة والأهميـة كمسألـة الخلق التي تطلبت المعجـزات من الأنبياء لاقنـاع الوثنيـين في الأزمان الغابرة ؟ وهل يمتلك الانسان أداة أفضل من العقل للوصول الى حقيقـة الأشياء ؟ فالعقل هو الأداة الوحيدة التي خداعها للانسان أقـل ما يمكن . وليس من الـواقع في شيء أن نقـول أن الإيمان بـالله هـو شيء في القلب فقط . وإذا لم نستطع التوصل الى معرفة الله بواسطة العقل والمنطق فان قلوبنـا بالتـأكيد سـوف لن يكون المعول عليها لهذه المهمة . لأنه اذا كان الله ذلك العقـل الجبار ، وهـو الذي خلقنا ، واذا كانت عقولنا أفضل الأدوات التي وهبنا اياهـا ، وإذا كان من المفروض فينا أن ندرك وجود الله ، فـان العقل هـو بالتـأكيد الأداة المعـول عليها لهـذه المهمـة . واذا لم نستـطع أن نتـوصـل الى الهـدف بـاستعمـال هـــذه الأداة الفعالة ، فانه من غـير المعقول ، بـل ومن المستحيل ، التـوصل اليـه بأداة أقـل قـدرة من العقل ، وهـو القلب ، فالعقـل يجب أن يكون متفـوقاً عـلى القلب في اعـطاء أي حكم عادل ، خـاصة اذا كـانت القضيـة تخص الخلق ، وإذا كـانت عقولنا عاجزة عن التوصل الى معرفة الله فان ذلك معنـاه ان الله خلقنا محـدودين بحيث اننا لا يمكننا معرفته وبنفس الوقت طلب منا معـرفته ، وفي ذلـك تناقض وظلم ، وحاشى لله ذلك . فالانسان يمتلك عقلاً مقتدراً نـزل بعيداً في الأعمـاق

الـداخلية لـلانسان ، وذهب بعيـداً الى عمق الفضاء الخـارجي ، وانـه من غـير المفيد أن يُخلَق مخلوق بهذا الذكاء ويُتـرَك في جهل تـام عن الخالق ، خـاصة وان هـذا المخلوق يمتلك اهتمامـاً كبيرا جـداً لمعرفـة أصل وجـوده . وفي الواقـع أن الأكثر احتمالاً هو أن هذا الاهتمام لمعرفـة الأصل ، ولكـونه بهـذه الشدة ، هـو جزء لا يتجزأ من كينونة هذا المخلوق ، ويبدو أنـه متأصـل فيه وكـأنه جـزء من وجوده وفطرته . ان حواسنا لا يمكنها أن تتعدى تحسس الأشياء المادية ، وقلوبنـا ليست منطقية ، وهي متحيزة في معظم الأحيان ، والعقل هو الأداة التي أوصلت الانسان الى نظرية المعرفة بأكملها .

وقـد قيل أن أحـد الملوك البرابـرة الوثنيـين غزا بـلاد المسلمين في الشـرق الأقصى في غابر الأزمان ، فطلب أن يحضر كبير علمائهم . ولمـا حضر طلب منه الملك أن يرى الله الذي يعبـده قائـلاً : ـ غدا ، وأمـام الجند والنـاس ، ستريني الهك الذي تعبده ، وان لم تفعل ضربت عنقك .

وفي اليوم التالي ، وأمام جمع كبير من الملأ ، جيء بالرجل التقي ، وامتثل بين يدي الملك ، فقال له الملك : ـ أرني الهك الذي تعبده .

فـأخرج الـرجل التقي كـرتـان مسقـولتـان ويمتلكـان نفس اللون والحجم ووضعهما على منضدة أمام الملك ، وقال للملك : ـ اخبرني يا صاحب الجلالة ، هل ترى من اختلاف بين الكرتين .

فنظر اليهما الملك وتفحصهما بيده ولسـانه وأنفـه ، فلم ير فـرقاً ، وقـال : ـ كلا لا أجد أي فرق بينهما فهما متشابهتان تماماً .

وعند ذلك قال الرجل التقي : ـ ارفعهما يا صاحب الجلالة .

فرفعهما الملك ، وكـانت احداهمـا أثقل من الأخـرى . واحدة من حـديد

والأخرى من الخشب . عندها قال الـرجل التقي للملك : ـ والآن ، هـل ترى من اختلاف .

فأجاب الملك بالإيجاب ، فسأله الرجل التقي : ـ ومن أخبرك بذلك .

قال الملك : ـ عقلي .

فرد عليه الرجل التقي : ـ انه نفس العقل الذي أخبرك بوجود الاختلاف بين الكرتين عندما فشلت حواسك اخبرني بوجود الخالق .

فأيقن الملك وأسلم ، وأسلم معـه من أسلم من الجند والأعيان .

وقيل في الأخبار أيضاً أن رجلاً مـر بعجوز طـاعنة في السن وهي تصـلي ، فسألها : ـ كيف عرفت وجود الله .

فأجابت : ـ ان البعرة تدل على البعير والأثـر يدل عـلى المسير أفسـماء ذات أبراج وبحار فجاج لا يدلان على اللطيف الخبير .

وهذه الروايات ، سواءاً كانت حقيقية أم قصصـاً لأولي الألباب ، تـوحي لنا بمسألتين .

الأولى أن العقل قادر على التوصل الى معرفة الله تعالى اذا استعمل بصورة صحيحة وهذه حقيقة لا جدال فيها ، فقد قال رسول الله (ص) : العقـل دليل المؤمن . والثانية هي ان الله لا يمكن تحسسـه بحواسنـا ولكن يُستقرأ وجـوده من اثره ، وهو الخلق . وهذان الدعامتان ، العقل والاستقراء ، همـا اللتان أوصلتـا الانسان الى الاكتشافـات والعلوم الحاضـرة حيث انه من الحقـائق الثابتـة ، على سبيل المثال ، ان العلماء لم يسخنوا الحديد الموجود في الكون بـأكمله لكي يضعوا قانونهم القـائل أن الحـديد يتمـدد بالحـرارة ، ولكنهم أجروا تجـاربهم على بعض الحـديد فـاستقرأوا هـذا القانـون من ذلـك بـواسـطة استعمـال قـوانـين العقـل وبـديهياتـه . ولعل من المهم جلب انتبـاه القـاريء الى أن أولئـك العلماء الـذين يقـولـون أن الانسـان تـطور من خليـة يستعملون نفس الـدعـامتـين ، العقـل

والاستقـراء . فهم وجدوا بعض المتحجـرات والهياكـل العـظمية ، ومعـظمهـا نـاقصة ، فـاستقروا نـظرياتهم . وهـذا الاستقراء هـو ما يجب علينـا تمحيصه . فالنظريات لا زالت غير مكتملة كما سنرى ، وهناك الكثير من النقائص فيها .

ولنأخذ مثال رجل غـرق في البحر وأغمي عليـه ولكنه لم يمت ، فنقـل الى مستشفى معينة . فاذا استيقظ الرجل من غيبوبته ، فهل له من سبيل لمعرفـة اي مستشفى تلك التي يرقد فيها . أو كيف جاء اليهـا ؟ بطبيعـة الحال ليس هنـالك سبيـل لذلـك الا اذا أخبـره أحـد يعـرف ، أو انتـظر حتى يخـرج من المستشفى ليستكشف الموضوع بنفسه . ولكن هل أن تصوراته داخـل المستشفى عن مكانها وكيفيـة مجيئه اليهـا تضير الحقيقـة شيئاً أو تغـير منها ؟ ان هـذا المثال يـوضح لنـا السبيل الى معرفة كيفية مجيئنا الى هذا الوجود . فأما أن يخبرنا من يعرف بواسطة رسـالة مفهـومـة من الخـارج ، أو اننـا ننتـظر حتى نخـرج من هـذا العـالم لكي نعرف . ان معرفتنا محدودة كمعرفة ذلـك الرجـل في المستشفى . ولكن الخطورة تكمن في كون الطريق غير ذات رجعة .

ولعله من باب الاطلاع على امور البشر وتفكيرهم أن نذكر قصة نمـرود ، أحـد أباطـرة بابـل ، الذي طلب أن يُبنىٰ لـه صرحـاً عاليـاً لكي يصـل الى الـه ابراهيم ويقاتله ، فكان يرمي السهام الى السماء . وعندما سُأل كاكـارين ، رائد الفضاء السوفيـاتي الأول الذي خـرج الى الفضاء ، عن رأيـه بوجـود الله بعد أن رأى ما لم يره انسان قبله ، فأجاب بأنـه لم ير الله . وأنـه لواضـح أن عقل رائـد الفضاء « المتحضر » لم يذهب أبعد من عقل الامبراطور البـربري كثيـراً بالمقـارنة مع فضاء الكون الشاسع ، فكلاهما تصوراً أن الله جسم مادي . الأول يريد أن يقتله والثاني يريد أن يراه . وحتى لو كان الله جسماً مادياً لاستطاع أن يهـرب من سهام نمرود ويتحاشىٰ عيني رائد الفضـاء ، ان شاء هـو ذلك . فيـا عجب كيف تفكر هذه الانسانية الضالة .

وبعيداً عن نمرود وكاكارين ، هناك مفكرون جهدوا أنفسهم في التفكير في مسألة الخلق ، وبطريقة أكثر لياقة من طريقة نمرود وكاكارين . فقد تساءل الانسان ، ومنذ القديم ، عن جوهر الوجود وأصله . ومن أين أتى كل هذا الذي نراه ؟ ومن الذي خلقه ؟ وما هو هذا الخالق وأين يوجد ؟ ثم نظر الانسان الى نفسه وشخصيته وقدراته وتساءل عنها كثيراً ، ما هو الألم وما هو الحزن وما هو الحب وما هي الكراهية ، وما هو العقل ؟ ولما لم يستطع الاجابة على كثير من الأسئلة بسبب غياب المعلم الصحيح وصلت به المتاهة الى حد أنكر معه وجود نفسه . ووصل به الشك الى كل زاوية حتى بدأ يشك في معاني اللغة التي اخترعها هو كأداة للتعبير عن رغبته وإرادته . وتكونت مدارس فكرية عديدة ، منها المادية التي لا تؤمن بما وراء المادة ، ولذا فقد أنكرت وجود الخالق لهذا الكون بدون اعطاء تفسير لأصل الوجود . وأفكار هذه المدرسة سائدة في عصرنا هذا ، فكثير من الناس يؤمنون بالله ولكنهم بنفس الوقت يعيشون حياة مادية ، أي أنهم لا يلتزمون بالمعتقد ، وهذا يجعل السؤال التالي يطرح نفسه : ما هي فائدة الايمان بأي قضية اذا لم يلتزم المؤمن بها وإذا لم تؤثر على حياته ؟ في الواقع أن المؤمن في هذه الحالة يحيل العقيدة الى شيء لا معنى له .

والمدرسة الفكرية الأخرى هي المدرسة المثالية التي وصل الأمر ببعض مفكريها الى انكار الوجود المادي ووضعوا كل شيء في شك . وبهذا شك الانسان حتى في وجوده وفي معنى الوجود نفسه ، وشك في أبسط البديهيات العقلية وبذلك أغلق الطريق على نفسه لمعرفة الحقيقة . حيث اذا سلكنا طريق الشك لاثبات الوجود سوف تطرح أسئلة كثيرة نفسها بمجرد سلوك هذه الطريق الوعرة ، لأن الشاك بوجوده ان لم يكن هو موجوداً فمن هو ذا الذي يحاول أن يجد الجواب لهذه الاسئلة ؟ وان شك بوجود ومعاني الكلمات فمن هو لكي نصدق كلماته وادعائه الشك ؟ ومن نحن وما هي الأهمية عندئذ سواءاً صدقنا أم لم نصدق ؟ وان لم نكن موجودين فلماذا هذا العناء طوال هذه السنين

لمعـرفتنا ؟ ومن هـو ذا الـذي يحـاول أن يعـرفنـا ؟ انـه ليس مـوجـوداً ولا نحن موجودين فأغلق الكتاب وليس من حقك أن تطلب شيئـاً أو تقول كلمـة ، ودع ما يحدث أن يحدث لانه ليس هناك ما يحـدث أو أي شيء موجـود سواءاً حيـاً أم ميتاً . ودع الفوضى تسود لأنه ليس هناك فوضى . انه العدم التام .

وفي هذه المتاهـة ضاعت جهـودٌ انسانيـة كثيرة . فقـد حاول (ديكـارت) الفيلسوف الفرنسي أن يبدأ بداية تصور أنها الأساس ، فقال انني أشك في وجود كل شيء عدا شيئاً واحداً وهو ذلك الشيء المفكر ، الانا ، فقال : أنا أفكـر لذا أنا موجود . ولكنه ان كان يشك في وجود كل شيء كان الأجدر بـه أن يشك في وجود اللغة التي استعملها لأنها ليست موجـودة قبله ، وقبل تفكيـره ، لذا فليس من حقه أن يستعملها ويقول مقولتـه المشهورة « أنـا أفكر لـذا أنا مـوجود » لأنـه ليس هناك لغة بعد ، فاللغة تأتي بعد وجوده ولم يكن شيئاً موجـوداً بعد . وعـلى أي حال ، عليه أن يثبت وجودها ثم يعـرّفها ويعـطيها المعـاني قبل استعمـالها . والمسـألة الأخـرى التي تشكل خـطأ في تفكير (ديكـارت) هي استعمالـه المنطق للبرهان على وجوده بالقول « أنا أفكر لذا أنا موجود »، وهي مختصر للجملة « أنا أفكر ، وكل مفكر موجود ، لذا أنا موجود »، فقد اعتبر (ديكارت) ان المنـطق موجود وان قوانينه صحيحة ، ولكنه لم يخبـرنا كيف أتى المنـطق الى الوجـود ومن برهن صحته حيث انه لم يثبت حتى وجوده بعد .

عندما استعمل (ديكارت) المنطق فانه افترض ما يلي ضمنياً :

- ان اللغة موجودة ، ولذا استعملها للتعبير عن أفكاره .
- ان المنطق موجود وقانينه صحيحة ومقبولة .

لذا فان (ديكارت) عندمـا تصور بـأنه يشـك في كل شيء لم يكن صـادقاً في تصـوره لأنه لم يشـك في كل شيء . وفي الحقيقـة انه لم يشـك في وجود أي شيء على الاطلاق ، بل انه معترف بوجـود كل شيء ضمنيـاً وإن لم يشعر . وانـه من

الواضح ان (ديكارت) عندما شك في وجود كل شيء قد وضع نفسه في سجن صنعه لنفسه ولا يمكنه الخروج منه ليخبرنا من هو . ان طريق الشك مغلوقة ولا تؤدي الى حل المشكلة . وبالرغم من أن (ديكارت) حاول جاهداً أن يبرهن صحة اعتقاداته إلا أنه لم يكن ناجحاً تماماً في ذلك . ومع ذلك فانه قدم كثيراً للفلسفة ، وعلى الأقل أننا نعرف الآن أن طريق الشك لا توصلنا الى شيء .

وقد انتقد (برتراند رسل) ديكارت بالقول أن الجملة « انا أفكر لذا أنا موجود» ليست سوى عبارات غير مترابطة ولا علاقة لبعضها ببعض لغوياً. فهو يقول[1](ان الأنا التي تم اثبات وجودها قد استُدِلَّ عليها من حقيقة أنا أفكر لذا أنا موجود اثناء التفكير ، وفقط عند ذلك . واذا توقفتُ عن التفكير فلن يكون هناك ما يدل على وجودي) . ثم يستطرد فيقول[2](أنا أفكر هي فرضيته النهائية[*]، وهنا فان الكلمة « أنا » هي في الحقيقة غير شرعية ، وكان عليه أن يصوغ فرضيته النهائية على شكل « توجد افكار ». ان « الانا » ملائمة نحوياً ، ولكنها لا تصف حقيقة مُسَلَّم بها . وعندما يذهب الى القول « انا شيء يفكر » فانه مسبقاً وبتمييز ضعيف يستعمل أدوات المقولات المعطاة مسبقاً من قبل السكولاستية[**]. وهو لا يبرهن في أي مكان أن الأفكار تحتاج الى مفكر ، وليس هناك سبب يدعونا الى تصديق ذلك بادراك نحوي) .

ونحن في الواقع لا نرى مكاناً لاعتراض (رسل) على مقولة (ديكارت) . فهو يتكلم عن فترة زمنية تأتي بعد الفترة الزمنية التي يتكلم عنها (ديكارت) الذي لم يقل أبداً انه يكفي أن تفكر « الأنا » مرة واحدة لكي تكون

---

(١) انظر المصدر ٢٨ ، ص٥٤٨ .

(٢) انظر نفس المصدر، ص ٥٥٠ .

(*) اي ديكارت .

(**) السكولاستية فلسفة نصرانية سادت في العصور الوسطى (فلسفة المدرسين) . ,

موجودة الى الأبد . وواضح من مقـولة (ديكـارت) ان ما عنـاه هو أن « الأنـا » مـوجودة مـا دامت تفكر . و (رسـل) يؤكد رأيـه السابق في انتقـاد (ديكارت) بالقول[1](ولكن هنـاك حاجـة الى بعض الانتباه في استعمـال حجة ديكـارت . « انا أفكر لذا أنا موجود » تقول أكثر مما هو مسموح به على النحو الصارم . وقد يبدو وكأننا متأكدين من كوننـا نفس الشخص اليوم كـما كنا أمس ، وهـذا بدون شك صحيح على نحو معين من الادراك . ولكن النفس الحقيقية صعبة المنال كما هي الحـال مع المنضـدة ، ولا يبدو أنها تمتلك اليقـين المطلق المقنـع الذي يخص ادراكات معينة . فعندما انظر الى منضدتي وأرى لوناً بُنيّاً معيناً ، فان ما هو أكيد في لحظتها هو ليس انني أرى لوناً بنياً ولكن بالاخرى « ان لوناً بنيـاً تتم رؤيته » . وهذا بطبيعـة الحال يتضمن شيئـاً (أو شخصاً) يـرى اللون البني ، ولكنه بحـد ذاته لا يتضمن ذلك الشخص الدائم نوعاً ما والذي نسميه « الأنـا »، وبالنسبـة للحد الذي يصـل اليه اليقـين ، فقد يكـون ذلك الشيء الـذي يرى اللون البني وجيـز الوجـود الى حد بعيـد ، وليس نفس الشيء الذي يمتلك ادراكـاً مختلفاً في اللحظة التالية) . و (رسل) هنا يتكلم عما اذا كانت « الأنا » مستمـرة الوجـود أم لا ، وليس عـما يتكلم عنه (ديكـارت) الذي يصف وجـود « الانا » عنـدمـا تكون في حالة التفكير لأي فترة زمنية مهما كانت متناهية في الصغـر . ان مسألـة ما اذا كانت هذه الأنا هي نفسها في الفترة الزمنية المتناهية في الصغر اللاحقـة أم لا مسألة أخرى . ومن الواضح فان (رسل) يعتبر الظواهر التي تكـوّن « الأنا » على أنها متغيرة مع الزمن ، ولذا فانه يشك في أن تكون الانا اللاحقة هي نفسها الأنا السابقة . ويبدو أنه متأثر كثيراً جداً باكتشافات الفيزياء النـووية التي تقـول ان كل شيء في تغير دائم ودوري . ولكن الفيزياء تتكلم عن الأشياء المادية وليس عن الأشياء اللامادية . ويتضح أن (رسل) يفترض انطباق قوانين الفيزيـاء على الوجود الـذي ما وراء الـطبيعة ، او عـلى الأقل فـانه يستنتـج التشابـه . وقد لا

(١) انظر المصدر ٢٩، ٨.

تكون الحالة كذلك لأن الوجود الذي ما وراء الطبيعة أكثر أساسية من الوجود المادي . واذا كانت الأنا ، وكما يقول (رسل) ، تتغير مع الزمن ، فان ذلك معناه انه توجد فترة زمنية بين الأنا الأولى والأنا الثانية لا يوجد خلالها شيء ، أي يحدث خلالها العدم المطلق . والعدم لا يمكنه أن ينتج أي شيء . واذا انعدمت الأنا فلن يكون بامكانها الرجوع الى الوجود . واذا تحطمت الظواهر المكونة للأنا ، واجتمعت مرة أخرى لكي تكوّن أنا أخرى فسوف ينفقد كل شيء ، والأنا الثانية سوف لن تتذكر الأنا الأولى . لان تحطيم جميع الظواهر المكونة للأنا والذاكرة ثم اعادة تجمعها مرة أخرى لتكوين أنا أخرى وذاكرة أخرى مشابهتين تماماً للأنا الأولى والذاكرة الأولى عملية معقدة جداً وغير ضرورية ، ويصعب تصورها . من ذلك يتضح انه ليس هناك تحطيم وتجميع للأنا . وعلى كل حال فان (رسل) لا يعترض على وجود الأنا المفكرة أثناء عملية التفكير . لذا فانه في الواقع لا يعترض على مقولة (ديكارت) ، ولكن ، ولأجل الجدال ، فانه ينغمس في موضوع آخر يختلف كلياً عما يريد (ديكارت) ان يقول ثم يحاول ربط هذا الموضوع الى مقولة (ديكارت) . ويمكن القول انه طالما أن (رسل) قبل هذه المقولة في الأصل فان المشكلة يمكن حلها بصياغة مقولة اضافية هي « انا استمر بالتفكير لذا أنا مستمر في الوجود ». والتوقف عن التفكير هو التوقف عن الوجود ، كما يريد (رسل) أن يفضي الينا ، وهو الموت . واذا فرض (رسل) رأيه علينا بالقول أن الظواهر المكونة للأنا تتغير خلال فترات معينة من الزمن سواءاً كنا مستمرين بالتفكير أم لا ، فانه سوف يخالف موقفه الأول الذي قبل فيه صيغة (ديكارت) الأولى والتي أضاف اليها بالقول أنك اذا أحسست بأي احساس فانك موجود . وعند ذلك فان السؤال الذي يطرح نفسه هو : كم صغيرة هذه الفترة الزمنية التي توجد ، أو لا توجد ، خلالها الأنا ؟ وبطبيعة الحال لا يمكن أن يوجد هناك اتفاق على شيء كهذا لأنه بامكاننا تصغير الفترة الزمنية التي لا توجد خلالها الأنا الى الحد الذي

تصبح فيه صفراً ، وبذلك نحصل على الأنا المستمرة في الوجود(*) .

والاعتراض الثاني الذي اعترضه (رسل) على (ديكارت) هو ان (ديكارت) كان عليه أن يبرهن وجود الأفكار . وهذا صحيح ، إلا أن الأفكار هي الأخرى ليست حقائق مُسلّم بها لأنها ليست مجموعة من الظواهر موضوعة بنمط نظامي معين ، وبذلك فانها تحتاج الى من يقوم بعملية التنظيم . والأفكار لا تصنع الأنا ولكن الأنا هي التي تصنع الأفكار . ذلك لأن الأفكار ليست أفكاراً قبل تنظيمها ، بل عبارة عن ظواهر متشتتة . لذا فان طلب (رسل) من ديكارت أن يصوغ افتراضه على أساس الأفكار وليس المفكر تفاهة تامة ، لأن المفكر بالضرورة يأتي قبل الأفكار كما يأتي الباني قبل البناء .

ان (رسل) لم يبرهن خطأ (ديكارت) باعتراضاته ، ولكن الخطأ في تفكير (ديكارت) هو شكّه الذي تصوره اسلوباً صحيحاً لمعرفة الحقيقة والوصول الى هدفه .

والمشكلة التي يعاني منها الفلاسفة في تفسير الوجود تكمن في اعتمادهم على المعلومات والاكتشافات العلمية المتوفرة في زمانهم ، والتي قد لا تكون صحيحة . والمثال على ذلك الأثير الذي استعمله (ديكارت) لتفسير استمرارية واتصال الوجود . ولما اكتُشِف ان الأثير غير موجود انهارت نظريته . ومثال آخر (ماركس) الذي اعتبر نظرية (دارون) في تفسير أصل الانسان صحيحة ، واعتقد ان الانسان تطور من الحيوانات الدنيا التي هي بدورها نشأت وتطورت من المادة . ولذا كان ذلك دلالة على عدم وجود الله بالنسبة له . و (ماركس) بطبيعة الحال ، وكثير من الذين لا زالوا يتمسكون بهذا الاعتقاد ، اعتبروا فكرة التطور حقيقة بالرغم من أنها لم تكن سوى استقراءاً مبتوراً استُنتج من ملاحظة التشابه بين الكائنات الحية . وحتى (برتراند رسل) الذي لام الفلاسفة على

(*) انظر الفصل الثاني عشر لمزيد من التفصيل .

اعتمادهم على الاكتشافات العلمية في زمانهم ، والتي اتضح أن كثيراً منها كان خطأ ، وقع في نفس الخطأ عندما بنىٰ افكاره على أساس العلم وقوانين الفيزياء ، وكان كثير التأثر بنظرية التطور الدارونية . فهو يقول[1] (يقال ان هناك ثلاث مراحل من التطور حدثت : المادة ، والحياة ، والعقل ، وبذا فليس هناك سبب يدعونا لافتراض أن العالم انتهى من التطور) .

ان استقراء فكرة التطور لم يأخذ بنظر الاعتبار الفروق الكثيرة الموجودة بين الكائنات الحية . وبدلاً من ذلك فانه ركز على الصفات والظواهر المشتركة بينها ، والذي يجعله استقراءاً ناقصاً . وبسبب انه لم يأخذ الموضوع من كل جوانبه فلا يمكن اعتباره استقراءاً مقبولاً . وان اعتماد (ماركس) على نظرية لم يقم البرهان القطعي على صحتها يجعل نظريته المادية تقف على أساس ضعيف ، وقد لا يكون هناك أساس على الاطلاق . وقد برهن العلم حديثاً أن المادة ليس سوى خاصية واحدة ، أو وجهاً واحداً من وجوه الوجود ، وليست الوجود كله . ولكن الماركسيين لا زالوا يؤمنون بمعتقدهم .

وعن التطور ، فاننا نعرف الآن أن (دارون) كان على خطأ في كثير من الأشياء ، وكان من الضروري تصحيح نظريته للحفاظ على فكرة التطور . وظهرت حديثاً نظريات تفند نظرية التطور كلياً .

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٢١٤ .

الفصل الثالث

تأثير نظرية* التطور على الفكر المعاصر

لم تكن قضية صعبة بالنسبة للأوربيين الوثنيين الذين كانـوا يؤمنون بتعـدد الآلهة قبول الفكرة القائلة ان الله أرسل ولده الى الأرض عـلى هيئة انسـان يحمل رسالة للبشر . فبالنسبة لأولئك الوثنيين من عبدة الأصنام كانت الفكرة اعتياديـة ومقبولة تماماً . ولذا فان القديس بولص نجح في جذب اتبـاع أكثر من القـديس بطرس الذي اعلن أن بولص منافق . وكان الاختلاف الـرئيسي بينهما هـو قضية كـون عيسى ابن الله أم لا . ويتضح أن القـديس بولص هـو الـذي طـرح هـذه الفكـرة الا أن القديس بـطرس عارضهـا . ولكن لم يكن أحد ليسمـع المسكـين بطرس (وهو أحد الحواريين) الذي قضى معـظم حياتـه في زنزانـة تحت الأرض أعدها له الرومان .

وكـان لبولص مـا أراد . فالمسيحيـون أعلنـوا أن عيسى ابن الله ، وهكـذا أصبح . ولكن ذلك لم يكن مقنعاً للبعض ، وكان لا بد من تبرير هذه الفكرة . لذا قيل أن الناس في فلسطين سمعوا صوتـاً صادراً من السـماء يقول « ان عيسى ولـدي »، أو هكذا يقـولون . ولكن لمـاذا احتاج ابن الله الى صـوت يصـدر من السماء ليؤكد هويته ؟ ألم يكن باستطاعته أن يبرهن للناس على ذلك دون الحاجـة

الى صوت يصدر من السماء ؟ واذا كان كـذلك فـأي اله هـذا الذي لا يستـطيع فعل شيء بسيط كهذا ؟ ثم بعـد ذلك قيلت قصص كثيـرة . وحاولت الكنيسيـة التمسـك بهذا الاعتقـاد عـلى مـر التـاريـخ . وبهـذا الصـدد يقـول (بـرتـرانـد رسل)[1](لقد كان القديس سيريل متألماً عندما علم أن القسطنطينيـة قد زاغت عن الطريق بواسطة تعاليم بطريركها نستوريوس الذي آمن بـوجود شخصـين في عيسى ، احدهما انسان والآخر اله . وعلى هذا الأساس فان نستوريوس اعترض على ممارسة تسمية العذراء « ام الله ». فهي ، كما قال ، ام للشخص البشري ، بينـما الشخص الالهي ، الـذي هـو الله ، ليس عنـده أم . وعـلى هـذه النقـطة انقسمت الكنيسة : بصورة عامة ، أساقفة شرق السويس فضلوا نستـوريوس ، بينـما اولئك الـذين كانـوا غرب السـويس فضلوا سيريـل . ولـذا فقـد دُعي الى اجتمـاع مجلس شـورى كَنَسي في افيســاس عـام ٤٣١ م لاتخـاذ القـرار بشــأن الموضوع . وقد وصل الأساقفة الغـربيون أولاً ، وأغلقـوا الأبواب بـوجه الـذين جاءوا متأخرين ، وقرروا على عجل ساخن من أمرهم عـلى رأي سيريـل الذي توجه بالشرف قائلاً « ان هذه الفتنة الكنسيـة ، وعلى مسـافة ثـلاثة عشر قـرناً ، تفـرض الـوجـه الحســاس لمجلس الشـورى الكنسي المسكـوني الثـالث . . وفي عام ٤٤٩ م ، وبعد وفاة القديس سيريل ، حاول مجلس السنودس(*) في افيساس أن يحمل النصر الى أبعد من ذلـك ، وبذلـك وقع في بـدعة معـاكسة لتلك التي وقـع فيها سيـريل . وهـذه البدعـة تسمى بدعـة وَحْدِ يَـطْبيعِي(**)، وتقول أن المسيح يمتلك طبيعة واحـدة . . . . وعلى الأقـل فان البـابا ليـوفي في عام معـركة الشـالـون استـطاع عقـد اجتمــاع مجلس الشـورى المسكـوني في شـالسيــدون عــام ٤٥١ م ، والـذي أدان الـوَحْـدِيَـطْبيعيـون ، وقــرروا نهائيــاً عقيــدة

---

(١) انظر المصدر ٢٨ ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

(*) مجمع كنسي

(**) المذهب القائل ان المسيح طبيعة واحدة .

التجسد(*) الارثذوكسية ، وقد قرر مجلس شورىٰ افيساس انه يوجد شخص واحد للمسيح ، ولكن مجلس شورى شالسيدون قرر أن المسيح يوجد في طبيعتين ، واحدة بشرية وواحدة الهية . وكان تأثير البابا عظيماً لضمان هذا القرار) . ومن هذا يتضح ان ادعاء عيسى ابن الله هو من صنع الانسان .

ولكن يبدو أن مجيء وذهاب ابن الله لم يحقق معجزة اصلاح البشرية المتوخاة ، وبدلاً من ذلك فانه عُذِّب بكل وحشية ولم يحدث شيئاً لأولئك الذين عذبوه أو للأرض ككل . وانه من حقنا أن نتوقع أن يحب الله ابنه أكثر من حبه للبشر ، وبذلك نتوقع أن يتخذ الله عملاً ما ضد أولئك الذين عذبوا ولده على أقل تقدير . ومن حقنا أيضاً أن نتوقع أن المسيح ، اذا كان ابن الله كما يزعمون ، وعندئذ فانه اله أيضاً ، يجب أن يكون باستطاعته أن يتجنب اعداءه على الأقل ويهرب منهم . واذا قلنا انه لم يفعل ذلك متعمداً ، لأي سبب كان ، فان ذلك سيكون أسوأ مثال لاتباعه ، لانه يدعو الناس عملياً لتقبل العذاب والاضطهاد حتى لو كانوا قادرين على تخليص أنفسهم منه . فأي اله هذا الذي يطلب من أتباعه أن يخضعوا الى أعدائهم حتى عندما يكون بامكانهم تجنبهم . وهذا ما لم يفعله أي أحد من معتنقي العقيدة على مر التاريخ . وعلى كل حال ، بدلاً من انقاذ الأرض فان ابن الله يبدو وكأنه فشل في مهمته الأولى وتراجع في معركته ضد البشر ، ولذا فانه سيعود ثانية في زمن أكثر ملائمة ليحقق ما لم يستطع تحقيقه في المحاولة الأولى . وكأن الله وابنه يخضعان للزمن .

لماذا ارسل الله ولده في ذلك الوقت بالذات ، وماذا كان يحدث عندئذ ؟ وهل ان ما حدث من ظلم قبل ذلك أو بعده لم يكن بالشدة التي تتطلب نزول ابن الله من السماء ؟ ان التاريخ يخبرنا بأن الانسان اقترف جرائم قبل وبعد ظهور عيسى أبشع مما كان يحدث آنذاك . فهذا هتلر وذاك موسليني ، وستالين

(*) اتحاد الالوهية والناسونية (اي الانسانية) في المسيح .

ونابليون وغيرهم من الطغاة . وها هم اليهود الصهاينة يقترفون أبشع الجرائم في فلسطين ، أكثر من ذي قبـل بكثير . فلمـاذا لا يرسـل الله ابنه مـرة أخرى ، أو أحد ابنائه لتصحيح الوضع ؟ وهل ان لله ولداً واحداً أم عدة اولاد ؟ فـطالما انـه يمتلك ولداً فما الذي يمنع من امتـلاكه عـدة أولاد ؟ وما هـو الشيء الذي أنجـزه عيسى ولم يستطع عليه الأنبياء ؟ في الواقع أن الأنبياء الآخرين مثل مـوسى وداود وسليمـان كانـوا أكثر نجـاحاً من عيسى في تشييـد وأدامة دول حكمت بمـا أنـزل الله . وقد نتوقـع أن يتمكن ابن الله من تحقيق أكثر ممـا تمكن منه الأنبيـاء ، أكثر بكثير ، أو انه يسبب تغييراً جذرياً في حياة البشرية . ولكن الذي حدث هـو أن عيسى وأتبـاعه عـاشـوا في الخفـاء لعـدة سنـوات ، ثم القي القبض عـلى عيسى وعذب وهاجر اتباعه هرباً من الموت .

ان ترقيع الكنيسة الدائم لمعتقداتها لم يكن ناجحاً في يوم ما . وقد حكمت الكنيسة في أوربا خلال العصور الوسطى واقتـرفت جرائم بشعـة ، أفظع بكثـير من تلك الحـال ثار ضـدها عيسى . واسـوأ ما كـان فيها انها اقتُـرفت بـاسم الله والمسيـح . ويطبيعـة الحـال فـان الخـطأ لم يكن في الله ولا في عيسى ، ولكنـه في تفسـير الانسان للرسـالة السمـاوية بمـوجب ما تشتهي نفسـه . وعندمـا بـدأت الكنيسـة تضمحل كـدولة لم يستـطع الناس ان ينفصلوا عنهـا كلياً . لـذا فـانهم انفصلوا عن روما تدريجياً مؤسسين مذاهب وتجمعات أخرى . وهذا ، سوية مع الاكتشافات العلميـة التي بدأت تبـيّن زيف المعتقدات الكنسيـة ، شجع النـاس على التمرد ضد الكنيسة ، ثم ضد الدين ككل .

عنـدما تخـلى الأوربيون عن الكنيسـة ، ثم عن الـدين ، مـا هـو البـديـل امامهم ؟ ولماذا رفضوا فكرة الله كلياً ؟ وهل كان الرفض لله أم للكنيسة ؟

في الـواقع ان النـاس في أوربا تخلوا عن الكنيسـة لأنها لم تعد قـادرة على تبـرير معتقـداتها التي عـارضت العلم ، ولأن النـاس ، وبعـد ارتفـاع المستـوى الفكري لديهم ، أصبحوا لا يقبلون ما يقـال لهم . وأي فكرة لا تـلاقي الاقبال

مـا لم تبرر نفسهـا بطريقـة أو بأخـرى لجذب بعض العقـول اليها . ولا يمكن في الوقت الحاضر اجبار فكرة ما على الناس . وطريقـة القديس بـولص لا يمكن أن يكتب لها النجاح الآن .

وفي غيـاب عقيدة سمـاوية أخـرى ، فان البـديل الـوحيد أمـام المفكرين الأوربيـين كان رفض فكـرة الله والاتجاه نحـو عالمهم المـادي وحياتهم اليـوميـة . وبذلك بـدأت الأفكار المـادية تنتعش ، وكـان ذلك قبـل ظهور (مـاركس) على مسرح الأحداث واختلاق نظريته الشيوعية بكثير ، فقد ظهرت نظريات التـطور قبل ذلك والتي كان لها الأثر الكبير في اسناد الأفكار الماركسية .

ان ظهور فكرة التطور لم تكن سوى خـطوة طبيعية في الفكـر الأوربي بعد رفض الكنيسـة ومعتقداتهـا ، لأن السؤال اصبح : اذا لم يكن الله مـوجوداً فمن أين أتينا ؟ وبطبيعة الحال ليس هناك جواب غير القول اننا جئنا من الأرض التي تحتنا . ولكن كيف ؟ لا بد وأننا بدأنا صغاراً وأقل تعقيداً ثم تطورنا : اذن فهـو التطور ، الفكرة السحـرية التي حلت المشكلة . ذلـك لأن القول بـأننا جئنـا كما نحن عـلى هيئتنـا يتبعـه القـول انـه يجب أن يكـون هنـاك من صنعنـا . وهـــذا الاستنتـاج يمثل جـريانـاً طبيعياً لهـذا الأسلوب من التفكير لأنـه ليس معقـولاً أن نتصور اننا ظهرنا الى الوجود فجأة على هيئاتنا كما نحن بطريقة الصدفـة . وهناك كثير من الملاحـظات التي سندت فكـرة التطور ، وكـل ما نحن بحـاجة اليـه هو النظر الى الكائنات الحية الأخـرى . وكانت الفكـرة التي اكتسحت رؤوس عقلاء أوربا هي انه ليس المهم الآن أن نبـرهن على كـل شيء مرة واحـدة . ولذا فـاننا سـوف نقبل الفكـرة أولاً ثم نحاول أن نجـد الأدلة عـلى صحتهـا بعـد ذلـك . وهكذا اقنع المؤمنون بفكرة التطور أنفسهم ، خاصـة بعد أن أصبحـوا متأكـدين من أن فكرة الله والمسيح ليست سـوى خرافـات من الماضي . وفي الـواقع ليس هناك من مسلك كان باستطاعة الفكر الأوربي أن يسلكـه . فقد وصـل الى نهاية مسدودة . والنظر الى السماء لم يعط الجواب فـاضطر الأوربي أن يـدير وجهـه الى

الاتجاه الوحيد المتاح لـه ، وهو الأرض . فجـاء (دارون) في الوقت المنـاسب ، ومعـه بدأ عصر جـديد ، فقـد أخرج الـرجل الأوربي من مـأزقه واعـطاه فرصـة جـديدة ، وأمـلاً جديـداً ، للبحث عن أصل الخليقـة ، ولكنـه لم يعط الجـواب تمـاماً . وظهـور (دارون) وفكرة التـطور لم يكونـا مسألـة عفويـة ، وكـما يقـول (جفري كودمان)(*) ان الوضعية كانت ناضجة لظهور فكـرة التطور ولـو لم يأت بهـا (دارون) لاتى بهـا غيـره ، فقـد كـان (ألْفْـرَيـد والاس) يعمـل في نفس الموضوع ويحمل نفس الفكرة الا أن (دارون) سبقه في طبع كتابه عن القضية .

وقد غزت نظرية التـطور الفكر البشـري لأكثر من قـرن من الزمـان ، ولا زالت تسيطر على جانب كبير من هـذا الفكر . ولمـا كان الاستنتـاج المباشر لهـذه النظرية هو ان آدم لم يُخلق كما تقول الأديان السماوية فان ذلك معناه ان الأنبياء كذبوا وان كـذبهم ساد منـذ القديم . أمـا الآن ومع التنـوير العلمي في عصـرنا الحـاضر فان هـذه السفـاهـات يجب أن تتـوقف . فليس هنـاك انبيـاء ولا الله ، والأنبياء ليسوا سوى رجال مصلحين تقمصوا شخصيات مقبولـة في ذلك الـزمان وملائمة للتـأخر والتخلف السـائد حينئـذ . وبذلـك فان هـذه النظريـة كـانت الدعامة المهمة والسند القوي لظهور المادية الحديثة . وتقول النظرية أن الكائنات الحية بدأت من خلية واحدة (أو عدة خلايا متشابهة) كانت قد انبثقت من المادة تحت ظروف خاصة وبطريقة الصدفـة . على أن النـظرية لم تـوضح كيفيـة تجمع المادة بالنِسَب الدقيقة للمكونات المختلفة المطلوبة لتكوين الخلية ، وكيفية ظهـور الحياة . وكل شيء يخص الحياة ، وهو الجزء المهم في الموضوع ، يبقى على شكل افتراضات غامضة لا يمكن قيام البرهان عليها . وقد تمسك الماديون بالنظرية على أنها صحيحة لأنها لائمت أفكارهم ودعمت نظرياتهم في تفسير الوجـود ، وأقوى برهان على ان الله ليس موجوداً . ولكن هؤلاء نسوا أن النظرية نفسها لا تقودنـا بـالضرورة للتـأكيد عـلى عدم وجـود الله لان احتمـال أن الله هـو الـذي أوجـد

(*) انظر المصدر ١٠ .

الظروف للخلية الأولى لكي تنبثق يبقى ممكناً ، وليس هناك ما يبرهن على بطلان هذا الاحتمال . كما ويبقى السؤال عن أصل المادة الميتة نفسها ، والتي أتت منها الخلية ، بغير جواب ، ولا تستطيع النظريات المادية ونظرية التطور الدارونية أن تفسر أصل المادة ومن أين أتت فكلها تقف عند هذا الحد، عند المستحيل .

وقد يكون مناسباً هنا أن نذكر ان التفسير الذي أعطاه (دارون) وغيره من التطوريين للتشابه الذي يمكن ملاحظته بين الكائنات الحية ليس التفسير الوحيد الممكن أو الموجود . وسوف نتوسع في هذا الموضوع في الفصول القادمة .

وبالرغم من أنه ليس كل الناس شيوعيين ، إلا أن كثيراً منهم لا يؤمنون بالله . وحتى اولئك المؤمنين بالله فان ما يؤمنون به لا يخرج الى حيز التطبيق ليؤثر على حياتهم وطريقة معيشتهم فهم لا يمارسون عقائدهم على الواقع العملي ، وبدلاً من ذلك فانهم يعيشون حياة مادية لا تختلف كثيراً عن حياة الملحدين . والسؤال الذي نحن بصدده هو كيف أثرت فكرة التطور على تفكير الناس وحياتهم ؟ وهنا يمكن القول أن التطور قد ساهم في جذب الناس نحو الالحاد والمادية أكثر من ذي قبل ، وجعل بعضهم يفكر بالطريقة التالية : دار نقاش بيني وبين أحد الأشخاص حول موضوع الخليقة ، وكان هذا الشخص لا يستطيع اتخاذ القرار فيما اذا كان الله موجوداً أم لا . وهذه الريبة والعجز في التصديق ظاهرة عامة بين الناس في وقتنا الحاضر ، خاصة في أوربا . وللوصول الى نتيجة معه وضعت قلماً على الطاولة وسألته : ـ هل تتفق معي ان هذا القلم جاء على الطاولة بنفسه بواسطة الصدفة ؟

فكان جوابه : بالتأكيد كلا .

فسألته : ولم لا ؟

فأجاب : غير ممكن ، العقل لا يستطيع أن يقبل هذا الافتراض .

فقلت : حسنــاً ، ومـاذا عن هـــذه المنضـدة ، هــل تتفق معي أنها أتت بنفسها ؟

وباستعمال نفس المنطق كان جوابه : كلا .

فقلت : وماذا عن هذه الغرفة ؟

وكان الجواب نفسه : كلا ، لا بد وأن أحداً بناها .

عندها قلت : وهذه المدينة التي نعيش فيها ، هل جاءت بنفسها ؟

وجاء نفس الجواب : كلا .

ثم سـألته : وهـذه البلاد التي نعيش فيهـا ، هـل بـالامكـان انها جـاءت بنفسها بطريقة الصدفة ؟

قال : كلا .

وهنا سألته السؤال الأخير : وهل أتت الكرة الأرضية الى الوجود بنفسها ؟

فجاء الجواب المدهش : لا اعلم . . . . ربما !!

وواضح أن منطقه لم يستطع أن يختـرق المسافـة العظيمـة لحجم الأرض . وهذا مفهوم لأن الكرة الأرضية كبيرة الحجم . ولكن الشيء المثير للدهشة هو أن نفس هذا المنطق بامكانـه أن يخترق مسـافة أعـظم من الأرض ليصل الى خـالق الأرض فينكر وجوده . وهذه اللااستمرارية أو الانفصال في التفكير مقبـولة جـداً وتعتبر منطقية عند الناس المتعلمين وذوي العقول العلمية في مجتمعاتنا الحاضرة . وأنا لا اعلم ، فقد يكون هناك تعريف للعلم والمنطق نحن لم ندركه بعد .

وبصـدد انكار وجـود الخالق يقـول (رسـل)[1](منـذ زمن دارون ونحن نفهم بصـورة أفضل لمـاذا تكيفت الكـائنـات الحيـة الى ظـروفهـا . وانـه ليست الـظروف التي جُعِلت ملائمـة لها ، ولكنهـا هي التي نمت لتلائمهـا ، وهـذا هـو

(١) انظر المصدر ٦٢٧ ص ١٧ .

أساس التكيف ، ولا توجد أدلة على الصنع فيها) . ويبدو أن (رسل) كان على عجل من أمره في اتخذا قراره بشأن هذه القضية المهمة ، وكأنه وجد ما يسعف فلسفته الملحدة ، فمبدأ الانتخاب الطبيعي ، وهو الذي يشير اليه في عبارته السابقة ، تم التخلي عنه من قبل مدعي التطور أنفسهم ، حيث وُجِد انه لا يفي بالغرض ، وبذلك أصبح من الضروري تغيير رأي (رسل) تغييراً جذرياً .

وبعد افتراضه بأن المبدأ أعلاه صحيحاً ، فان (رسل) يسأل السؤال التالي :[1](لماذا فضل الخالق الوصول الى غايته بواسطة عملية تدريجية بدلاً من الذهاب اليها مباشرة ، ان هؤلاء اللاهوتيين الحديثين لا يخبروننا) . ولكن وكما سنرى ، ان الله ذهب الى غايته مباشرة وليس خلال عملية تدريجية كما يزعم (رسل) . فالأدلة الحديثة تبين أن الانسان الحديث ظهر فجأة على الأرض على هيئته الحاضرة ، واضعاً فكرة التطور بأكملها في قفص الاتهام . واذا كان (رسل) يفترض صحة التطور بدون أدلة كافية فماذا يستطيع اللاهوتيون اخباره ؟ ان كل ما يستطيعون أن يقولون له هو أن الله خلق الانسان والكائنات الحية الأخرى ، وهو يأبى قبول ذلك . والسؤال الذي يخطر على الذهن هو : هل أن التطور استطاع أن يفعل كل هذا لعقول الناس ؟ أم ان الناس هم الذين تمسكوا بفكرة التطور بسبب ضياعهم العقائدي ؟ وهل أن فكرة التطور جعلتنا أكثر انسانية ، أم اكثر انانية ؟

قد يقول علماء التطور ان هذا لا يهمهم فهم يهتمون بالحقائق العلمية ، والحقائق العلمية وحدها ، الا أن هذا ليس صحيحاً لأنهم لم يحصروا أنفسهم ضمن نطاق الحقائق والاكتشافات العلمية فقط ، وإنما تعدوها الى الادلاء بآرائهم وطرح استنتاجاتهم ونسجوا نظرية عن الوجود اعتماداً على بعض العظام

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ص ١٨٠ .

والمتحجرات التي وجدوها بواسطة التنقيب . وعند التمعن في الموضوع بصورة موضوعية ، فانه من الصعب على المرء أن يتصور أن تفسير أصل هذه الظاهرة العجيبة (الحياة) يكمن في مجموعة من العظام والمتحجرات .

ونتيجة للايمان بفكرة التطور فقد ظهرت نظريات غريبة عن الأجناس البشرية . منها نظرية تقول أن الانسان الأفريقي متطور على باقي اجناس البشر وأنه أرقى أنواع البشر في حلقة التطور بسبب وجود الأدلة التي تشير اليها نظرية التطور ، على حد زعم تلك النظرية ، مع انه ليست هناك أدلة حضارية تسند هذا الادعاء ، بل الملاحظ أن أجناس البشر الأخرى كانت أفضل حظاً في تشييد الحضارات سواءاً المادية أم الفكرية ، والتاريخ يزخر بذلك . ولو كان الانسان الأفريقي هو المتطور لوجب أن يكون أحسن حظاً في تشييد حضارات تفوق حضارات الأجناس الأخرى ، والا فما معنى التطور نحو الأحسن !! وهؤلاء يضربون لنا أمثالاً بأن تجمعات بشرية قديمة وبدائية كانت في افريقيا ويُعتقد أنها أول تجمعات بشرية في التاريخ .

ولكن السؤال هنا لماذا لم تَسُد تلك الحضارات وتتطور اذن ؟ خصوصاً وأن الذي أنشأها هو الانسان الأرقى كما يزعمون ! ونحن هنا لسنا بصدد الحط من انسانية وكرامة الانسان الأفريقي ومقدرته على تشييد الحضارات ، فهو لا يختلف عن غيره من أجناس البشر ولا فرق هناك ، ولو توفرت له الظروف لاستطاع أن يشيد حضارات مماثلة لتلك التي شيدها الآخرون . ولكننا هنا بصدد توضيح زيف هذه المزاعم التي لا تتفق مع المنطق ولا مع الأدلة التاريخية الأخرى . ونحن نرى كم أن هذه النظرية تناقض أفكار (نيتشة)(*)والنازية التي تمخضت عن أفكاره والتي أدت الى تدمير أوربا بحجة أن الانسان الآري هو الانسان الأرقى وهو الذي يجب أن يرث الأرض بعد تدمير وانهاء الأجناس البشرية

(*) الفيلسوف الالماني.

الأخـرى ، حيث اعتبر (نيتشـة) ان الانسان ، وبمـا أنه يمتلك الـوعي يجب أن يقـوم بعملية التـطور نحو الأرقى بصـورة واعيـة(**)، وذلـك بـابـادة الأجنـاس الأخـرى الأقـل تـطوراً بـواسـطة القـوة . و (هـربـرت سبنسر) ، الفيلسـوف الانكليزي ، سماها « البقاء للأصلح » وهي نفس مقولة « الانتخاب الطبيعي » التي قالها (دارون) ، ولكـن بطريقة أخـرى . والنازيـة أكدت عـلى ان الانسان الآري هو الأكثر تطوراً ، وهو الذي يجب أن ينفذ هذه المهمة . والنازية وضعت الانسان الافريقي في أسفل سلم التطور ، وهذا يبين تناقضها مـع تلك النظريـة التي زعمت ان الانسـان الأفـريقي هـو الأكـثر تـطوراً ، بـالـرغم من أن كـلا النظريتين مشتقتان من نفس فكرة التطور .

وما فعله النازيون لم يختلف كثيراً عما فعله الانكليز أيـام الملكة فكتـوريا . و (جفري كودمان) يقول[1](انه من المؤسف ، في انكلترة ـ فكتـوريا المتـزمتة ، أن تسـود أفكار دارون عن النـاس ذوي الجلد الـداكن ، والتي أعـطت أسـاسـاً جديداً للعنصرية ، ومن ثم للامبريالية والاستعمار . ورأي دارون اعطى أساساً جديداً للعنصرية ، ومن ثم للامبريالية والاستعمار . ورأي دارون أعطى أساساً منـطقياً كـاذباً من نـاحية علم الاحيـاء ، ومظهـراً علمياً خـادعـاً ، لـلأوربيـين الـزاحفـين الى أراضي آسيـا وافريقيا والبـاسفيـك غـير المستغلة لنهب أنـاسهـا ومواردها . . . . وعلى التوالي فسر المستعمرون مهمهاتهم على أنها كانت لتحضير سكان تلك البلاد ، أولئك المتخلفين التعساء الذين هم في الـدرجة الـدنيا عـلى سلم التطور . لذا فان الملكة فكتوريا لم تبدي اي حرج عندما اغتصب سيسيـل رودس(***)جنـوب افريقيا وسرق امبـراطوريـات القبائـل السود ، من مـاسهم وذهبهم) .

(**) انظر كتاب هكذا تكلم زرادشت ـ نيتشة .

(١) انظر المصدر ١٠ ، ص ٤٧ .

(***) مؤسس روديسا ، الان زائير.

ويبدو واضحاً أن أصل المشكلة يمكن الرجوع به الى فكرة التطور . فعندما ننظر الى التقسيم الذي وضعه (دارون لأجناس البشر (وقد يكون يكون بسبب تأثير عنصريته هو نفسه) نرى التشابه الملفت للنظر بين هذا التقسيم والطبقات التي وضعها النازيون لأجناس البشر على سلم الرقي الذي وضعوه ، على حد زعمهم . ويقول (كودمان) ان (دارون) كان يؤمن انه في التطور فان[1] (الارتقاء من الأشكال البسيطة الى الأشكال المعقدة حتمي . وتحت هذا المفهوم فان أنواع الانسان تسلقت على سلم التطور من الأسود الى البني الى الأصفر الى الأبيض) . وهذا هو نفس التقسيم النازي ، الا أن النازية عرضته بشكل اكثر تفصيلاً . ويستطرد (كودمان) فيقول[2](وبطريقة غير علمية تماماً اعطى دارون مغزى تسلسلياً لأجناس البشر المختلفة) . وهذا المغزى لا يتفق مع الحقائق التاريخية لحضارات وادي الرافدين ومصر أيضاً ، والتي أخذ منها (دارون) ، والانسان الأبيض ككل ، دينه ومُثُله وقيمه الخلقية المستمدة من تعاليم المسيح (ع) . والتفسير الوحيد للسلم الذي وضعه (دارون) للأجناس البشرية بهذا الشكل هو عنصريته المتأصلة ، والا فما معنى أن يطرح عالم في الاحياء فكرة كهذه ؟ ومن يعتقد أن النازية مسألة ألمانية بحتة فانه مخطيء ، لأن النازية ليست سوى وجهاً من وجوه هذه العنصرية البغيضة للانسان الأبيض ضد الملونين والتي ظهرت في المانية على شكل النازية ، وفي أمريكا على شكل القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما وناكازاكي ، وفي افريقيا على شكل عنصرية بغيضة ضد سكان البلاد السود الاصليين ، وقبل ذلك في استراليا فانقرض سكانها الاصليين (الابرجنيين) ، وفي امريكا ، فانقرض الهنود الحمر . وعنصرية (دارون) الذي كان ينتمي الى الطبقة الاستقراطية في انكلترا يمكن تحسسها من اعتراض زوجته (آني) على دفن عالم

(١) انظر المصدر ١٠ ، ص ٤٥ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ٤٥ .

الاحياء الانكليزي « أَلْفَرَيد رسل والاس »، الذي كان صديقاً لدارون ولكنـه لم يكن ارستقـراطيـاً ، اعتـرضت عـلى دفنـه بجـانب قبـر (دارون) في كنيسـة ويستمنستر . ويخبرنا (كودمان) انه[1](كانت هناك طلبـات بأن يُـدفن بجانب دارون في كنيسة ويستمنستر ، ولكن « آني » زوجـة دارون رفضت ، وبذلـك تم دفنه في التراب الانكليزي الذي كان يحبه حبـاً جماً ، وبـدلاً من ذلك نُصبت لـه لوحة تذكارية في كنيسة ويستمنستر تبعد خطوات عن قبر دارون) . وطبعـاً فان السبب الـوحيـد الـذي يمكن التكهن بـه لـرفض « آني » دفن « والاس » قـرب (دارون) هـو لانه ليس من الـطبقة الاستقـراطية ، والا فـما هـو الاعتـراض ؟ والملاحظ أن هؤلاء الناس كانت عنصريتهم بشعـة الى حد أنها طـالت الطبقـات الأخـرى من شعـوبهم ، والتي اعتبـروهـا أقـل منهم منـزلـة . ولم يكن علم « والاس » وعقله يشفعان له . ولم تنظر اليه « آني » عـلى أنه عـالم جليل ، ولكن مجرد فرد من الطبقات الدنيا ، ويبقى وضيعاً في نظرهـا مهما ارتقى ، بحيث انـه حتى عند الموت لا يستحق الدفن قربهم . هكذا هم الذين جـاءونا بهـذه الفكرة التي لم يستطع العلم تبريرها لحد الآن .

وهناك نظرية غريبة تمخضت عن فكرة التطور ، وقد جاء بها (بييرتايلهارد دي شاردين)[*]الذي كان عالم احياء وقسّاً بنفس الوقت . ونظريته تقول انـه ، وباستمرار التطور ، فان البشرية سوف تتكامل الى مخلوق واحد . والبشرية تسير باتجاه توحيد البشر بأجمعهم الى مجموعـة واحدة مشتـركة ـ التفكـير . ويبرر (دي شاردين) آراءه بالقول ، لما كانت الطاقة قد تـطورت الى مادة ، والمـادة تطورت الى حياة ، والتي بدورها تطورت الى العقل والارادة ، فان الخطوة المقبلة ستكون تـطور عقول الجنس البشـري بأكمله الى وحـدة عضويـة واحـدة حيث سيعمـل

(١) انظر المصدر السابق، ص ٤٣ .

(*) انظر المصدر ١٩ .

الناس بتآلف وتوافق نحو هدف واحد بالضبط كخلايا الجسم الواحد . وواضح أن هذه النظرية تصلح أن تكون فلماً من أفلام علم الخيال أكثر مما هي تأملات علمية . ويبدو أن (دي شاردين) غافل تماماً عن حمامات الدم والمذابح البشرية على مر التاريخ ، وعن عنصرية قومه البيض في افريقيا الجنوبية . أو لعله غير مكترث ، فهو يبدو كالانسان الذي يعيش في عالمه الخاص ولا يعلم ما حوله . وأنه لمن الغريب أن نرى قسّاً يؤمن بفكرة التطور المخالفة لتعاليم كتابه المقدس ، انه تناقض يرقد في شخص واحد . لا بد وأن هذا الشخص كان تعيساً ، أو انه لم يكن طبيعياً ، أو ليس قسّاً حقيقياً ، لأنه من الصعب فهم كيف ان هذا الرجل استطاع التوفيق بين الانجيل والتطور . فاذا آمن بالتطور فانه لم يؤمن بالانجيل الذي يقول أن الله خلق آدم على هيئة الانسان ، وبذلك فانه ليس قساً حقيقياً . وعلى أي حال ، فان (دي شاردين) لم يخبرنا في نظريته عن تصوراته للهدف من وراء تكامل العقول البشرية .

ولكي يتضح لنا تأثير فكرة التطور على عقول العلماء الأوربيين ومفكريهم دعنا نرى الالماع المخيف في رأي (بيجورن كورتين) الذي لا يلاحظه معظم الذين يقرأون كتابه . فباسم علم الاحياء ، ولاجل التطور المقدس ، يقول[1](ان البحث في علم الأحياء يفك الرموز الجينية وقد يصل في المستقبل الى النقطة التي نستطيع عندها أن نبدأ بالسيطرة على تطورنا بصورة مباشرة ، بدلاً من الطريقة المؤلمة والملتوية للانتخاب الاصطناعي أو الطبيعي) . اذن فهو ينادي بطريقة أقل ألماً لتقدم الانسان من الناحية البيولوجية . ولكن ما هي هذه الطريقة الأقل ألماً ؟ يستطرد (كورتين) فيقول (ان جميع الكائنات في الطبيعة على قرن مأزق : أنها تحتاج الى انتخاب للحفاظ على الصحة وقابلية الحياة . ولكن الانتخاب مؤلم للفرد . فلو استطاع الانسان أن يحرر نفسه من المعضلة ،

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٧٢ .

فانه سيكون قد ربح الحرية الحقيقية ـ وهذه ستكون حالة فريدة في تاريخ الحياة على الأرض) . انها وبلا شك رائحة نازية . فهو يسمي منع الناس عن ممارسة حقوقهم الغريزية وامتلاك الأطفال بأنه تحرير واعتاق . وهذه الحقوق يحتفظ بها لأقلية معينة (وبدون شك ستكون هذه الأقلية هي الرجل الأبيض ، أو بالأحرى أقلية منهم وليس كلهم) . وما لم يمكن انجازه بواسطة الابادة للأجناس البشرية قد يمكن انجازه بواسطة الاقناع وغسل الأدمغة . وهذه الدعوى لا تمثل الا طريقة قديمة وخادعة للظلم والاضطهاد ، ولكن هذه المرة لكل الأجناس ، وليس لبلد أو أقلية . يا له من تفكير مظلم وجنوني .

فالانسان يجب أن يحصل على الحرية الحقيقية بتحرير نفسه من انسانيته. أليس هذا هو ما تتضمنه كلمات الرجل ؟ (وكورتين) يتحدث عن خطر ازدياد السكان الكبير في البلدان المُعدَمَة والتي قد تكتسح الانسان المتحضر ، فيقول[٢](عند التحرك أكثر الى داخل مناطق المُعدَمين ، نجابه اشكالاً جديدة للاقعاد أو الموت بواسطة العنف . وهنا فانه الحرمان الذي يصبح العامل الرئيسي ، وفي المقام الأول ، فانه الجوع . . . ومعدل الولادات العالي يوازَن بواسطة معدل وفيات أعلى ، خاصة بين الأطفال ، واذا استمر الاتجاه الحاضر ، فقد تحدث هذه الوفيات بتكرار اكثر) . وهنا فانه يتكلم عن العنف والمجاعة والجوع وكأن هذه الأشياء ظواهر طبيعية ، أو ان أولئك الناس الجائعين غير قادرين على زراعة أراضيهم . وهو بذلك يتغافل عن التدخل السياسي المتعمد في البلدان المُعدَمَة بواسطة القوى العظمى لضمان مصالحها الانانية . وكعالم من العلماء كان الأجدر به أن يعي الوضعية الحقيقية السائدة في هذه المناطق من العالم ، والتي تُفرَض بالقوة المصطنعة ، وليس بالتطور الطبيعي أو البيولوجي ، واذا كانت هذه هي الحالة السائدة فانه من الطبيعي أن تحصل المجاعة المتكررة . ولكن ما بال أولئك المتحضرين المتطورين ذوي الحظ السعيد والثروة

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٥٩ .

الـوفيـرة لا يهبّـوا لمساعـدة الجائعـين ؟ وأين الانتخاب الـطبيعي عندمـا يمـوت الأطفـال من الجوع ؟ وهـل سيعيش الطفـل الأوربي اذا تعرض للمجـاعة ؟ أي كائن حي سيعيش اذا تعرض للجوع ؟ ولكن لا حول ولا قوة الا بالله ! !

ويستمـر كورتـين بالقـول[1](وعندمـا تزداد أعـداد هؤلاء السكان ، فـان الجـوع يميل الى التسـابق في المقدمـة ، وذلـك لأنـه بنفس الـوقت تُمتص المـوارد الطبيعية بالاستغلال الوحشي بمظاهر عديدة . . . واذا أصبح الجـوع هو العـامل الرئيسي للابقاء على عدد السكان واطئـاً ، فلربما أن الأفـراد الحَذِقـين والأنانيـين فقط هم الذين يبقون ، وبذلك يعطون جيناتهم كميراث الى أجيال المستقبل) . ونحن نتساءل ماذا حدث للوجه الانساني للبشريـة ، الا تمد الشعـوب المتحضرة يد المساعـدة ؟ وماذا عن الشعـور الانساني للنـاس الذين تصيبهم المجـاعة ، الا يساعد بعضهم بعضاً ؟ وهل ان المجاعة تلغي الشعور الانساني والعقول المنطقية والثابتة الى الـدرجة التي يتحـول فيها كـل الناس الى وحـوش فيبقى منهم الأناني فقط لأنه سوف يأخذ كل شيء لنفسه ؟ انه يصور هؤلاء الناس وكأنهم أقرب الى القرود لمجرد أنهم لا يمتلكون التكنولوجيا التي كان قومه السبب في حرمـانهم منها بالقوة والتقتيل والابادة . وعلى أي حال ، أي تطور هذا الـذي يأمـل أن يكون الأناني هو الباقي والمزدهر ؟ أليس هذا هو الرجـوع الى الوراء بـالتطور وليس الى الامـام ؟ ونحن نتساءل ، لـو أن بلداً مثل انكلتـرا التي لا تمتلك الا القليـل من الموارد الطبيعية ، لو أن العالم توقف عن تصدير الأغذية اليها ، الا تحدث مجـاعة كتلك التي تحدث في البلدان المُعدَمَة ؟ الا يبين هذا الوضعية الزائفـة السائـدة في البلدان المُعدَمَة ؟

ويستمر (كورتـين) بالقـول[2](طالما ان جزءاً واسعـاً من العالم في حـالة

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ١٥٩ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ١٦٠ .

حرب مستمرة تقريباً ، فان هذا النوع من الانتخاب في عمل وتأثير) . ونحن نتساءل ، هل ان هذا يعني أن أوربا أنهت عملية الانتخاب الخاصة بها بسبب الحروب التي مرت بها ؟ وكيف يكون القتل من مسافة بعيدة بواسطة الآلة الحربية المشتراة أو المستعارة من الآخرين انتخاباً طبيعياً ؟ فقد يُقتَل رجل قوي بواسطة رجل ضعيف يضغط على نابض المدفع . وماذا عن الحرب النووية التي تقتل كل الأحياء ؟ كيف يفسرها التطور ؟ اننا لا نرى في رأي الرجل الا دعوة حاقدة الى تغذية الحروب لقتل الملّونين والحفاظ على الجنس الأبيض من أن يصبح أقلية صغيرة في هذا العالم . فالقتل والابادة هما الاسلوبان المناسبان لا غيرهما .

اذا كانت هناك لعنة نزلت على الأرض في هذه الحقبة الزمنية فانها فكرة ذلك الرجل الذي طرح مفهوم التطور الذي استغلته المادية لاسناد نظرتها التي بدلت الانسان الى وحش متمدن .

وانه ليس من الشمولية ان نتصور الوجود كله بانه ما نحس به فقط . فهناك أشياء كثيرة توجد في عالمنا ولكننا لا نستطيع تحسسها ، كالأشياء البعيدة جداً التي لا نستطيع رؤيتها ، والأصوات التي ترددها أعلى ، أو اوطأ ، من مدى سمع الأذن . وهناك أشياء غير موجودة ولكننا نراها ، كالسراب مثلاً . وبهذه المحدودية كيف يستطيع أي فرد أن يتصور أنه يستطيع الوصول الى سر ماهية الوجود ؟

و (ماركس) يقول لنا انه وجد السر فوضع نظريته المادية التي فسرت الوجود على حد زعمه ، فقال ان الانسان نتاج لأدوات الانتاج. ولكن اذا كان الحال كذلك ، فلا بد وان (ماركس) نفسه نتاج لأدوات الانتاج وبذلك فان فكره نسبي أيضاً ، فكيف ارتفع الى المطلقية التي فسرت التاريخ ؟ ان احدى استراتيجيات الخداع الماركسية ، والمادية بصورة عامة ، هي طرح اسئلة معينة تتعلق بالخالق . وعندما لا يستطيعون الاجابة عليها يستنتجون ان الله ليس

موجوداً . وهم يتغافلون (وقد يكونون متعمدين) عن حقيقة أنهم عندما لا يستطيعون الاجابة على هذه الأسئلة فانه لا يعني ان الأجوبة غير موجودة . ولكنهم يفرضون استحالة الأجوبة ويستنتجون ما يروق لهم . وأحد هذه الأسئلة (القديمة جداً في التاريخ) هو الآتي : اذا كان الله خلق كل شيء فمن خلق الله ؟

وانه لحقيقة انه مهما كانت تصوراتنا عن الأشياء ، فان ذلك لا يغير من حقيقة هذه الأشياء شيئاً . واذا كان الله موجوداً وكانت الجنة والنار موجودتين ، فان (ماركس) الآن يعاني من مشكلة حقيقية وكذلك يكون جميع أتباعه ، وسوف لن يكون باستطاعته مساعدتهم أو مساعدة نفسه .

وعندما يزعم الماديون أننا جئنا من لا شيء ونرجع الى اللا شيء ، فهل لديهم أدلة مادية تجريبية على ذلك ؟ أليس هذا هو استعمال افتراض لا مادي للبرهان على المادية ؟ أليس هذا غش وخداع ؟ كيف يزعمون أنه لا يوجد شيء ما وراء المادة ثم يستعملون حجة لا مادية لتبرير ادعائهم ؟ أليس هذا بحد ذاته برهاناً على الوجود اللامادي ؟ و (كودمان) يؤكد الوجود اللامادي بالقول[1](ان المادية البحتة ، وكما نفهمها ، لا تكفي لتفسير اللحظات الظاهرية للاتصال العقلي والاستبصار[*]، حيث تم الحصول بطريقة ما بواسطة العقل على معلومات دقيقة قابلة للاختبار بدون مساعدة دخل فيزيائي) . والمادية بدأت تفقد شعبيتها الآن بين كثير من العلماء ، خاصة بعد الاكتشافات العلمية الحديثة في الفيزياء وعلم النفس .

---

(١) انظر المصدر ١٠ ، ص ٤٧ .

(*) القدرة على رؤية كل ما هو واقع وراء نطاق البصر .

الباب الثاني

التطور



الفصل الرابع

نظريات الخلية الحية الاولى

فكرة الخلية الأولى والحقائق العلمية

عند طرح فكرة الخلية الأولى تتبادر الى الذهن اسئلة كثيرة ، منها : هل صحيح ان الكائنات الحية بدأت من خلية واحدة وتطورت أم أن هناك خالق صنع الأشياء وأعطاها قابلية التغير مع الظروف والمحيط ولكن الى حد معين فقط ؟ هل كانت هناك خلية واحدة انبثقت بطريقة الصدفة وابتدأت كل شيء ؟ كم يستطيع علماء الأحياء أن يخبرونا ، وماذا أخبرونا لحد الآن ؟ هل أن علم الاحياء علم حيادي يلزم نفسه بالاكتشافات العلمية فقط كبقية العلوم أم انه استُعمل بتحيز نحو معتقد معين يؤمن به العلماء الذين يحاولون اثبات هذا المعتقد بأي طريقة كانت مستعملين الخصائص والقابليات التي تمتلكها الكائنات الحياة ؟

تقول لنا فكرة التطور ان الكائنات الحية تطورت من مادة ميتة بواسطة ولادة كائن حي بطريقة الصدفة على شكل خلية بسيطة حية . ونحن هنا ، في هذا الفصل والفصل الذي يليه ، سوف نركز على مناقشة صحة هذا الافتراض

ابتـداءاً من تناقضـات آراء العلماء بخصوص المـوضوع ، ومـروراً بالافتـراضات اللامنطقية التي وضعت ، ثم انتهاءاً بالمسألة المنسية التي لا يذكرهـا أحد ، وهي مسـألة المعلومـات التي احتاجتهـا الخلية لكي تبقى وتتـطور . فـاذا تـوصلنـا الى الاستنتـاج بأن الخليـة لا يمكن أن تكـون قـد انبثقت بـطريقـة الصـدفـة ، فـان الاحتمال الآخر الذي يبقى هو وجود الصانع بالضرورة . وسوف نـرى على أي حال ، انه لا يوجد أساس علمي للنظريـة ولا رأي متفق عليه بـين العلماء بشأن الطروحات المختلفة المقترحة .

وخـذ (جـون مينـارد) الـذي يـذكـر مقـطعـاً من مجلة Scientific American , Inc . يخبرنا فيه عن قلة المعلومات الحقيقية المتوفـرة للعلماء الذين يدافعون عن التطور[1](لقد رأى شـارلز دارون في تنـوع الكائنـات الحية قـواعد التـطور الـذي عمـل عـلى تـوليـد الكـائنـات الحيـة ، وهي التغيـير والتنافـس والانتخاب . ومنذ زمن دارون فقد تم نوعـاً ما اكتسـاب فهم للأحيـاء الجزيئيـة والفيـزياء الأرضيـة والكيمياء الأرضيـة والـذي لم يكن يتصـوره أحـد في القـرن التاسع عشر . ولكن هل أن هذا يجعـل تقفي التطور رجـوعاً الى الفتـرة ما قبـل وجود الكائنات الحية ممكناً ؟

كجواب أول ، كلا ؟ فالسجل ما قبل الأحيـاء ، وبموجب معـرفتنا ، قـد تلاشىٰ أو ازيل تماماً بـواسطة الأجيـال اللاحقـة للحياة وان المتحجـرات الراقيـة الباقية ـ الرموز الجينية والرسائل الجينية للكائنات الحية الحاضرة وطـرق التفاعـل المعروفة للكيمياء الأرضية ـ تعكس معلومات متناثرة الى درجة بحيث ان احداً لا يستطيع أن يصف التطور ما قبل الحياة بتفصيل أكثر من تطور القرود العليـا على سبيل المثال) .

المقـطع أعلاه يلخص قصـة التطور بـأكملها تقـريباً . وعنـد تفحص هذا

---

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ١٠

المقطع يمكننا أن نستكشف ما يلي :

ـ دارون رأى تغيرات وتشابه بين الكائنات الحية ، فاستنتج أن هناك عملية انتخاب .

ـ ومنذ ذلك الوقت تم اكتساب معرفة أعمق في علوم الأحياء والفيزياء الأرضية والكيمياء الأرضية .

ـ ليست هناك معلومات عن تاريخ ما قبل الاحياء .

ـ توجد متحجرات عليا(*) فقط .

ـ توجد بعض المعرفة عن الرموز والرسائل الجينية . . الخ للكائنات الحية الحاضرة .

ـ اعتماداً على هذه المعلومات تم تشييد نظرية تقول أن الكائنات الحية تطورت من خلية واحدة (أو عدة خلايا) انبثقت بطريقة الصدفة .

الا ان التمحيص الجيد لهذه المعلومات المتفرقة يبين الآتي :

ـ ان (دارون) ركز فقط على التشابه بين الكائنات الحية التي تعود الى نفس النوع أو الفصيلة . وقد أهمل الفروقات بين هذه الكائنات ، والتي هي في معظم الأحيان اكثر من التشابه . وتفسير (دارون) ليس التفسير الوحيد لهذا التشابه ، فقد يُعزى الى اسباب اخرى لا تقل منطقية ، وقد تكون اكثر منطقية من فكرة التطور .

ـ ان معرفة علم الاحياء الجزيئية والرموز الجينية الخ تأتي من دراسة الاحياء الموجودة الآن فقط ، ولا يمكن نسبها بأي طريقة من الطرق الى الأشياء ما قبل الحياة . فان ما قبل الحياة وما بعدها موضوعان منفصلان بعضهما عن

(*) المقصود انها متحجرات لحيوانات تعتبر راقية في سلم التطور

بعض سواءاً من ناحية طبيعة كل منهما أو من ناحية الزمن . وربطهما عملية لا معنى لها .

ـ ان الأدلة الوحيدة التي يمتلكها التطوريون موجودة في شظايا العظام المتحجرة المتناثرة والتي جُمعت من هنا وهناك ، والتي تختلف في طبيعتها وتفصل بينها ملايين السنين . ومن هذه العظام بُنيت النظرية . وليس هناك دليل علمي لهذه النظرية عدا مقارنة الوجود ما قبل الاحياء مع طبيعة الكائنات الحية الحاضرة . وبطبيعة الحال فان الكائنات الحية الحاضرة لا تكشف سوى عن طبيعتها الآن والتي يمكن أن تُنسب الى صانع . وبالرغم من أن الكاتب يعترف بأن المعلومات المتوفرة ليست كافية لتقفي التطور رجوعاً الى الفترة ما قبل ظهور الحياة على الأرض (والتي فيها ، بدون حق ، يفرض أن تطور الحياة قد وقع فعلاً) فانه يرجع فيقول انه ممكن .

وباختصار ، يبدو أن النظرية ليست اكثر من تأملٍ لما يُعتَقَد انه قد حدث اعتماداً على عظام مبعثرة وعلى خصائص الكائنات الحية الموجودة الآن والتي يمكن نسبها الى صانع بواسطة نظرية اخرى ليس هناك برهان ضدها . واستقراء نظرية التطور من الصعب وصفه بالعلمية فيما لو نظرنا الى التعريف التالي للعلم الذي بذكره (برتراند رسل)[1](عندما يخبرنا رجل العلم نتيجة تجربته ، فانه يخبرنا أيضاً كيف أجريت التجربة ، ويستطيع الآخرون أن يعيدوها ، واذا لم يحصلوا على النتيجة نفسها فانها لا تُقبل كحقيقة) . وبالنسبة للتطور فاننا نعلم ان التجارب التي يجريها علماء الأحياء تبين قابلية الكائنات الحية على التكيف وتغيير بعض القابليات ، ولكن ليس التطور الى كائن حي جديد . وهذه القابليات يمكن تفسيرها في اطار ذاتها وموضوعها فقط . أما ربطها باسلوب يوحي الى أن نظرية التطور صحيحة فانه قفزة كبيرة لا يمكن قبولها بهذه البساطة وبدون تساؤل .

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ١٧٨ .

و (رسـل) يستمر بتعـريف العلم بالقـول[1](يعتمد العلم عـلى الادراك والاستدلال . ومصداقيته سببها أن الإدراكـات هي بقدر مـا يناقِش أي شخص مـلاحِظ) . ولكن فكرة الخليقـة بموجب نـظرية التـطور لا يمكن اختبارهـا بـأي طـريقة كـانت مما يخـرجها عن الإطـار العلمي بموجب التعـريف المار . ونحن لا نعلم كيف أصبحت هذه النظريـة مقبولـة علمياً . وكـما قلنا سـابقاً فـان القضية بأكملها تبدو أنها ليست أكثر من انتاج لتصورات بعض العلماء . وقـد يبدو هـذا الرأي شديداً نوعاً ما . ونحن لا نتنكر لما أنتجـه علماء الأحياء من تـراث علمي عـظيم ساهم في خـدمة البشـرية الى حـد كبير جـداً . ولكن عنـدمـا يصبحـون متحيزين ويوجهوا الاكتشافات العلمية باتجاه تأكيد قضية يؤمنون بها سلفاً فـانهم يخرجون من ميدان العلم الى ميدان آخـر . و (رسل) يؤكـد[2](ان العلم يجب أن يكون حيادياً) . والتطوريون ليسوا حياديين عندما يحاولون البرهنة على قضية يؤمنون بها . فالحقائق التي يكتشفونها عن عمل الأنظمة الحية تخص كيفية عمـل هـذه الكائنـات فقط وليس كيف اختلقت في البدايـة . ولذا فـان طرح نـظريـة للخليقة من هذه المعلومات هي قضية أخرى تماماً .

والتـطوريون الـذين تتملكهم الفكرة القـائلة أن الحياة انبثقت عـلى شكل خليـة بسيطة يحـاولون اختـراع نظريـات لجعل الفكـرة متماسكـة . ولكن هـذه النظريات تتخللها طفرات كبيرة لربـطها بعضهـا ببعض ، وهذه الـطفرات غـير مقبـولة ، لأن القفـز من خـطوة الى اخـرى بـدون تبـريـر معقـول للوصـول الى الاستنتاج القائل أن الحياة ابتدأت بطريقـة الصدفـة يقودنـا الى التساؤل فيـما اذا كـان هؤلاء النـاس علماء أم منجمـين !! مثـلاً ان (سمـث) يقـول[3](ان الكينـونات التي تمتلك خصـائص التكـاثـر والتغـير والـوراثـة حيـة ، وتلك التي

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ١٧٨ .

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٧٨ .

(٣) انظر المصدر٦ ، ص ٧ .

تنقصها واحدة أو أكثر من هذه الخصائص ليست حية) . وهذا التصريح قد يبدو علمياً لأول وهلة ، ولكن عند التمعن به فان المرء لا يستطيع ، وبموجبه ، أن يعتبر البغل ، أو المرأة العاقر ، احياءاً أم لا . وهذا النوع من القفزات في الآراء ، والأخطاء التي تتبعها هو ما يفعله علماء الأحياء عندما تأتي المسألة الى قضية الخليقة لكي يصلوا الى نظريتهم . وسنرى كثيراً منها في الفصول القادمة .

ولكن سنبقى الآن مع حجج العلماء لاستكشاف كم هم قريبون ، أو بعيدون ، عن حل مشكلة أصل الحياة . يقول (سمث)[1](ان مشكلة أصل الحياة اليوم ، وبالرغم من أنها لا زالت بعيدة عن الحل ، فانها تُدرَس بصورة نشيطة من كلا الجانبين التجريبي والنظري) . و (أندري كوياكس) يقول[2](كيف تظهر الكائنات الحية ؟ وكيف تنقرض ؟ بصورة أساسية ، نحن لا نعلم العناصر الجوهرية ونحن مترددون ، وأفضل العقول غير متفقة) . ثم يستطر بالقول (لقد حاول رول أن ان يقتفى الأثر رجوعاً الى الأصل الأول . . . وقد يمكن للقوىٰ الفيزيو ـ كيميائية أن تمتلك القابلية يوماً ما لتبيان كيف ، وتحت أي ظروف ، استطاعت الحياة أن تتكون وتنبض في قلب البيئة الميتة) . ولكن اين العلم والاكتشافات التي يستند عليها ؟ انه لا يقول . و (روث مور) تقول[3](ان بعض المعتقدات المتزمتة التي تم التمسك بها طويلاً يجب ان تُراجع والكتب المدرسية يجب أن تعاد كتابتها ، لأن كثيراً مما قيل وبعض الحقائق المؤيدة لذلك تبين الآن أنها غير صحيحة) . وهذا هو العلم الذي أملىٰ علينا نظرية الخليقة و (بيتر رسل) هو الآخر يقول[3](في الحقيقة أن مسألة كيفية بدء الحياة لا زالت قضية يدور حولها جدال كثير) . هذا هو قرب علماء الأحياء الذين

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٧ .

(٢) انظر المصدر ٥ ، ص ١٩٥ .

(٣) المصدر ١ ، ص ٣ .

(٤) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤١ .

يتمسكـون بفكرة التـطور من أصل الحيـاة . ويبدو أن قـربهم منها كقـرب رجال الفضـاء من نهاية الكـون . وما مـوجود الآن ليس أكـثر من آراء مختلفـة لأنـاس مختلفين . وكثير من هذه الآراء يُكتَشف انها خاطئة ، وقد تكـون الآراء التي تحل محلها ، والتي تعتبر صحيحة الآن ، هي الأخرى خاطئة أيضاً ويتم التخلي عنهـا في أوقات لاحقة . فحقائق الأمس لم تكن حقائق ، وحقـائق اليوم قـد لا تكون حقائق أيضاً . ومهما اعتقدنا فان اعتقادنا لا يغير من حقائق الأشيـاء . وبالـرغم من الـوقت المبكـر لاعـطاء الحكم فـان (سمث) عـلى عجـل من امـره لاتخـاذ القـرار ، فهو يقـول[1] (اننـا لا نستـطيـع بعـد الآن أن نتـرك الأشيـاء الى نَفَس الخالق) . وهو متـأكد ممـا يقول ، ولكنـه لا يمتلك التبريـرات التجريبيـة لاسناد رأي كهـذا . وهـذا النـوع من التفكـير اعتيـادي هـذه الأيـام . فهـا هـو (دي كـايوكس) يقـول[2](في السابق ، كـان الانسان مضـطراً لـلاعتمـاد عـلى تصوراته وحدسه بصـورة رئيسية . واليـوم فانـه يحصل عـلى دعم اكثر فـأكثر من الحقـائق) . وسؤالنا هنـا هو : أي حقـائق هـذه ؟ أهي الحقـائق التي في تبـدل مستمـر ؟ وهـل ان استقـراء نـظريـات التـطور والخليقـة من المتحجـرات ليس حدساً ؟ ان النظرية بأكملها ليست الا حـدساً وتصـورات معتمدة عـلى قطع من المتحجرات التي لا علاقـة تربط بينهـا سواء من نـاحية طبيعتهـا أو الزمن الـذي يفصل بينها . وهل يوجـد تصور اكبـر من ذلك ؟ . هـل يستطيـع أي من علماء الأحياء أن يؤكد أن حقائقهم هي حقائق لا جدال فيها ولا يمكن تحديها ؟

ويستمر (سميث) بالقول[3](لقد تبين أنه بالرغم من أن دارون لم يفكـر جـدياً في المشكلة ، فـان نظريـة التطور تـزودنا بـالوضـوحية المُرْضِية الـوحيـدة للحيـاة ، وعليـه فـانها تعـطي الـطريقـة الـواضحـة والوحيدة لصيـاغـة مشكلة

---

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ٧ .

(٢) انظر المصدر ٥ ، ص ٨٤ .

(٣) انظر المصدر ٦ ، ص ٧ .

أصلها) . يا لها من غرابة !! فمع كل الحقائق التي تبين أنها أخطاء فان صياغة (أو ربما الأفضل أن نقول تخيل) اصل الحياة يصبح الطريقة الوحيدة الواضحة . و (دي كايوكس) يخبرنا بأن[1](الحياة ظهرت على الأرض قبل ثلاث أو أربع مليارات من السنين . وقد اشتُقت من المادة غير العضوية ، أو على الأقل كل شيء يشير الى ذلك) . وهذا يعطينا ريبة مقدارها مليار سنة ، أو ٢٥ ـ ٣٠ ٪ . وهي فترة زمنية لا يمكن لأحد أن يتصورها . ولكن أي الأشياء التي تشير الى أن الحياة اشتُقت من المادة غير العضوية ؟ انه لا يتكلم عنها . الا اذا كان الواضح هو المقصود ، وهو أن أجسامنا تتكون من نفس مكونات الأرض .

و (ريتشارد ليكي) هو الآخر متسرع في اتخاذ القرار ، فهو يقول[2](في زمن ما ، كثير من الناس اعتقدوا أن الحيوانات والنباتات التي نراها في عالمنا اليوم خلقت مرة واحدة من قبل الله . ولكن الآن نحن نعرف أن كل هذه الحيوانات والنباتات ظهرت تدريجياً ، وأن الأشياء الحية الأولى كانت صغيرة وبدائية وتشبه بكتريا عصرنا الحاضر) . و (ليكي) متأكد من نظريته بالرغم من أن معرفته تعتمد على الحقائق التي ليست حقائق ، وعلى قطع العظام ، وخصائص الكائنات الحية الحديثة والتي يفسرها على أنها تطورت من لا شيء . فهو يفترض افتراضات ثم يعتبرها صحيحة ، ويقارن الخلايا الحية الاولى مع البكتريا الحاضرة . وهذه المقارنة ليس لها أساس علمي . فالبكتريا احياء متطورة جداً . ولكي يتضح لنا ذلك ، دعنا نأخذ الفيروسات التي هي أبسط من البكتريا في تركيبها وأوطأ منها على سلم التطور ونرى كيفية تكاثرها . (دي كايوكس) يخبرنا انه في التجارب العلمية عندما تزرق الفيروسات الملتهمة للجراثيم الى جسم البكتريا فانها ، وكما تبين التجارب ، تتكاثر بعملية ذات

---

(١) انظر المصدر ٥ ، ص ٢٠٣ .

(٢) انظر المصدر ٨ ، ص ٧ .

مـرحلتين . الأولى ان مـادة البكتريـا تتحطم الى قـطع مشابهـة للحائط الـذي يتهـدم الى طابـوق متفرق . الثـانية ان هـذه القطع تتجمـع مرة اخـرى الى كتل صغيرة تشبه الفيروس . وهذه الكتل هي الفيروسات الجديدة . وتأخـذ العملية ثلاثين دقيقة ، ونتيجتها ولادة مائتي فيروس باستعمال أكثر من تسعة أعشار مادة البكتـريا . أمـا الجـزء البـاقي غـير المستعمـل فـانـه يُتـرك كفضـلات . و (دي كايوكس) يشير الى انه[1](باستطاعتنا مقارنة الفيروس مع الحماة التي تريد كَنَّتها أن تفعل كل شيء كما تفعل هي . او باستعمال مقارنة أكثر فلسفة ولطافة ، فان الفيروس هو المثال المبسط للرسول ، لأنـه يحول الآخـرين الى نفسه . وعـلى أي حـال ، فان رسـوله يتضمن صـراعـاً ، وهـو تحـطيم الأواصر القـديمـة . وهـذا الأواصر هي البـروتين البكتيـري) . ويبدوا أن الفيـروس يعـطي أوامـر معقـدة جداً ، وهذه الأوامر تنفذ عمليات معقدة لتحطيم كائن حي ثم تستعمل مكوناته في ترتيب جديد لتوليد كائنات حية جديدة مختلفة . لذا فان الفيروس ليس بتلك البدائية التي قد يتصورها بعضنا . بـل على العكس من ذلـك ، فهو نـظام دقيق وعالي التنظيم . ولأولئـك الذين يعتقـدون أن الفيروس يمثـل أصل الحيـاة يقول (دي كـايوكس) ان[2](كـل الفيروسـات التي تمت دراستها لحـد الآن تستطيـع التكاثر فقط بواسطة الاستنبات[*] داخل البكتـريا الحيـة أو داخل خـلايا أخـرى ، وعلى حسابها . وهي متطفلة ، وبسبب هذه الخاصيـة ، فانها لا يمكن أن تكـون أصل الحياة) . لأن الخـلايا الأولى كـان عليها أن تتغـذى على المـادة الميتة وليس الكائنات الحية ، حيث لم تكن هناك كائنات حية بعد .

وعلى أي حال ، وكـما سنرى ، فـان الأدلة الجـديدة تبـين انه ليس هنـاك

---

(١) انظر المصدر ٥ ، ص ٩٢ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(*) اي الزرع في خلايا حية .

تطور تدريجي . فالكائنات ظهرت على شكل مجموعات كما هي عليه .

النظريات ونقدها

كيف انبثقت الخلية ؟

يقول التطوريون انها جاءت بطريقة الصدفة . (جاك مونارد) يقول[1](الصدفة والضرورة . . داروين ، ومن عالم الصدفة البحتة ، حيث تدخل الصدفة الى حال الضرورة ، لأكثر الحقاق غير القابلة للتغيير) . اي أن عمل داروين الذي لم يعرف الكلل لسنوات طويلة من عمره لم يكن سوى صدفة بحتة وضرورية كان يجب أن تحدث . و (مونارد) لا يخبرنا لماذا كانت هذه الصدفة ضرورية ، فلا علم ولا تحليل ولا أسباب ولا قوانين . وها هو ، وكأي من الذين يؤمنون بالتطور ، يتيه في صحراء الخيال ليحط على تصور يتوخى منه أن يقنع الناس بنظريته ، فهو يقول[2](وحتى اليوم يبدو أن كثيراً من العقول المشهورة ليست عندها القابلية لأن تقبل ، أو حتى تفهم ، ان من مصدر ضوضاء كان باستطاعة الانتخاب الطبيعي ، وبدون أي مساعدة ، أن يصوغ موسيقى محيط الكائنات الحية . وفي الواقع فان الانتخاب الطبيعي يعمل على منتجات الصدفة ولا يستطيع أن يتغذى في أي مكان آخر) . وهذا ليس ما ادعاه (داروين) على أي حال . فداروين ارتأى أن الأصلح يبقى ويسود ، وليس في هذا أي صدفة .

و (بيتر رسل) يخبرنا[3](ان اكثر النماذج[*]شهرة تفترض ان المحيط الجوي البدائي كان يتكون من خليط من الهيدروجين والأمونيا والميثان وثاني

(١) انظر المصدر ٤ ، ص ١١٨ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ١١٨ .

(٣) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤١ .

(*) اي نظريات خلق الخلية

اوكسيد الكاربون وكبريتيد الهيدروجين وبخار الماء وغازات أخرى بسيطة متكونة من اتحاد الذرات الخفيفة . وقد افتُرض أن هذه الغازات كان باستطاعتها أن تتحد لتكوين المركبات الكيمياوية الضرورية للحياة) . اذن فالنظرية تبدأ بنموذج يفترض الأشياء ، وليس سوى افتراضات وتصورات لا علاقة لها بالواقع أو حقيقة ما كان ، أو لم يكن ، موجوداً . وهي بداية ربما تكون خطأ بأكملها مما يجعل النظرية تقف على قرن ثور (كما كان القدماء يؤمنون أن الكرة الأرضية محمولة على قرن ثور) . اذن هي بداية مشكوك فيها . وهذه البداية تذهب الى اكثر من ذلك بافتراض أن الغازات كان باستطاعتها أن تتحدد وليس « انها اتحدث ». شيء أقرب الى التخمين منه الى العلم . ولكن كيف تصوروا افتراضاً مدهشاً كهذا ؟ (بيتر رسل) يستمر بالقول[1](هناك سند معتبر لهذه النظرية يأتي من التجربة المشهورة التي قام بها ستانلي مِلَرْ عام ١٩٥٣ . . . ففي قارورة في المختبر صُنع الحساء البدائي ، من الماء والميثان والنتروجين والأمونيا وآثار من الهيدروجين ، والتي أخضعها لشرارة كهربائية (لمحاكاة البرق) . وخلال ساعات تكونت أنواع كثيرة من المواد العضوية مثل السكر والالديهيد والحوامض الكربوزيلية(**) والحوامض الامينية) . اذن فان السر العظيم بأكمله يكمن في قارورة ، وفي تجربة بينت ظواهر كيميائية معينة ، ثم استُنتِج منها كيف تمت الخليقة . وهذا الاستنتاج يشبه الاستنتاج الذي نخرج به اذا رأينا عشرة أشخاص امريكيين سود بأن كل الأمريكان سود . قد يكون حقيقة أن هؤلاء العشرة السود امريكيون . وقد يكون حقيقة أيضاً أن تلك المواد العضوية قد تكونت في القارورة . ولكنه ليس حقيقة أن كل الأمريكان سود ، كذلك فانها ليست حقيقة أن تكون المواد العضوية معناه خلق الحياة . فالمواد العضوية لا زالت مادة وليست حياة . والفرق بين المادة والحياة ليست المادة العضوية ،

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٤١ .

(**) حوامض خشبية .

ولكنها الحياة نفسها . فالجسم الميت كله مواد عضوية ، وليس هذا فقط ، فهو نظام في منتهى التعقيد ، ولكنه مع ذلك ميت ولا يمكنه أن يكون حياً أبداً . وقطعة الخشب كلها مواد عضوية ، ولكنك اذا دفنتها في الأرض لا تنمو الى شجرة مطلقاً . وكذلك فان البذرة التي تمثل الوحدة الأكثر استعداداً للنمو الى شجرة لا يمكنها أن تنمو الى شجرة مطلقاً اذا كانت ميتة بالرغم من أنها كلها مواد عضوية منظمة على شكل نظام قابل للنمو . فالمسألة اذن ليست المواد العضوية ، ولكنها الحياة نفسها . وبقدر ما تكون مخطئاً في الاعتقاد أن كل الأمريكان سود فان التطوريون مخطئون في اعتقادهم عن أصل الحياة . فالمواد العضوية متوفرة بكثرة في كل مكان ولكنها لا تستطيع أن تخلق الحياة . ان التفكير في المادة العضوية حقل معين والحياة حقل آخر . والمواد العضوية انتاج لتفاعلات كيمياوية من نوع معين ، لا اكثر ولا أقل ، بينما الحياة ظاهرة اخرى برمتها . والحياة تحوّل المواد اللاعضوية الى مواد عضوية في النباتات ، ولكن ليس العكس ، فالمواد العضوية لا تحول المادة (سواء العضوية أو اللاعضوية) الى حياة . و (بيتر رسل) يقول[1] (وقد بنيت تجارب أخرى ان وجود المحيط الجوي الغني بالميثان والأمونيا لا يبدو ضرورياً . فنفس الجزيئات يمكن تكوينها في بيئات غنية بثاني أوكسيد الكاربون أيضاً ، وحتى في المحيطات المتجمدة الباردة جداً . . وأكثر من ذلك ، فان تكوينها ليس محدوداً بالضرورة الى الأجرام السماوية . فقد بينت التجارب أن هذه الجزيئات الأساسية تستطيع أن تتكون حتى في الفراغ التام تقريباً ، وبدرجات حرارة تقترب من الصفر المطلق . . . . وبالفعل فقد تم حديثاً ايجاد كثير من هذه المركبات في الفضاء البعيد) . وهذه الاكتشافات تؤكد أن هذه المركبات ليست سوى مركبات كيميائية كأي مركبات أخرى ، ولا تحمل أي علاقة مع الحياة . وإذا أردنا أن نقول أن المادة العضوية تقود الى الحياة فانه باستطاعتنا أن نقول أن وجود المادة نفسها يقود الى الحياة ،

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٤٢ .

لأن ذلك لا يمثل سوى الرجوع خطوة الى الوراء ليس الا .

و (كيم مارشال) تعترف على مضض بأن[1] (التجارب التي أنتجت الحوامض الأمينية والعناصر الأساسية للنواة الحية في القناني كانت تثير الاهتمام ، ولكن كانت هناك مشكلة واحدة فقط) . كم تبدو سهلة !! انها مشكلة واحدة فقط . ولكن ما هي طبيعة هذه المشكلة ؟ ان (كيم) تشرح ، فتقول (ان هذه الجزيئات لم يكن لديها طاقة من لدنها . فلم تتمكن من الأكل أو الحركة أو التكاثر . وبكلمة أخرى لم تكن حية) . هذه هي المشكلة التي تقول عنها انها مشكلة واحدة فقط . ونحن نتساءل اذا كان هؤلاء العلماء يتوقعون من هذه المواد أن تأكل وتتكاثر ، أي أن تصبح حية ، فلم لا يتوقعون من جسد ميت أن ينهض من موته ، أو من قطعة خشب أن تنمو الى شجرة ؟ ونحن نريد أن نفهم ، ما هو الفرق بين توقع المادة العضوية الميتة المصنوعة في قنينة أن تصبح حية وتوقع بغل ميت أن ينهض ويهرب ؟ ويتضح أن الأولى بالنسبة لهم علمية أما الثانية فانها سخافة مستحيلة . وهو ليس جنوناً توقع الحوامض الأمينية أن تتغذى وتتكاثر ولكن توقع قطعة الخشب الميتة أن تتغذى وتتكاثر فانه جنون . ونحن نرى أن رجوع الخلية التي كانت قد ماتت مرة أخرى الى الحياة أقل استحالة من ان تتحول مادة عضوية مجردة الى خلية حية ، لأن الخلية الميتة تمتلك كل شيء كان حياً على أقل تقدير بينما المادة العضوية لا تمتلك من ذلك شيئاً . ويبدو أن علماء التطور اهدروا جهوداً مضنية ووقتاً طويلاً لكي يدركوا حقيقة من حقائق الوجود المهمة التي يمكن لأي انسان عادي أن يلاحظها ، وهي أن الميت لا يمكنه أن يصبح حياً . والشيء الذي لا يدركه هؤلاء الناس هو أن وضع المادة بأي شكل من الأشكال أو أي صورة من الصور ليس أكثر من اللعب بها ، سواءاً بحجوم صغيرة أو كبيرة . وفهم كيفية عمل

---

(١) انظر المصدر ٧، ص ٣١.

الخلية الحية لا يقودنا الى فهم كنه الحياة ولا الى خلقها . فنحن نعلم مم تتكون الأرض وكيف يعمل النظام الشمسي ، ولكننا لا نستطيع أن نصنع أي شيء مماثل لهذا النظام ، حتى بحجم أصغر .

(بيتر رسل) يستمر بسرد تصوراته عن النظرية ، فيقول[1](ان البحار البدائية وبحيرات الصخور الأرضية ربما كانت المشهد المناسب للخطوة التالية في مسرحية التطور) . وهنا فانه ينسى انه لما كانت المواد العضوية قد تكونت قرب درجة حرارة الصفر المطلق وفي الفراغ الخ ، فلماذا لم تنبثق الحياة في ظروف كتلك ؟ وهو ينسى ايضاً أن تكوّن المواد العضوية في تلك الظروف يبين بكل وضوح أن وجود المواد العضوية وحده لا يقود الى تكوين الحياة . و (كيم مارشال) تسأل بالقول[2](ان السؤال هو : كيف أن الحوامض الامينية والنواة التي تخوض في المحيط البدائي تنظمت الى جزيئات أكبر وكونت الخلايا الحية ؟) ونحن لا نفهم لماذا تسمي المحيط بدائياً . وربما أنها تتخيل الحياة البدائية ، ولذا فان المشهد يبين أن كل شيء كان بدائياً . فالماء كان بدائياً والصخور كانت بدائية ، الا اننا لا نفهم ما يعني ذلك ، فلربما كانت بأنواع مختلفة وتطورت لما هي عليه الآن أيضاً . ولكن ليس هناك من دليل على ذلك . فالماء والصخور كانت ولا تزال نفسها . و (بيتر رسل) يرى الجواب لسؤال (كيم مارشال) كالآتي ، فهو يقول[3](هنا فان الظروف كانت صحيحة لهذه المواد الكيمياوية لكي تتجمع مع بعضها البعض لتكوين جزيئات أكبر مثل الحوامض الأمينية والأنزيمات والبروتينات) . وهكذا يمر أعظم حدث على الأرض دون تفسير . فالأشياء حدثت وفقط . . . طفرةً وقفزةً ثم بدأت الحياة . . الظروف كانت ملائمة للحياة أن تنبثق . ولكن دعنا نقارن هذه العبارة مع العبارة القائلة (ان

(١) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤٢ .

(٢) انظر المصدر ٧ ، ص ٣١ .

(٣) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤٢ .

الله خلق الحيـاة) ، أليس ان هذه العبـارة أكـثر عقـلانيـة من العبـارة الأولى ؟ و (بيـتر رسل) ، ومثـل بقية النـاس والعلماء ، لا يستطيـع أن يفسر كيف ولماذا تجمعت تلك المواد الكيمياوية لتكوين جزيئات أكبر . وهذا يذكرنا بالفكـرة التي ورثتهـا الكنيسة والقـائلة « ان الله نور يسقط في القلب . والعقـل غير قـادر على الوصول الى معرفة الله »، والتي في الواقع يجب أن توضع كـالآتي « ان معتقدات الكنيسة لا يمكن للعقول المنطقية أن تقبلها لأن كثيراً منها أقرب للخرافة منهـا الى الحقيقة . ولذا فأما أن تقبلها بدون نقاش أو لا تقبلها ، واتـرك الحقائق عن الله جـانباً ». ونفس الشيء مـع نظريـة التطور ، فـالحياة بـدأت ولكنهم لا يعلمـون كيف . الا أن التـطوريـين ، وليس كـرجـال الكنيسـة ، لا يمكنهم أن يـطرحـوا الحقائق جانباً . وبدلاً من ذلـك فانهم يضفـون على آرائهم روح العلميـة بغطاء خادع ومموَّه . ولكن ليس بذلك النجاح الذي يودون .

و (سمث) ، ولانقـاذ الموقف ، يحـاول أن يعـطي وصفـاً للظروف التي أدت الى تكـوين الجـزيئـات الكبيـرة ، التي يتكلم عنهـا (بيـتر رسـل) ، فيقول[1](ان تأثيرات الأشعة الشمسية على هذه المادة الفائقة البـرودة المتبقية من تكاثف النظام الشمسي ربما كان باستطاعتها انتاج جزيئات عضوية كبيـرة بحجم بـوليمرات[*]الاحيـاء) . اذن فانها أشعـة الشمس التي فعلت ذلـك . ولكن ، ولسوء حظ هذه النظرية ، فقد وُجِدَ أن أشعة الشمس لا تكفي لإنجاز المهمة . وكما سنرى فان أشعة الشمس تقتل هذه الجزيئات في الواقع .

و (بيتر رسل) يستمر بالقول[2](وبمرور الزمن تجمعت هذه الجـزيئات الى مجموعات وسلاسل أكـثر تعقيداً) . ومـرة أخرى لا تُعـطىٰ أسباب لتجمـع هذه الجزيئات ولا لكيفية التجمع . وليس مهماً طبعاً ما دام التطور صحيحـاً وهو مـا

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ١١ .

(*) بوليمر = مركب عضوي ذو جزيء كبير ومعقد .

(٢) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤٢ .

حدث بالفعل (بموجب اعتقادهم) . وهكذا ، ومرة أخرى ، نـرى كيف يتعلق الانسان بفكرة يؤمن بها ويحاول تبريرها حتى بأسفه الطرق . أما (سمث) فانـه يدرك المشكلة العويصة التي يمكن أن يقع فيها فيما لو ادلىٰ برأي كرأي (رسل) ، لذا فانه يعترف بأن[1](الحساء البـدائي قد واجـه كارثـة طاقـة فعلاً : فـأشكال الحياة الأولى احتاجت الى استخلاص الطاقة الكيميائية بطريقـة ما من الجـزيئات المـوجودة في الحسـاء . وبالنسبـة للقصة التي نـرويها هنـا ليس مهـماً كيف فعلت ذلك ، لأننا نفترض نظامـاً ما لخـزن الطاقـة وإيصالهـا اعتماداً عـلى خزان طـاقة للفوسفات) . اذن ، وبالنسبة له ، فانه ليس مهما كيف حـدث التطور . ونحن نسأل : اذا كانت هـذه هي الحالـة فعن أي شيء يتكلمون ؟ ومـاذا يحاولـون أن يصفـون أو يثبتون ؟ وأين الحقـائق العلميـة ؟ ليس هنـاك حقـائق ، ولكن فقط افتراضات بدون أي تبرير منطقي .

الى هذا الحد فان القفزات التي افتُرِضت لتكوين الحيـاة (وبدون أسبـاب معطاة بطبيعة الحال) هي الآتي :

- تكونت مواد عضوية .
- هذه المواد العضوية تجمعت مع بعضها البعض في البحار .
- ارتبطت هذه المواد لتشكيل مجموعات وسلاسل .

والآن كيف تستمـر القصة ؟ (بيـتر رسل) يخبـرنا عن المـواد العضويـة ، فيقول[2](ان الجزيئات التي كانت أكثر اتزاناً بقيت موجودة لفترة أطـول واتحدت مع أخريات لتكوين وحدات أكبر من ذلـك ، وهي الجزيئـات الضخمة ، والتي يحتـوي بعضها عـلى آلاف من لبنات البنـاء الأساسيـة والملايـين من الذرات) . والسؤال هنا هو : اذا كـانت كل هـذه لا زالت مركبـات كيميائيـة ، واذا كانت

---

(١) انظر المصدر ٦، ص ١٢ .

(٢) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤٢ .

متشابهة ، فلماذا كان بعضها متزناً وبعضها غير متزن؟ وكيف تجمعت هذه الآلاف منها اذا كانت بهذا الصغر الذي لا يمكن رؤية الملايين منها بالعين المجردة ؟ لا بد وأن الحالة الوحيدة التي مكنتها من التجمع مع بعضها البعض هو ان مليارات ومليارات منها كانت قريبة بعضها من بعض ، وهذا يقتضي وجودها بأعداد هائلة . وهذا العدد أكبر من الخيال ، ومن الصعب تصور كيف أن هذا العدد الهائل تكون ، ومن الصعب أيضاً التصديق بأن كل الجزيئات كانت متشابهة . فها هو (بيتر رسل) يشير الى أن[1](ان بكتريا الاستريشيا القولونية التي تعيش في امعاء الانسان تعتبر أبسط اشكال الحياة . ومع ذلك فان واحدة من هذه الخلايا تحتوي على أربعة جزئيات DNA وحوالي ٤٠٠,٠٠٠ جزيء RNA ، وحوالي مليون خلية بروتين ، و ٥٠٠ مليون جزيء عضوي أصغر . . . . وفي كل خلية استريشيا القولونية يوجد حوالي ٤٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ (اربعون مليار) ذرة . والخلايا الأكثر تعقيداً ، مثل خلية العضلة ، فقد تحتوي على ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ (ترليون) ذرة ، وبعض الاميبا الكبيرة قد تحتوي على ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ذرة . . . . وليست هناك أشكال من الحياة معروفة بأقل من ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ (مائة مليون) ذرة . وبالنسبة للأعداد المجردة ، يبدو أن هناك حد أدنى لا تظهر الحياة تحته) . وفي الواقع فان تجمعاً كهذا لكي يحدث ، بجانب كل الأسباب الأخرى ، فلا بد وأن اللبنات العضوية قد غطت البحار والمحيطات كلياً . وأنه لمن الصعب على أي انسان أن يبرهن أن ذلك قد حدث في الظروف المقترَحة ، لأنه اذا كان فعلاً قد حدث بهذه الطريقة فلا بد وأنها كانت الظاهرة السائدة ، والتي تجعلنا نتساءل : لم توقفت اذن عند نقطة معينة ؟ واذا لم تتوقف ، فلماذا لا نرى تكون الحياة المستمر ؟ ويبدوا أن الموضوع كله هو محاولة تطبيق نموذج على ظاهرة تلاحَظ الآن

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٥٦ .

(وهي الحياة) .

وبعد تكوين الجزيئات الضخمة حدثت المعجزة فـ (بيتر رسل) يخبرنا بأن[1](بعض هذه الجزيئات العملاقة « طورت » قابليتها على معرفة الجزيئات الأخرى الأصغر حجماً) . والاعلان عن هذا التصريح مهلك اذا فهمنا ما هي المعرفة . وسوف نركز على هذا الموضوع في وقت لاحق ، ولكننا الآن نسأل السؤال التالي : كيف طورت هذه المواد هذه القابلية وهذا الذكاء ؟ ولأي سبب ؟ الجواب نجده طبعاً في الصدفة و « الحظ » و « الخطأ » المقترحة كطريقة سهلة للخروج بالمستحيل . وطبعاً فان هذا من السفاهة بحيث لا يمكن قبوله . وعلى كل فان المعجزة تكتمل بعد ذلك بواسطة معجزة أخرى ، فـ (بيتر رسل) يقول[2](وبهذه القابلية فان بعض الجزيئات الضخمة «وخاصة جزيئات حامض الديوكسير يبونواتي DNA » استطاعت أن ترتب الجزيئات الأخرى الصغيرة بسلسلة متتالية معينة . وبواسطة بناء متتاليات مشابهة لنفسها فانها انجزت جوهر التكاثر) . وهذه قفزة كبيرة جداً تحاشت تفسير كيفية تكون نظام الـ DNA الفائق التعقيد ، حيث يذكره (رسل) دون شرح أو تفصيل . وفجأة فان قوة ما لا يُعرف مصدرها جعلت بعض الجزيئات ترتب الجزيئات الأخرى ، بدلاً من العكس . وهذه الجزيئات أصبحت تمتلك ذكاءاً بينما الجزيئات الأخرى ليس كذلك . ويتضح أن النظرية تقول بأن الذكاء انبثق قبل الحياة . يا للعجب !!

و (بيتر رسل) يخبرنا بأنه[3](حالما تم تكوين الجزيئات المعقدة التي تكرر نفسها ، فانها بدأت تكوّن تجمعات غير وثيقة الارتباط مع الجزيئات الأخرى الضخمة والمعقدة) . وبطبيعة الحال فاننا لا نعلم لماذا أو كيف . ولكننا نرى

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٤٣ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ٤٣ .

(٣) انظر المصدر السابق، ص ٤٣ .

معرفة وذكاءاً يظهران الى الوجود دون تفسير . ويضيف (بيتر رسل) بالقول[1] (ان جزيئات أكثر فأكثر اشتركت في التجمع ، الى أن وصلت في النهاية الى مرحلة أصبح فيها التجمع وحدة متكاملة . وبهذه الطريقة ولدت أبسط الخلايا قبل ٣,٥ مليار سنة) . ونحن نسأل بأي طريقة ؟ أبهذه الافتراضات التي هي أبعد ما تكون عن العلمية ؟ وهل كانت هذه الجزيئات متشابهة أم مختلفة ؟ فقد يكون كل واحد منها على شاكلته ويختلف عن الأخريات . أين البرهان على أنها كلها كانت متشابهة ؟ ولماذا يفترض أنها كانت متشابهة ؟ أي صدفة هذه التي جعلت المليارات من هذه الوحدات متشابهة هكذا بكل شيء ، سواءاً التركيب ، أو عدد الذرات ، أو الوظيفة ، أو الطبيعة الخ ؟ يبدو أنها ، فيما لو حدثت فعلاً ، اقرب لأن تكون مصممة من قبل صانع على أن تكون صدفة . وحتى بتقدم العلم والتكنولوجيا الحديثة فاننا غير قادرين على صنع تركيب ميت ، وليس حياً ، كتلك الوحدات المعقدة .

و (كيم مارشال) تؤكد[2] (انه بالتأكيد كانت هناك قوى مدمرة على الأرض البدائية) ، ثم تسأل (ولكن ما هي القوى التي كان بامكانها أن تستخرج الحياة من ذلك الحساء الكيميائي ؟) .

أما (سمث) فانه متحفظ حول الموضوع ، ويجيب بحذر، فيقول[3] (كل المفاهيم حول « الحساء البدائي » والذي خرجت منه الحياة تتفق على انه احتوى ليس فقط على السكر الخاص ، والحوامض الأمينية ، والمواد الأخرى التي هي الآن ضرورية للمفاعلات الكيميا ـ احيائية ولكن أيضاً جزيئات أخرى كثيرة والتي هي الآن ليست أكثر من تحف مختبرية . ولذا كان من الضروري بالنسبة

---

(١) انظر المصدر السابق، ص٤٤ .

(٢) انظر المصدر ٧، ص ٣٢ .

(٣) انظر المصدر ٦، ص ١١ .

للمصدر المؤسس أن يكون ذا انتقاء بالغ الدقة منذ البداية). وهنا فان (سمث) يتفوه بها أخيراً كضرورة « مقدرة المصدر المؤسس وذكائه ». ان هـذا صحيح ولا جدال فيه لأن الانتقاء معناه التمييز ، والتمييز هو أحد خصائص العقل المفكـر. لذا فان المصدر المؤسس كان عالي الذكاء لأنه كان دقيق الانتقاء . وهـذا يقودنـا الى القول بأن صانعاً عـاقلاً جعـل الأشياء تحـدث فيها لـو كانت قـد حدثت كـما يقولون فعلاً . و (سمث) يستمر بالقول[1](كان عليه أن يتحمل جهداً ضخـماً لا يطاق من الجزيئات الصغيرة التي كـانت بايـولوجيـاً « خطأ » ولكنهـا كيميائيـاً ممكنة . ومن هذه الخلفية كان على المصدر المؤسس أن يستخـرج تلك الجزيئـات التي ستكون في النهائية البحر الاحادي المعياري المصنّع روتينياً لكـل البوليمـرات الاحيائية ، وكان عليه أن يـربطهـا بطريقـة يُعتَمَد عليهـا ، وبشكل خـاص) . وهذا هو اعتـراف صريـح وواضح لـذكاء المصـدر المؤسس ، والذي نسميـه الله تعـالى . والقصة التي قـرأناهـا تتضمن احتواء نـوع من المعلومـات والمعـرفـة . وسـوف نـأتي الى هـذه النقـطة بشيء من التفصيـل في الفصـل القـادم ، ولكننـا سنستمر هنا مع نظريات قصة الحياة لكي نستكشف ونستنفذ كليـاً الافتراضـات غـير المنطقيـة التي يطرحهـا علينا التـطوريون ، ونبـرهن بمـا لا يقبـل الشـك أن النظرية ليس لها ما يبررها على الاطلاق .

من الواضح أن النظرية الســابقة قـادت أصحابهـا الى نهاية مسـدودة لأنها أوصلتهم الى ضرورة وجود المؤسس العـاقل ، واذن كـان هناك تخـطيط عاقـل ، أي كانت توجد حياة وعقـل قبل خلق الكـائنات الحيـة على الأرض ، وهـو الله تعالى . وهذا معناه وجود الصانع ، فـاذن ليست هناك ضـرورة للأخـذ بنظريـة التـطور . ولذا فـان نظريـة أخرى يجب أن تُقتـرح لتحل محلهـا وتبرر المعتَقَـد . (كيم مارشال) تخبرنا عن نظرية أخرى لكيفية نشـوء الحياة ، فتقـول[2](احدى

(١) انظر المصدر السابق، ص ١١ .

(٢) انظر المصدر ٧، ص ٣٢ .

أحدث النظريـات تقول أن شـواطيء الطين عـلى حافـات المحيطات لعبت دوراً مهـماً في تكوين الخـلايا الاولى . وبـالنسبة لهـذه النظريـة ، فان مـاء المحيـطات الحسائي المملوء بالدقائق الكيمياوية كان ينجرف عـلى شواطيء الـطين بواسـطة المد المتصاعد . وعند الجزر يترك بعض الماء فيتبخر تحت الشمس تـاركاً الـدقائق الكيميائية على الطين . . . . الكُرات الدقيقة التي تنجرف من الطين كانت تمثـل الرزمات الصغيرة للجزيئات العملاقة الملائمة للخلايـا الحية . والعلماء يسمـونها الخلايا الأصلية ، والذي معناه انها كانت قـريبة لأن تكـون خلايـا حية ، ولكن كانت تنقصها بعض المقومات الجوهرية) . ويبدو أنه ليس هناك جـديد في هـذه النظرية فيما يخص انبثاق الحياة ، ونفس الانتقاد الذي وُجّه الى النـظرية السـابقة يمكن أن يُوجَّه الى هذه النظرية . ولكن قد نتسـاءل ، بما ان المحيـطات لا زالت مـوجـودة ، والشـواطيء لا زالت مـوجـودة أيضـاً ، لم لا نـرى انبثـاق الحيـاة باستمرار ؟ لماذا حدثت ولادة الحياة في الماضي فقط ثم توقفت بعد ذلـك ؟ يبدو أن علماء التطور تتملكهم فكرة (وقد يكون دون وعي منهم) تقـول أن الظروف الملائمة لتحويل المـادة الى حياة سـادت في الماضي فقط ، وليس الآن ، دون أن يعـطوا أي سبب لهذا الاعتقـاد . و (كيم مـارشـال) تستمـر بـالقـول[1](كيف وصلت هذه الخلايا الأصلية الى النقـطة التي استطاعت فيهـا أن تنمو وتتكـاثر ؟ يعتقـد العلماء انه ولمـدة سنين طـويلة سبح عـدد لا يحصى من الخلايـا الأولية في البحار متحدة مع بعضها البعض ومع مواد كيميائية أخرى) . وهنا فـان الكلام لا زال عن كيميـاء المـادة الميتـة . ثم تستمـر فتقـول[2](اولئـك الـلاتي امتلكن الغلاف الأقوى تماسَكْن مع بعضهن البعض ، بينما أولئك الـلاتي امتلكن غلافـاً ضعيفـاً تحطمن بـواسـطة الأمـواج أو بـواسـطة أشعـة الشمس فـوق البنفسجيـة الكثيرة) . لاحظ التناقض بين هذا الرأي الذي يقول أن أشعة الشمس دمـرت

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٢ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ٣٣ .

الدقائق الكيمياوية الأولى ورأي (سمث) الذي قال أن الأشعة أنتجت جزيئات عضوية . وعلى أي حال ، فان (كيم مارشال) تتكلم عن نفس المركبات الكيمياوية المتزنة وغير المتزنة التي تكلم عنها (بيتر رسل) ولكن بتعابير مختلفة باستعمال مصطلح الغلاف . وبطبيعة الحال ، فانها لا تعطي أسباباً لكيفية أو لماذا تكوّن الغلاف ، الذي يتألف من ملايين الذرات ، لحماية المكونات الداخلية للدقائق الكيمياوية من الخروج والانتشار الى المحيط ، ولماذا كان بعضها قوياً والبعض الآخر ضعيفاً .

وتستمر (مارشال) بالقول[1](بعض هذه الدقائق الناجية امتصت مواد كيمياوية خلال غلافها وبنت جزيئات أكبر في داخلها . و وهذه الخهلايا الاولى كانت تمتلك طريقة بدائية « لأكل » الكيمياويات من الماء الذي حولها) . اذن ، وكما يبدو ، أن الأكل قد بدأ قبل الحياة في هذه النظرية بخلاف النظرية الاولى التي نصت على أن الذكاء جاء أولاً ، وسوف نرى كمية المعلومات التي تحتاجها الخلية لكي تتمكن من التغذية في الفصل القادم ، ولكن يبدو أن (مارشال) تقول أن الأكل جاء أولاً وليس الحياة . واذا فرضنا أن هذا صحيح فعندئذ من حقنا أن نتوقع الكائنات الميتة تتغذى . ولكننا لا نعتقد أن عاقلاً يجرؤ على القول أنه شاهد كائناً ميتاً يأكل . وعلى أي حال ، فان النظرية لا تخبرنا فيما اذا كانت الكيمياويات المأكولة مواد عضوية مشابهة للخلايا الآكلة أم أنها كانت مواد لاعلى التعيين . ذلك لأن الحالة الثانية تعني أن الخلايا الاولى حولت المادة الى مادة عضوية ، وهذا شيء لا تذكره النظرية لأنه قضية حساسة ، فالكائنات الحية وحدها هي التي تحول المادة اللاعضوية الى مواد عضوية . أما الحالة الاولى فانها تعني أن الخلايا الاولى كان باستطاعتها التمييز بين المواد العضوية والمواد اللاعضوية . وهذه عملية تحتاج الى ذكاء ، وهو من خصائص الكائنات الحية أيضاً . ونحن نتساءل فيما اذا كان أولئك العلماء الذين وضعوا هذه النظرية

---

(١) انظر المصدر السابق، ص٣٣.

واعـين على هـذه التعقيدات التي تتضمنهـا نـظريتهم أم لا !! ويتضـح أن هـذه الأفكـار تخرج من العلماء بسبب اليـأس والحرج الـذي ينتابهم ، ولكن ذلـك لا يجعل هذه الأفكار صحيحة .

وتستمـر (مارشـال) بإخبـارنا عن كيفيـة بـدايـة التكـاثـر بعـد الأكـل ، فتقول[1](ولكن عندما نمت الى حجوم اكبر ، فان اغلفتها لم تستطع التوسع أكثر ولذا فقد انفجرت معظمهـا وتحطمت . ولكن بعضـاً من الخلايـا الاولى صادف وان امتلكت غلافاً من نوع مختلف . وعندمـا كبرت الى نقـطة معينة لم تنفجـر ، ولكنهـا انقسمت الى خـلايـا أولى أصغـر . . . وهــذه الخـلايــا المنقسمـة بقيت وتكاثرت تدريجياً) . ولكن النـظرية لا تبـين كيف حدث الانقسـام . هل كـان الانقسام الى نسخ متشابهة أم الى اشكال مختلفة وغير مترابـطة ؟ وهل أن الخـلايا الأولى الصغيرة التي جاءت نتيجـة للانقسـام امتلكت غلافـاً قويـاً أيضاً ؟ وهـل استمرت في عملية الأكل والانقسام ؟ هكذا وبدون دوافع ؟ أم أنها كانت تعرف ماذا تفعل ؟ واذا كانت على علم بواجبها ، كيف أتتهـا المعرفـة ومن أين ؟ وهل جاءت المعرفة قبل الحياة ؟ أم كانت هنـاك قوة عـاقلة تخطط وتعمـل ؟ وعلى أي حال أين البرهان الذي يثبت أن بعض الخلايا امتلكت غلافاً أقوى من غيرهـا . ليس هنالك أي برهان على أي شيء . والقصة كلها من نسج الخيـال . وتستمر (مارشال) بالقول[2](وعلى مر السنـين ، أصبحت بعض الخلايـا الأصلية أكبـر وأكـثر تعقيداً) بـدون سبب طبعاً. وهـذه القفزة من خـلايـا صغيـرة الى خـلايـا اكبر واكثر تعقيـداً بدون الانقســام هذه المـرة،ثم تقول (ويعتقـد العلماء أنه قبـل حوالي ٣,٥ مليار سنة ، كانت هناك خلية واحدة على الأقل استطاعت أن تمتص مواداً كيمياوية من الماء ، وكبرت ، وثم انشطرت الى نسختـين مطابقتـين للخلية

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٣ .

(٢) انظر المصدر السابق، ٣٣ .

الأصلية . وكل واحدة من هذه بدأت « تأكل » وتنمو حتى انشطرت هي الأخرى) . وطبعاً ليس هناك من سبب أو تبرير . وحتى لو فرضنا أن الخلية الأولى انشطرت الى نسختين مطابقتين للأصل ليس هناك برهان علمي يثبت أن هذه النسخ استمرت بعملية النمو والانشطار الى نسخ أخرى مطابقة لها . فالقضيتان لا تتبع احداهما الأخرى ، والافتراضات تمثل قفزات كبيرة نوعاً ما ، وهناك كثير منها . وعلى سبيل المثال ، دعنا ننظر الى هذه الطفرة ، (مارشال) تقول[1](وهذه كانت الخلايا الحية الاولى . وكل واحدة استلمت رسالة كاملة من « امها » ـ كُل ، انمو ، انقسم ، وانقل هذه الرسالة الى الامام) . ومرة اخرى هناك افتراضات كثيرة ، واحتمالات كثيرة ، وقفزات كثيرة ، فالافتراض الأول وهو أن الخلية الأولى امتصت مواد كيمياوية ، وهو ليس بالضرورة ما حدث . الافتراض الثاني أن الخلايا الأولى نمت . الافتراض الثالث أنها ، انشطرت الى نسخ متشابهة ، الافتراض الرابع أن هذه النسخ بدأت تفعل ما كانت تفعله الخلية الأم ، الافتراض الخامس أنها نقلت الرسالة الى الأمام للاجيال القادمة والتي بحد ذاتها قفزة كبيرة كما سنرى . ويبدو أن الخلية الأم صاغت الرسالة « كل ، انمو ، انشطر ، وانقل هذه الرسالة الى الامام » ثم اعطتها الى الخلية النسل . ولكن كيف استطاعت الخلية الأم أن تصوغ هذه الرسالة ؟ ولأي سبب ؟ وماذا عن المعلومات المعقدة التي تطلبتها العملية والنظام المعقد الذي اخترعته للقيام بالمهمة ؟ ليس هناك جواب لأي من هذه الأسئلة يمكن مشاهدته في النظرية .

وعلى كل حال ، دعنا نرى كيف يحدث سوء الفهم . (مارشال) تقول[2](ان العملية الأساسية للنمو بواسطة الانشطار الى اثنين (وتسمى الانقسام الفتيلي) والتي عثرت عليها الخلايا الأولى القديمة صدفة قبل ملايين

---

(١) انظر المصدر السابق، ص٣٣ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ٣٤ .

السنين لا زالت تستعمل من قبل كل أشكال الحياة في يـومنا هـذا) . ولكن هل القصـة هكذا فعـلاً أم أنها على عكس ذلـك ؟ أليس الاستنتـاج ، معكـوسـاً في الحقيقة ؟ أليس الواقع هو أن العلماء لاحظوا أن اشكال الحياة الحاضـرة تستعمل عمليـة الانشـطار للتكـاثـر فقـادهم ذلـك الى القـول ان أشكـال الحيـاة الاولى استعملت مبـدأ الانشـطار أيضـاً لأنـه ليس هنـاك عمليـة للتكـاثـر أبسط من الانشطار ؟ وما فعله علماء التطور هو ليس تفسير ما حدث ولكنهم مجرد عكسـوا الملاحظات التي لاحظوها الآن ثم زعموا أن هذا مـا حدث في المـاضي ، وطبعاً بدون برهان علمي من أي نوع . وهذا شيء محزن للعلم ، وهو ليس علمياً على الاطـلاق . أين التجارب العلميـة التي تثبت هـذه الادعـاءات ؟ ومـاذا حـدث للعلم عندما وصل إلى هذه القضية ؟ لماذا تحـول الى ما يشبـه التنجيم ؟ فالعلماء يـلاحظون مـا يحدث في الخـلايا الحيـة الآن ثم يزعمـون أنه مـا حدث للخـلايا الاولى . وكان عليهم أن يخبرونا ماذا حدث عندئذ والذي يـدلنا عـلى ما يحـدث الآن . أن عكس قـابلية الانشـطار التي لاحظوهـا في الخلايـا الحية الحـاضـرة لا يمكن قبوله كتبرير منطقي . وهو اعتقاد خاطيء لا يمكن قبوله فلسفياً .

وعـلى أي حال ، (مـارشال) تعـود الى مشكلة المعرفـة ، ولكن بدون أن تكون واعية على أهمية مـوضوع نـظرية المعـرفة الـذي سوف نناقشه في الفصـل القادم ، فتقول[1](كل خلية حية احتوت الرسالة « كل ، انمو ، انشطر ، وانقل هـذه الـرســالـة الى امــام ». ولكن كيف استـطاعت هــذه الخـلايــا أن تفهم الـرسالـة ؟). نعم كيف ؟ فالفهم نـوع من الذكـاء فكيف انبثق الى الوجـود ؟ وبـطبيعة الحـال فانها لا تجيبنـا على هـذا السؤال المهم ، ولكنها تخبـرنا عـما وجد العلماء في الخـلايا الحيـة الحاضـرة[2]فتقـول (في عـام ١٩٥٣ ، حـل أربعـة من العلماء الغمـوض) .كلا ، انهم في الـواقـع لم يحلوا الغمـوض عن الكيفيـة التي

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٦ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٣٦ .

أصبحت فيها الخلية قادرة على فهم الرسائل ، وهو الذي تقصده (مارشال) . وكل الذي فعلوه هو انهم اكتشفوا كيف تستطيع الخلية الحية الحاضرة أن تفهم الرسائل . وهذا يختلف عن القول أن العلماء اكتشفوا كيف فهمت الخلية الأولى الرسائل . وعلى كل حال ، أنها تقول أن هؤلاء العلماء[1] (فهموا تركيب الجزيئات العملاقة المسماة DNA « وهي مختصر لحامض ديوكسير يبونواتي Deoxyribonucleic »، والتي تحتوي على رسائل الخلية . . . . وقد اكتشفوا أن جزيئات الـ DNA، تشبه في مظهرها حبل السلّم، والتي سموها اللولب المزدوج) اذن فان ذكاء الخلية يكمن في الـ DNA ،وهو عقل الخلية . وفي الواقع فانه حاسبة صغيرة جداً . وكيفية عمله معقد جداً ، ولذا سوف لن ندخل في تفاصيله وما تخبرنا به مارشال يكفي ، فهي تقول[2] (ان « حبل » و « خطوات » الـ DNA كما قالوا « أي العلماء الأربعة» مصنوعة من أربعة أنواع من العناصر الأساسية للنويّات مربوطة مع بعضها البعض بطريقة خاصة تستطيع أن تحمل الرسائل الرمزية للحياة . الـ DNA موجود في وسط جميع الخلايا الحية . ويعمل كذاكرة ومركز سيطرة للنمو والتكاثر . وكل « خطوة » في السلم المفتول عبارة عن « كلمة » رمزية من البيانات تخبر الخلية عن كيفية بناء نفسها خطوة فخطوة ، ومتى تنشطر الى اثنين) . وأنه لواضح أن برنامج الـ DNA معقد الى حد يصعب معه تصوره . ولكن مَنْ كتب هذا البرنامج ؟ وهل من الممكن أن يكون قد أتى بنفسه ؟ ومن هو الذي يعطي الأوامر في هذا البرنامج ؟ ومن هو الذي ينفذ هذه الأوامر ؟ وبطبيعة الحال فاننا هنا نتكلم عن أوامر صارمة ومحددة ، وعن نظام معقد يتضمن تخطيطاً ويحتوي على أجزاءاً مختلفة وظيفياً وفسيولوجياً . فبعضها يعطي الأوامر والبعض الآخر ينفذ . وكلاهما، بطبيعة الحال، يحتاج الى ذكاء لأداء

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٦ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ٣٦ .

وظيفته سواء اصدار الأوامر أو فهمها وتنفيذها . و (مارشال) تقول[1](وهذه القابلية الرائعة على الانقسام الى حبلين متشابهين وبناء المقدرة هي الأساس لكل أنواع الحياة على الأرض ولولا الـ DNA لما استطاعت الخلايا ان تتكاثر). نعم ان هذا صحيح ولكن ماذا يعني الـ DNA بحد ذاته ؟ لا شك أنه يعني ذكاء ، ومعرفة . . . أليس كذلك ؟ اذن فان الحياة هي ذكاء ومعرفة ، وليس مجرد أكوام من المواد العضوية . وهنا تصل النظرية الى نهاية مسدودة كسابقتها . فالخلية الأولى احتاجت الى معرفة . ولذا يجب ايجاد طريقة ما لتبرير النظرية والأفكار التي تتضمنها . ولكن كيف ؟ بطبيعة الحال ليس هناك طريق آخر غير عكس الملاحظات التي يمكن مشاهدتها في الكائنات الحية ، بالضبط كعكس خاصية الانشطار التي مرت سابقاً . و (مارشال) تقول[2](لقد كان صورة أبسط من DNA اليوم ، ذلك الذي أعطى الخلايا الحية الأولى القابلية على الانشطار ونقل الرسالة الى امام قبل حوالي ٣,٥ مليار سنة ، وابتدأ قصة الحياة المدهشة) . يا له من علم هزيل ، فخيال العلماء وتصورهم لم يذهب خطوة واحدة أبعد من الـ DNA . فبقيت عقولهم محدودة بتقنيته ولم يستطيعوا تصور تقنية أخرى لأداء نفس الوظيفة . لذا فكل ما كان باستطاعتهم أن يقترحوا للخلية الأولى هو DNA أي أنه ليس أكثر من ملاحظات لاحظوها على الخلية الحية الحاضرة. ولكي يكون اقتراحهم مختلفاً عن الواقع الحاضر نوعاً ما قالوا انه كان DNA أبسط ، ولكن السؤال هو : ما هي درجة البساطة التي يتكلمون عنها ؟ وكيف كان الـ DNA الأول ؟ ما هو تشريحه ؟ وكيف أتى الى الخلية ؟ وكيف فرض نفسه كعقل يعطي الأوامر الى الأجزاء الأخرى ؟ وكيف استطاع اقناع هذه الأجزاء أن تطيع أوامره وتنفذها ؟ وهذه الأجزاء أيضاً احتاجت الى ذكاء وقابلية لفهم الأوامر وتنفيذها . فنحن هنا نتكلم عن نظام متعدد الأجزاء .

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٨.

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٣٨.

ولكن لا جـواب يـأتي من العلماء عـلى أي من هـذه الأسئلة . ونحن نتـوقـع أن يخبرنا العلماء عن آلية بدائية تشكلت في الخلية البدائية ، ذلـك لأن الـ DNA، مهما كان بسيطاً ، فهو معقـد جداً ويمتلك ذكـاءاً مفرطـاً ، ولا يمكن تصوره انـه انبثق هكـذا من عند ذاتـه . ان ظهور الـ DNA بحـد ذاته قفـزة لا تُضاهىٰ ، وهي تحويل المادة الميتة الى مـادة حية . انـه الحياة نفسهـا . فأمـا أن تكون أو لا تكون ، وهو الموضوع باكمله . ولكن يبدو أن العلماء لا يقفـون عند هـذه القضية بالكفاية التي تستحقها لكي يقوموا بالتمحيص المطلوب . وقد يكون سبب ذلـك أنهم يستعملون اسلوب عكس الملاحظات .

ولكي تتكون عندنا فكرة عن تعقيد الخلية الحية ، ننظر الى ما يقوله (بيتر رسـل)[1](ان ملايـين الجزيئـات العملاقـة التي تكوّن الخليـة الحية هي نفسهـا منظمة عـلى شكل عُضَيّـات (وهي اجزاء الخليـة) . والتي هي بدورهـا منظمـة بـطرق خاصـة ، وتتبادل الفعـل مع بعضهـا البعض بـأوقـات محـددة ولغـايـات محـدّدة ، والتي الآن فقط بـدأ علماء الأحيـاء يفهمـونها . . . . وتعمـل العنـاصر بطرق تساعد بعضها بعضاً بصورة متبادلة وتلقائية . ولذا فهناك أقل ما يمكن من التعارض الذاتي بينها ، ان لم يكن هذا التعـارض معدومـاً) . وواضح من هـذا أن النظام هو من أعقد الأنظمة الموجـودة على الأرض وأكثـرها دقـة ، والذي لا يمكن تفسيره بشروح بسيطة مبتورة الأواصر كتلك التي يقدمها لنا التطوريون .

و (مارشال) تلتفت بعد هذا الى نقطة مهمة عندما تقول[2](لقد عـاشت الخلايا الحيـة الأولى حياة ملؤهـا المخاطـر ، وأنها لأعجوبـة ان أيّاً منهـا بقي) . ولكن بما أنها بقيت ، فان التطوريين لا بد وأن يجدوا مخرجاً . وهـذا يشبه قصـة المسيح (ع) ، فلأنه لا أب له لا بد وأنه ابن الله . ولكن مـاذا عن آدم ، كيف

---

(٣) انظر المصدر ١٣ ، ص ٥٧ وص ١١٠ .

(١) انظر المصدر ٧ ، ص ٣٨ .

جاء هو الآخر بدون والِدَيْن ؟ ولماذا هـو ليس ابن الله ؟ وإذا كان الله قـادراً على خلق آدم بـدون أم وأب الا يستـطيـع أن يخلق عيسىٰ من أم فقط ؟ ويبـدو أن التطوريين ورثوا هذا المفهوم من خلفياتهم . « شيئـاً لا بد وأنْ يكـون قد حـدث لتلك الخلايا مما جعلها تعيش وتبقـى». هكـذا يقولـون ، بدلاً من التخـلي عن النظرية والتفكير بوجهة نظر أخرى مختلفة عنها كلياً . وتستمر النظرية بالقول أن بعض هذه الخلايا تحولت الى خلايا مفترسة وبدأت تأكـل خلايـا أخرى ، ولـذا فقـد بدأ الانتخـاب الطبيعي . وبـطبيعة الحـال ، عندمـا تصل القصـة الى هذه النقـطة فان مـا تبقى ليس صعب الترقيـع ، حيث أن الحياة قـد بـدأت . ولكن ليس هناك سبب يعطيه العلماء لتحول هذه الخلايا الى خلايا مفترسة. وقد تكون فكرة أخرى مقتبسة من الطبيعة. فالحيوانات المفترسة موجودة . وعلى أي حال فان القصة تبقى نظريـة ، أو مقترحـاً ، بدون أي اثبـات علمي من أي نوع كـان .

وأغرب ما في النظرية هو أنها تفترض أن الخلايا الحية الأولى كانت تعيش في ثاني أوكسيـد الكاربـون ، بينما كـان الأوكسجين سـماً قاتـلاً لها . ولكن عنـدمـا بـدأ الأوكسجين يملأ المحيط الجوي ، تتبدل القصـة لتقول أن الخـلايا بـدأت تتغذى عـلى الأوكسجين (الـذي كان سـماً قـاتـلاً في البـدايـة) وتـطرح ثـاني أوكسيـد الكاربون (الذي كان الغاز الذي تعيش عليه الخلية ، والآن هـو سم قاتـل) .

وهذا الانعكاس المدهش شيء لا بد من الوقوف عنده ، وطرح بعض الأسئلة : كيف يتحول السم الى غذاء ؟ ولمـاذا يصبح ثـاني أوكسيد الكـاربون سـماً ، وقد كان غذاءاً ؟ لماذا لم يبقىٰ غير مؤذ عـلى الأقل ؟ أليس هـو تطوراً ؟ ولمـاذا تغذت الخلية على الأكسجـين وليس النتروجـين ؟ وكيف يمكن تفسير هـذه الفجوة ، أو بالأحرى القفزة المدهشـة ، والتي حولت الغـذاء الى سم والسم الى غذاء ؟ عـلى أنه يمكن القول بكل تأكيد أن الخلية احتاجت الى كمية كبيرة جداً من المعلومات لكي تحتضن تغييـراً كهذا ، لأنـه لا يمكن لأي تغير أن يحـدث بـدون معلومـات ومعرفة . وجـدير بـالذكـر هنا أنـه كان عـلى الخلية ، ولكي تبـدأ بالتغـذي على

الأوكسجين ، أن تخترع عملية التمثيل الضوئي ، وهي عملية معقدة جداً وتتطلب نظاماً دقيقاً ، فكيف جاء هذا النظام الى الوجود هكذا من نفسه ؟ وما هي كمية ونوعية المعلومات التي تطلبها والتي كان على الخلية امتلاكها ؟ وبطبيعة الحال ، ومرة اخرى ، فان العلماء لا يذكرون ذلك وليس هناك من تفسير له في أي مكان من النظرية . وبناء النظرية يمكن تصوره كمن يريد أن يبني داراً فيرمي الطابون والسمنت وقضبان الفولاذ والشبابيك والأبواب والماء . . الخ على قطعة من الأرض ، ثم يرتبها بعضها فوق بعض ويتوقعها أن تربط نفسها على شكل دار تلقائياً . وليس هناك أي ذكر للهندسة التي تتطلبها هذه العملية ولا لرجال البناء. ان الذي نريد توضيحه هنا هو انه لا يبدو ان احداً من هؤلاء الذين يؤمنون بالتطور مكترث بالمعلومات والذكاء الذي تتطلبه التغيرات التي حصلت على المادة لكي تتحول الى خلية . وهذه نقطة مهمة جداً لم تتطرق لها نظرية التطور ، وقد اختار العلماء أن يهملوها .

والسؤال هو كم من المعلومات احتاجت الخلية لكي تصبح حية ؟ وكم احتاجت من الذكاء ؟ .

ويجب ان نتذكر أن الخلية الحية ليست مجرد مجموعة من الجزيئات ، فهذه الجزيئات يجب أن ترتب بنظام خاص عالي التعقيد . وليس هذا فقط ، فالخلية الميتة تمتلك نفس النظام المعقد الذي تمتلكه الخلية الحية ، ولكنها مع ذلك ميتة . ولذا هناك عنصر آخر ضروري للحياة ، هو جريان الطاقة والمعلومات خلال أجزاء هذا النظام بالاضافة الى الترتيب المعقد له . و (بيتر رسل) يؤكد هذه الحقيقة بالقول[1](والقضية الحاسمة بالنسبة للتعقيد هو جريان المادة والطاقة والمعلومات بين المركبات العديدة والأنظمة الفرعية . . . . وفقط عندما تصبح الطاقة منظمة بطريقة خاصة تبرز ميزات المادة وتُظهر نفسها ، وفقد عندما تصبح

---

(١) انظر المصدر ١٣ ، ص ٥٩ ـ ٦١ .

عدة وحدات من المادة متجمعة على شكل نظام بطريقة معينة يبرز الوعي ويُظهِر نفسه .... وكل كائن حي من الاسشريشيا القولونية الى الحوت الأزرق ، عبارة عن تجمع عالي التنظيم من المادة والطاقة . وبمرور الزمن ، فان الأنظمة الحية المستقلة ، ليس فقط تحافظ على درجة عالية من التنظيم الداخلي لها ، ولكنها تبني هذا التنظيم أثناء نموها وتطورها أيضاً) .

وعلى أي حال ، سوف ننظر الى هذه النقطة في الفصل القادم لمحاولة الحصول على جواب لهذا السؤال وتمحيص احتمال حدوثه ، لتحديد ما اذا كان قد حدث فعلاً . أما هنا ، فيمكن القول أن ما اقترحته النظريات يمكن اختصاره كما يلي :

الظروف كانت مناسبة

الخلايا انبثقت.

الخلايا تطورت.

استنتاج

لقد أجرينا تحقيقاً في نظريات الخليقة السائدة التي تفترض أن الحياة كانت قد انبثقت على شكل خلية ، فتوصلنا الى نتيجة تشير الى أن هذه النظريات ليست سوى تخمين لا يستند على أي برهان أو دليل علمي . وتتوفر عدة آراء حول الموضوع ، ولكن ليس هناك اتفاق بين العلماء حول أي منها . والنظريات الموجودة هي آراء لأشخاص ليس الا . وقد بينت التجارب زيف هذه الاعتقادات ، أو على الأقل عدم ضرورة صحتها . كما أنها لا تستند على أسس فلسفية مقبولة ، وتتخللها قفزات لا يمكن تفسير حدوثها . وبذلك فان النظريات غير متسقة أو مترابطة .



الفصل الخامس

المعلومات التي احتاجتها الخلية الحية الأولى :

المعرفة التي احتاجتها الخلية :

سوف نعتبر جدلاً أن الخلية الأولى انبثقت من المادة كما تصفها النظرية الدارونية لظروف خاصة وبطريقة الصدفة ، ثم ننظر الى مقدار المعلومات التي احتجتها هذه الخلية لكي تعيش وتتطور . ولما كانت هذه الخلية قد انبثقت نتيجة تحول المادة الى الخلية الحية ، فلا بد وأن هذه المادة امتلكت شيئاً جديداً لم تملكه قبل تحولها الى الخلية الحية . كما أن هذا الشيء لا بد وأن يكون زيادة نحو الأحسن والأرقى ، وهو الحياة . أي أن المادة امتلكت الحياة التي هي أرقى وأصبحت خلية حية . (وهذا استنتاج يتفق مع نظرية التطور نحو الأرقى على فرض قبولها . فالزيادة هي الحياة) .

ولكن ما معنى الحياة ؟ انها قابلية الخلية على الحركة والتغذي والتنفس والنمو والتكاثر الخ . وهذه القابلية معرفة ، والمعرفة ذكاء . أي أن الخلية الحية أكثر ذكاء من المادة فهي تسخر المادة لرغبتها . وهذا الادراك لأمكانية تسخير المادة ، والقيام بهذا التسخير فعلاً ، وهذا الاحساس بالرغبة للقيام بذلك ،

كلها نوع من الذكاء والمعرفة حصلت عليها الخلية الحية لحظة انبثاقها . أي أنها ولدت معها . فالخلية لم تكن مجرد ذرات تجمعت عشوائياً ولكنها كانت تجمعاً لهذه الذرات بتركيب دقيق ونظام يتكون من عدة اجزاء ، كل جزء له وظيفته ، وحياته ، وذكاؤه ، والخلية وحدة متكاملة ، وعالم بحد ذاته ، وذو شأن يخلب اللب في وجوده . يقول (ج . ليدْ ياردْستَبِنْزْ)[1] (ولدرجة كبيرة ، فان الأشياء الحية مدينة في طبيعتها الى الطريقة التي تنتظم فيها المكونات بأنماط مرتبة ، والتي هي أكثر استقراراً من المواد نفسها) . و (بيير تايلهارد دي شاردين) يقول[2](لقد كُتِبت مجلدات عن الخلية ، ولا تكفي مكتبات بأكملها لاحتواء الملاحظات الدقيقة التي تخص تركيبها ، ووظائف البروتوبلازما والنواة والطريقة التي تنشطر فيها وعلاقتها بالوراثة . ومع ذلك ، فانها بنفسها ، لا زالت كتاباً مغلقاً ، ولا زالت مبهمة كما كانت دائماً . وتبدو ، وكأنها ، حالما نصل الى عمق معين في تفسيرنا ، نجد أنفسنا مختَزَلين الى رسم علامات الزمن أمام حصن لا يمكن اختراقه) . وكل هذا بسبب الحياة الموجودة في الخلية . فالصعوبة والاعجاب سببهما هذه الحياة التي هي بأبسط أشكالها عبارة عن نوع من الذكاء الذي مكّن الخلية من الاستمرار في الحياة والتكاثر والتطور ، وهي شروط ثلاثة لا بد من توفرها اذا كانت الخلية الحية قد تطورت الى الانسان .

ونود أن نشير هنا الى ان الافتراض الذي تطرحه نظريات التطور من أن التغذية أو التكاثر (بواسطة الانشطار) حدثت قبل أن تصبح الخلية حية لا يمكن قبوله مهما كانت الخلايا بدائية ، وذلك لأن التغذية والتكاثر من خصائص الكائن الحي ، وليس العكس . أي أن الخلية يجب أن تكون حية لكي تكون عندها القابلية على التغذية والتكاثر ، لا أن تتغذىٰ وتتكاثر ثم تصبح حية . فالتغذية والتكاثر عمليات منظمة بدقة فائقة وتتحكم فيها قوانين دقيقة تتطلب

---

(١) انظر المصدر ٢ ، ص ١ .

(٢) انظر المصدر ١٩ ، ص ٧٤.

نوعاً من الذكاء مهما كان هذا الذكاء بسيطاً . وبطبيعة الحال فان الذكاء لا يمكن أن يوجد بدون حياة ، فهو أحد خصائص الأشياء التي توصف على أنها حية .

الاستمرار في الحياة :

الخلية الأولى استمرت بالحياة ، ولو لم تستمر لما تطورت الى الكائنات الحية الموجودة على الأرض (على حد زعم نظرية التطور) . والسؤال هنا ما هي المعرفة التي احتجاتها هذه الخلية لكي تستمر في الحياة وتتفادىٰ الموت ، والتي مكنتها من التغذية والتنفس الخ ؟ الجواب على ذلك يصبح واضحاً بعد تمحيص النقاط التالية :

أ ـ الغذاء :

لكي تتمكن الخلية من أخذ الغذاء فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

ـ ان الغذاء هو سر ديمومة الحياة وهو الوسيلة الوحيدة لاستمرار الحياة ولا يمكن الاستمرار بدونه .

ـ انها يجب أن تتناوله ، وفي الأوقات المناسبة ، أي الشعور بالجوع .

ـ ان ما يحيط بها من مواد بعضها غذاء نافع وبعضها سام ومضر ، أو على الأقل ليس مفيداً .

ـ عليها أن تميز أي المواد نافعة وأيها ضارة .

ـ كيفية الاستفادة من الغذاء الذي تأخذه ، أي الاحتياج الى نظام للتغذية .

ـ ان عملية التغذية تنتج فضلات سامة وعليها أن تطرح هذه الفضلات ، وأن عدم طرحها يؤدي الى الهلاك والموت .

ـ كيفية طرح هذه الفضلات ، أي ايجاد نظام لطرح الفضلات .

ب ـ التنفس :

لكي تتمكن الخلية من التنفس ، فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

ـ ان الأوكسجين ضروري للحياة ، ولا تستمر الحياة بدونه . وإذا فرضنا أن الخلية تبدلت من التغذي على الكاربون الى التغذي على الأوكسجين (حيث أن نظرية التطور تذكر ذلك كأحد الاحتمالات) فان ذلك معناه أن الخلية قررت أن تبدل طريقة حياتها كلياً .

ـ ان الأوكسجين غاز وطريقة تناوله تختلف عن طريقة تناول الغذاء .

ـ لذا كان على الخلية ايجاد نظام لتناول الأكسجين ، وهو نظام التنفس .

ـ ان هناك غازات أخرى في المحيط وعليها أن تفرق بين كل واحد منها لكي تعرف من هو الأوكسجين فتأخذه .

ـ ان الغازات الأخرى غير مفيدة لعملية التنفس فلا تأخذها وبدلاً من ذلك تطرحها مع الفضلات . كما أن ثاني أوكسيد الكاربون المتولد من عملية التنفس سام ومضر ويسبب الاختناق والموت ولذا عليها أن تطرحه الى الخارج .

ـ كيفية ايجاد نظام للاستفادة من الأوكسجين مع الغذاء ، أي عملية الاحتراق الداخلي .

حـ ـ الضوء :

ـ لكي تتمكن الخلية من الاستفادة من الضوء ، فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

ـ الضوء موجود ومهم للحياة .

ـ كمية الضوء الضرورية للحياة .

ـ كيفية استلام الضوء والاستفادة منه . أي نظام التمثيل الضوئي .

د ـ الحرارة :

لكي تتمكن الخلية من الاستفادة من الحرارة ، فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

ـ الحرارة الزائدة عن حاجتها تقتلها .

ـ الحرارة القليلة لا تكفي والبرد الشديد يقتلها .

ـ تجنب الحرارة الفائضة والبرد الشديد مفضل لاستمرار الحياة وعليها أن تفعل ذلك .

النمو والتكاثر :

لكي تتمكن الخلية من النمو والتكاثر ، فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

ـ انها ولدت لتبقى .

ـ التكاثر هو الطريقة الوحيدة للاستمرار .

ـ التكاثر هو أفضل الطرق للتطور .

ـ انها ستموت يوماً ما وهذا الموت معناه فناء الحياة فيها .

ـ كيفية التكاثر .

ـ عليها أن توصي الخلية النسل بجميع ما تحمله من علم ومعرفة وقدرة مع جميع الأسباب الضرورية لهذه المعرفة . وعليها أن توصي الخلية النسل أن توصي مَنْ بعدها من النسل بهذه المعلومات .

ـ أفضل الطرق لنقل المعلومات الى الأجيال القادمة هي الوراثة .

ـ امتلاك (او ايجاد) نظام الوراثة .

ـ لكي يتم التكاثر يجب أن تنمو أولاً لكي تنشطر الى خليتين متساويتين في كل شيء .

التطور :

لكي تتمكن الخلية من التطور ، فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

ـ انها ولـدت ليس لتبقى فقط وإنما لكي تتـطور ايضاً الى كـائن حي أكـثر تطوراً وتعقيداً ، فالغاية لم تكتمل بايجاد الخلية . وعليها أن تتـطور وإذا لم تتطور فانها سوف تحطم جميع الآمال التي علقتها عليها المادة .

ـ لذا كان عليها امتلاك قابلية التطور .

ـ يجب أن تنقل هذه الخاصية الى النسل الجديد .

ـ ان التطور يأخذ وقتاً طويلاً ، لذا عليها أن توجد ظاهرة الطفرة الـوراثية لتقصير زمن التطور .

معارف منظمة ومعقدة :

فيما تقدم تعرفنا على بعض المعارف الأساسية التي كان على الخلية الجديـدة أن تمتلكهـا ، على أن هـذه ليست جميع العلوم الضـرورية التي كـان على الخليـة معـرفتها . ومنهـا يتضح أن الخليـة كان عليهـا أن تحتوي عـلى معلومـات كثيـرة وبمنتهى الدقة والتعقيد لكي تستمر وتتكاثر وتتطور ، والا فانها سـوف لن يكتب لها البقاء . ويمكن ملاحظة ما يلي على هذه المعارف .

١ ـ معارف معقدة :

ان عملية التغذيـة وعملية الحـركة همـا في الحقيقة تحـويل المـادة الى طاقـة وهذه العملية تحاج الى معارف معقدة وعميقة . فـامكانيـة تحويـل المادة الى طـاقة تحكمها قوانين في منتهى التعقيد ، وقـد اكتشف الانسان هـذه الامكانيـة حديثـاً بعد تقدم العلم ونظريات الرياضيات والفيزياء (بحيث أن فهم هذه النـظريات يصعب عـلى الانسان العـادي) ، وبعد اختـراع الأجهـزة المتـطورة المستعملة في

التجربة . ولكن الخلية الأولى عرفت كل ذلك وعملت به . كما أن عملية التنفس عملية كيمياوية معقدة ، وقد عرفتها الخلية وعملت بها .

٢ ـ معارف غيبية أو مسبقة :

أ ـ اختارت الخلية طريق التكاثر لادخال أكثر ما يمكن من المادة الميتة الى الخلية الحية ، وللاستمرار بالحياة . وسواءاً كان هذا الطريق هو الطريق الوحيد لانجاز ما تصبوا اليه أم لا ، فلا بد وأنها توصلت اليه باعتباره أفضل الطرق تمشياً مع فكرة التطور نحو الأحسن، أي أن الخلية عرفت أن هذا هو أفضل الطرق. هذه المعرفة لا بد وأن تكون قد أتت عن أحد طريقين. الأول أن الخلية (أو المادة) أجرت عمليات حسابية معقدة عن مختلف الطرق و وتوصلت الى أن أفضلها هو طريق التكاثر . وهذا يتضمن معرفة معقدة جداً وعميقة لجميع الاحتمالات الأخرى ، وأن اخلية (أو المادة) لم تحتج للتجربة لمعرفة الطريق الأفضل ، بل توصلت اليه عن طريق نظري ، أي ميتافيزيقي . وهذا بحد ذاته تناقض مع المادية .

الاحتمال الثاني أن هذه المعرفة أتت عن طريق غيبي مجهول .

ب ـ اختارت الخلية طريق التكاثر لاستخدامه في التطور ، حيث أنها قررت أن أفضل الطرق لإحداث الطفرات والتطور يجب أن يكون عن طريق النسل الجديد وليس عن طريق إحداث التطور في الخلية الأم . ولا بد أن الخلية (أو المادة) . وبعد حسابات معقدة ، توصلت الى أن إحداث الطفرات في النسل الجديد أفضل من تطوير الخلية الأم ، أو أنها توصلت الى عدم امكانية تطوير الخلية الأم فاتجهت هذا الاتجاه للتكاثر . وتجب الملاحظة هنا أن الأم لو لم تكن تعرف ذلك لحاولت تطوير نفسها لا أن تموت ويتطور النسل الجديد .

ج ـ اختيار الخلية طريق التغذية والتنفس واجراء عملية الاحتراق الداخلي لا بد وأن يكون على علم مسبق بأن الأوكسجين هو العنصر الوحيد الذي

بالامكان استخدامه حيث أنه العنصر الوحيد الذي يساعد على الاحتراق . وإلا لماذا اختارت الخلية الأوكسجين ولم تختر الغازات الأخرى بالرغم من توفرها في الجو ، وأحياناً بنسبة أكبر من نسبة الأوكسجين ، كغاز النتروجين مثلاً .

د ـ الخلية تطورت الى نباتات وحيوانات . والحيوانات أرقى من النباتات على سلم التطور . من ذلك نستنتج أن الحيوان هو الغاية المنشودة من عملية التطور اذا كان التطور فعلاً يهدف الى أنواع عليا من الأحياء كما تزعم النظرية . ويلاحظ أنه بوجود الحيوان والنبات معاً فقط يستطيع الحيوان أن يعيش . فالحيوانات في النهاية تعيش على النباتات ، لأنه حتى الحيوانات المفترسة تعيش على الحيوانات التي تتغذىٰ على النباتات . ووظيفة النباتات هي استعمال ضوء الشمس لتحويل مكونات الأرض الى غذاء (على شكل مواد عضوية) والحفاظ على نسبتي الأوكسجين وثاني اوكسيد الكربون ثابتتين بالقيمتين الضروريتين لادامة الحياة .

ولما كان الحيوان هو الأرقى الذي تنشده المادة من مشروعها العظيم ، فلا بد وأنها (أي المادة) اتخذت القرار بتطوير خط مائل من الكائنات الحية ، وهو النبات ، لا لانه الغاية المنشودة ولكن لكي يخدم الكائن المتطور المنشود وهو الحيوان ، الذي تطور بعدئذ الى الانسان ، ويوفر له الظروف الأفضل . أي كان على جزء من الخلايا أن تتطور الى الحيوان باعتباره الأرقى وهو الخط الأصل الذي أرادته المادة في تطورها نحو الأرقى . وكان على الجزء الآخر من الخلايا أن يتطور الى نبات لا لشيء سوى لخدمة الحيوان . وهذا علم مسبق وتخطيط دقيق يحتاج الى قوة ذكية جداً لتدبيره .

ولما كان الانسان هو الكائن الوحيد الذي تطور فأصبح أرقى الحيوانات ، فلا بد وأنه هو الكائن المنشود الذي وُجِدَتْ الطبيعة بأكملها لخدمته . ولو لم تكن هذه هي الحالة لكان هناك أكثر من كائن حي متطور لتأمين وجود الاحتياط

فيما اذا انقرض أحدهما ، ولكي يستمر مشروع الحياة العظيم ولا ينقطع بعد وصوله الى هذا الحد المتطور أو يجابه نكسة كبيرة مثل الرجوع الى مستوى اوطأ من الكائنات الحية ثم الصعود مرة أخرى .

ان تطور الانسان وحده ليكون أفضل الكائنات ظاهرة تلفت الانتباه ، حيث يبدو أن الطبيعة قد صُنِعَتْ (بواسطة التطور أو غيره) لخدمة الانسان . و (برتراند رسل) يشير الى ملاحظة مهمة في هذا الصدد ، متكلماً عن تأكيد الأديان السماوية بأن الله صنع الطبيعة لخدمة الانسان فهو ، وبعد تمحيص الموضوع ، يقول[1](حقاً تبدو غاية الله من خلق الكون تخص الانسان بصورة رئيسية) .

الحقيقة الخافية :

عندما نتأمل في المعلومات التي كان من الضروري أن تمتلكها الخلية عند انبثاقها (اذا كانت قد انبثقت فعلاً) نجدها نفس المعلومات الأساسية الموجودة في خلية الكائن الحي الموجود في عصرنا . وسبب ذلك هو أن أي خلية يجب أن تمتلك معلومات كهذه لكي تكون حية مهما كان نوع الخلية ووظيفتها . وهذا يقودنا الى الاستنتاج بأن الخلية الاولى لم تكن مجرد خلية بسيطة أو بدائية تحركت ولذا أصبحت حية ، بل انها احتوت في نفس الوقت على معلومات كثيرة وفي منتهى التعقيد . وهذه الحقيقة غفل عنها دارون ويغفل عنها التطوريون .

الحادث اذن لم يكن مجرد صدفة واحدة ، أو صدفة عادية ، بل انه (وعلى فرض القول انها صدفة) كان مجموعة كبيرة من الصدف اجتمعت في آن واحد وبترتيب في منتهى الدقة وبالمقادير اللازمة لانتاج شيء محدد ، بلا زيادة ولا نقصان ، لا في العدد ولا النوعية ولا الترتيب . فان كانت هذه صدفة حقاً فانها بلا ريب صدفة غريبة ، وأغرب من الخيال ولا تتفق مع أي قانون عقلي، أو أي

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٢٣ .

قانون آخر في الكون . لان العقل انما يعتمد على المنطق في استنتاج الأسباب والمسببات للعلل ، والمنطق لا يقبل وقوع هذه الصدف الكثيرة العدد ، والمتناهية في التعقيد . ولكن هناك بعض الناس يعتقدون فعلاً أن هذه الصدف حدثت بهذا الأسلوب الغريب ، والأغرب منه أنهم يعتبرونها علمية ومنطقية . ولو تصورنا أن هؤلاء الناس يجدون حجراً على الطريق ويسألون عن الذي وضعه هناك ، وكان الجواب انه جاء بنفسه بطريقة الصدفة كما انبثقت الخلية بطريقة الصدفة (ولو أنها صدفة أقل تعقيداً) فهل سيصدقون ذلك ؟ بل حتى لو أنهم رأوا الحجر يتحرك بنفسه الى الطريق لظنوا أن عيونهم تخدعهم . لماذا ؟ الجواب بسيط ويكمن في أن قوانين العقل البشري لا تقبل هراءاً كهذا . ولكن العجيب في الأمر أن نفس هؤلاء الناس يصدقون هراءاً أكبر من القول بأن وجود الحجر في الطريق صدفة ، اذ أنهم يصدقون اجتماع كل تلك الصدف الكثيرة لانتاج الخلية بالرغم من عدم رؤيتهم لها ، وبالرغم من عدم قيام البرهان القطعي على ذلك .

ما الذي يجعل الناس يصدقون هذا ؟ وأكثر من ذلك يعتقدونه حقيقة علمية ؟

نحن نعتقد أن السبب هو ثقة الناس بمن يعتقدون أنهم ذو علم ومعرفة ، وتأثرهم بالوسط الذي يعيشون فيه ، اضافة الى جهلهم في أمور كثيرة والذي يجعلهم يصدقون ويعتقدون بما يظهر لهم وكأنه حجة منطقية . المشكلة أن هناك أفكار كثيرة تبدو منطقية ، ولكنها مبنية على أسس ونقاط انطلاق خاطئة ولكن الناس لا يبحثون عن أصل الأشياء أو أسس الأفكار . فهذه عملية تحتاج الى وقت وجهود ، ومعظم الناس لا يزعجون أنفسهم بها ، ويمكننا أن نلاحظ أنه ليس من الصعب بناء فكرة تبدو منطقية ولكنها تستند على قاعدة غير منطقية ، اذ قد يكون الافتراض الأول غير مقبول كما نرى ذلك مع الماركسية . وفي قضايا المحاكم يحاول الحاكم أن يجمع أكثر ما يمكن من المعلومات حول القضية التي

ينظر فيها لكي يكون حكمه مستنداً على أساس قوي . واذا لم يجمع المعلومات الكافية فقد لا يكون حكمه صحيحاً ، لأن معلومات قليلة اضافية قد تعكس قرار الحكم اذا توفرت .

وذلك الذي يعتقد بصدفة خلق الخلية ، وبنفس الوقت لا يعتقد بصدفة وجود الحجر في الطريق ، يناقض نفسه بكل تأكيد . اذ لو كان اجتماع كل تلك الصدف لانتاج الخلية ممكناً ، فما المانع من أن يكون الحجر موجوداً صدفة أيضاً ؟ إما أن نقبل الاثنين معاً ، وهنا سوف يحدث خلل لا يمكن اصلاحه لأننا في هذه الحالة سوف لن يمكننا أن نقبل ، أو نستعمل أو نعتمد على قوانين الاستقراء والبرهان العقلي ، وأي شيء يصبح بالامكان اعزاؤه الى الصدفة ، وعندئذ تنهار نظرية المعرفة بأكملها .أو أن نرفض الاثنين معاً ، وفي هذه الحالة سوف لن يختل أي توازن ونستطيع أن نستعمل الأسس العقلية في البرهان والاستنتاج والاستقراء والمنطق بنفس الطريقة التي أوصلتنا الى جميع أنواع المعرفة .

أما اذا أصر التطوريون على رأيهم فعليهم في هذه الحالة أن يفسروا لنا كيف اجتمعت كل تلك الصدف بهذا الترتيب المتناهي في العظمة والدقة لانتاج أعظم حدث في وجودنا ، وهو الحياة والعقل . وليس مقبولاً أن يستمروا بتحسين صفات أنواع من النباتات ، والحيوانات ويلقونها كبرهان على التطور ، ثم يربطونها بطريقة ما ليوحوا بأن الخلية انبثقت بالطريقة التي يزعمونها .

العقل المدبر :

ان نظرة بسيطة الى المعارف المعقدة والمعارف الغيبية أو المسبقة الآنفة الذكر والتركيب المعقد لمكونات الخلية ونظامها المتطور يدلنا على أن هناك عقلاً واعياً ومدبراً بمنتهى الحكمة والذكاء وراء تلك العلوم والمعارف . فلو رأينا برنامجاً للحاسبة الالكترونية يؤدي وظيفة معينة أو يحل معادلة رياضية معقدة

لبُهرنا بعظمة الانتاج ولعرفنا أن كاتب البرنامج انسان ذكي . ولـو قارنـا برنـامجاً كهذا بالبرنامج الموجود في الخلية والذي يمكّنها من أداء وظائفها لـظهر البـرنامـج الأول تافهاً بالنسبة له . فاذا قلنا أن كاتب برنامج الحاسبة انسان عـاقل وذكي ، واذا قلنا باستحالة وجود ذلك البرنامج لوحده بطريقـة الصدفـة ، فمن الطبيعي اذن أن نقـول باستحـالة وجـود برنـامج الخليـة لوحـده بطريقـة الصدفـة ، ومن الطبيعي ان نعتقد ان كاتب هذا البرنامج عاقل وذكي أيضاً ، لأننـا لا يمكننا ان نتصور أن المادة الجامدة الميتة بامكـانها أن تفعل ذلـك كله ، فنحن لا نجد فيهـا الذكاء والتخطيط المطلوبين لعملية دفع الكائنات الحية في اتجـاه خاص ولغـاية أو نهاية معينة .

استنتاج :

لقد فرضنا أن الحياة ظهرت على الأرض على شكل خلية كما تقول نظرية التطور ، فتوصلنا الى أن هذه العمليـة ، فيما لـو كانت قـد حدثت فعـلاً فانها لا يمكن أن تكون صدفة . ذلك لانها لم تكن صدفة واحـدة ولكـنْ عدداً لا نهائياً (تقريباً) من الصدف التي اجتمعت في نفس الوقت بنظام دقيق مبرمج ومتطور للوصول الى غاية محددة (هي الخلية الحية) . وقد وجدنا أن هناك تخطيطاً وعلماً غيبياً ، كان قد ساهم في تعبيد الطريق لهذا المشروع الضخم .

واذا فرضنا أن الحدث كان صـدفة فـان ذلك يقـودنا الى نكـران بديهيـات العقل وقوانينه ، والتي بدورها تقود الى انهيار نظرية المعرفة بأكملها .

اذن فالحدث (فيما لو كان قد وقع) ليس صدفـة وإنما مخـطط له من قبـل عقـل واع وفي منتهى الحكمة والـذكاء ، وهـو الخـالق . وهـذا ينـاقض النـظرة المادية ، وبنفس الوقت فانه برهان على وجود الخالق .

ان استحـالة وقـوع تلك الصدفـة تقودنـا الى قبول افتـراض أن الله خلق الأشياء كلها ، وقد يكون الخلق ليس عـلى شكل خليـة تطورت كـما يزعمـون ،

خاصة وأنهم ليس لديهم برهان مقبول وقطعي على صحة هذا الافتراض .



الفصل السادس

التطور ونقده

التصورات المهيمنة على فكرة التطور :

تنقسم الكائنات الحية بموجب نظرية التطور الى كائنات أدنى وكائنات عليا . الكائنات الأدنى صغيرة الحجم وأقل تعقيداً عادة أما الكائنات العليا فانها اكبر حجماً وأكثر تعقيداً ، الا أن تعقيد الكائن الحي كنظام يحمل أهمية أكبر من حجمه .

وهناك فكرتان كانتا تسيطران على تفكير دارون ولا زال نفوذهما يؤثر على علماء التطور لحد الآن ، وهما :

- ان الكائنات الحية تتكون من أجناس دنيا وأخرى عليا .
- ان الأجناس العليا تطورت من الأجناس الدنيا .

وهتان الفكرتان مصدرهما ملاحظات رآها (دارون) وزعم أن الكائن الحي ضمن أي جنس يعاني من تغير مستمر ، وأن هذا التغير ترثه الأجيال اللاحقة ، وأن كل الكائنات الحية تنتج اجيالاً جديدة اكثر مما يبقى (من هذه

الأجيال) . (كودمان) يقول ان دارون[1](علل بأن النسل الجديد الذي تغيراته تلائم البيئة بصورة أفضل هو الذي يُنتَخَب طبيعياً للبقاء والتناسل . وقد زعم دارون أن نتيجة هذه العملية التي استمرت لمليارات من السنين هي التقدم الحتمي من أشكال الحياة البدائية القديمة الى أشكال الحياة الحديثة المعقدة ، تاركة في أثرها مجموعة هائلة من الأجناس المنقرضة) . وكانت ملاحظات (دارون) مبنية على التشابه بين الأجناس فقط وليس التشابه والاختلاف كلاهما معاً .

وتتملك العلماء الفكرة القائلة أنه بما أننا نرى تغيرات بطيئة حولنا ، فان التغير هو الشيء المهيمن على الوجود ولذا فان الحياة في تغير أيضاً ، ويتبع ذلك أن التطور حاصل . ولكننا لا نرى ذلك كلياً . فالتغير قد يحصل ، الا أنه بالتأكيد لا يعني أن التطور يحصل أيضاً ، لأن التطور ليس أي تغير كان ، ولكنه تغير من نوع خاص. فهو تغير كامل للجنس على مر الزمن .

وكان من بين الأدلة المهمة التي استعملت للبرهان على وقوع التطور اكتشاف متحجرات الكائنات المنقرضة . وقد استنتج العلماء انه إذا كانت بعض الأجناس قد انقرضت فلا بد وأن اجناساً جديدة ظهرت ، وأخرى في ظهور مستمر . ولكن هذا الاستنتاج لا يعتمد على سند قوي . فبعض الأجناس القديمة قد تكون انقرضت ليس لأنها أصبحت غير قادرة على مقاومة البيئة ، ولكن ربما بسبب الأمراض أو التغييرات الجيولوجية . وقد بينت الأدلة الحديثة ان انقراض الأجناس القديمة يمكن اعزاؤه الى أسباب خارجية وليس الانتخاب الطبيعي . فالكائنات الحية الصغيرة ، الأقل تطوراً ، كالفيروسات والجراثيم ، بامكانها أن تقضي كلياً على أجناس أكثر تطوراً منها اذا توفرت لها الظروف للانتشار على شكل وباء . فالسل ، على سبيل المثال ، كان يقتل ملايين الناس

---

(١) انظر المصدر ١٠ ، ص ٢٣ .

في الماضي حتى وجد الطب الأدوية الملائمة لمعالجته . وتوجد بعض الجراثيم القوية التي اذا دخلت جرثومة واحدة منها الجسم فانها تكفي للتكاثر وقتل الانسان مهما كان ذلك الانسان قوياً ، ومرض الايدز (فقدان اكتساب المناعة) مثال صارخ على ذلك في وقتنا الحاضر . فأين التطور ؟ وليس بعيداً أن تكون الجراثيم قد قضت على أجناس بأكملها في الماضي ، وليس هناك ما يفنّد هذا الاحتمال .

وقد تمخضت عن فكرة التطور مشكلات ومجادلات فلسفية كثيرة ، وبذّر الانسان جهوداً ضخمة يصارع هذه المشاكل لأكثر من قرن من الزمان . وأخيراً بدأت فكرة الانتخاب الطبيعي التي طرحها (دارون) تنهار مع الأدلة الحديثة . (رُوث مُور) تشير الى ان[1]كل واحد من هذه المجموعات (أي مجموعات الأجناس) تختلف عن كل المجموعات الأخرى . وهناك لا استمرارية ، وفجوة بين حتى أقرب التجمعات) . و (كودمان) يقول ، مستشهداً بأقوال بعض العلماء ،[2](ليس هناك أدلة للتدرج بالنسبة لأي صنف من البشر أو القرود. . . فكل جنس اختفىٰ وهو بنفس الهيأة التي كان عليها عند الأصل .

- (ستيفن كولد ونايلز الدرج المتجرات ، ١٩٧٧) .

بين علماء المتحجرات ، هناك علماء يدرسون سجلات المتحجرات ، وهناك انشقاق متزايد عن رأي دارون الذي ما زال سائداً .

- (جيمس كورمان « السلحفاة أو الأرنب البري » في الاكتشاف ، تشرين الأول ١٩٨٠) .

ويستطرد كودمان فيقول :

---

(١) انظر المصدر ١ ، ص ٢١٩ .

(٢) انظر المصدر ١٠ ، ص ١٤٨ .

ليس هناك أدلة تذكر بأن أجناس الانسان القديم أو الأجناس التي قبله عانت من تغيرات تطورية خلال حياتها . ويظهر أن شبه ـ القرد الاسترالي ، والانسان القديم ، وانسان النياندرتال كانت على نفس هيئتها على طول عمرها) . وبعد هذا نسأل : هل ان هناك تطوراً قد حدث فعلاً ؟ أم أن الكائنات تتكيف للبيئة فقط ؟ و (كودمان) يقول[1] ان الجيولوجي لويس اكازيز ، وهو أحد الأصوات المؤثرة في المنشأة العلمية الأمريكية ، وَصَمَ النظرية بأنها خطأ علمي وغير صحيحة في حقائقها وغير علمية في طريقتها وخادعة في مقصدها . . . . فليس هناك أدلة على ارتقاء الأجناس الحديثة من الأجناس القديمة) . وحتى (برتراند رسل) الذي كان يؤمن بالتطور لم يستطع قبول النظرية بدون انتقاد ، فهو يقول[2] (أن التطورية[*] ، وبالرغم من اشارتها الى بعض الحقائق العلمية ، فانها تفشل في أن تكون فلسفة علمية حقيقية بسبب عبوديتها للزمن ، وانشغالاتها الأخلاقية المسبقة ، واهتمامها الغالب بمشاغلنا الأرضية وقَدَرنا) . ويتضح أن المشكلة تكمن في الهاجس الذي يتملك بعض العلماء بأن الحديث تَطَوَّر من القديم . ولكن أين الدليل ؟ ان دليلهم على ذلك هو التشابه الموجود بين الأجناس الحية . ولكن دعنا نفترض أن عقلاً ذكياً خلق هذه الأجناس وصاغها بمستويات بحيث أنها تختلف بعضها عن بعض بالتدرج بينما تبقى القضايا الأخرى متشابهة ، فما هو الخطأ أو اللامنطق في هذا الافتراض ؟ وفي الواقع فانه ليس من الضروري أن تكون الأجناس مختلفة بعضها عن بعض كثيراً على أي حال ، وليس من الضروري أن يجعلها الخالق مختلفة . فلكي توجد الكائنات الحية على حالتها الحاضرة كان من الضروري أن يتغذى بعضها على بعض ، وأخيراً بعضها يتغذى على التربة . ولذا توجد

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٢٥ .

(٢) انظر المصدر ٢٦ ، ص ٣٠ .

(*) اي فكرة نظرية التطور.

النباتات والحيوانات والانسان . وكل واحد منها مصنع يصنع الغـذاء للآخـر في دورة كاملة . واذا افترضنا أسلوباً آخر للتغذية فانه سيكون بمثابة افتراض ظاهرة أخرى جديدة للحياة تختلف عما هو موجود الآن ، وهذه مسألة أخرى تماماً .

وتمتلك جميع الكائنات الحية ذكاءاً من نوع معين ، وهذا الذكاء ضـروري لادامة حياتها . والانسان يمتلك العقل المبدع . ولما كانت الكـائنات الحيـة تنتقل من مكـان الى آخر عـلى سطح الأرض (بضمنهـا النباتـات التي تنتقـل بـذورهـا بـواسطة الهـواء أو الطيـور والحيوانـات الأخرى) فمن الضـروري لهـا أن تمتلك قابلية التكيف لظروف البيئة التي تختلف من منطقة الى أخرى على الأرض ، كـما أنه ليس من الضروري لـلأجناس الحيـة المنفردة أن تبقى مـوجودة ولكن تـوازن الحياة الكلي هو المهم والذي يجب أن يبقى . لذا فان التوازن بين الكائنات الحية يجب يكون السائـد ، وهكذا فهي خلقت بحيث أن بعضهـا غذاء لبعض في دورة كاملة ، بضمنها الانسان الذي يصبح غذاءاً لمخلوقات أخرى بعد الموت . ولكن هـذه النظريـة لتفسير الـوجود لا يقبلهـا المفكرون العلمـانيون لأنها تـطرح أسئلة كثيـرة أجوبتهـا غير ممكنـة أحيانـاً الا بواسـطة شيء خارق للطبيعـة (كـرسـالـة سماوية) . وبالنسبة للمفكر الأوربي فان المعتقـدات الكنسية عـاجزة تمـاماً عن اعطاء أي جواب مقبول . لذا فـان الأوربي يصطدم مـرة أخرى بنفس المشـاكل القديمة المستعصية .

وسوف نرجع الى هذا الموضوع في الفصول القادمـة لاعطاء الأجـوبة عـلى اسئلة كهـذه . أمـا الآن فـاننـا سنبقى مـع التـطور ونـظريـاتـه لكي نستكشف المشكلات التي تعاني منها هذه النظريات بصورة أعمق .

ادلة التطور وتمجيد الأفراد :

يصور لنا علماء التطور ان هناك أدلة علمية كافية لاثبات نظريـة التطور . فما هي هذه الأدلة ؟ وأين هي ؟

وللجواب على ذلك يقول (كـودمان)[1] (ان المدافعين عن دارون أصـروا على أن الأدلة التي تسند نظريته تنتظر مـدفونـة في السجلات الجيـولوجيـة ، وان « الحلقـات المفقودة » بـين الأجنـاس لا بـد وأنها ستكتشف بـواسـطة البحـوث والتنقيبـات الاضافيـة) . ولكن ما لم يعيـه هؤلاء الناس هـو أنـه حتى في حـالـة اكتشاف العظام والمتحجرات فليس هناك من دليـل على أنها تـطورت بعضها من بعض ، «والعظام وحدها» ليست كافية لكي تحكي لنا الحكاية بأكملها . و (رُوث مُور) تذكر الدكتـور (واشبورن) بـانه يقـول[2](والى حد معـين فان الـوظيفة لا تنعكس في العظام . ولا يمكنك حل هذا اللغز بالنـظر الى العظام فقط ، ذلـك لان الجواب ليس هناك . فالجواب يوجد في الكيفية التي بواسطتها أدى الانسـان أو الحيـوان وظيفته) . وهـذا يضع كـل ما يسمىٰ بـأدلة التـطور والاستنتاجـات المعتمدة عليها في شك حقيقي . وتستطر (رُوث) بالقول أنه بعد تجارب عديدة على الجرذان ([3]ولدهشته المستمرة ، فان واشبورن وجد أن الاختلاف كان قليلاً لا يذكر مهما صُنع بـالعظام . فبعض العـظام كانت تنمـو مرة أخـرى كما كـانت عليـه . وفي النهايـة ، فان ازالـة أقسام كبيـرة لم يسبب اختـلافـات تـذكـر عـلى الحيوان) . وتستمر بالاشارة الى أن (واشبورن) يقول ([4]بدأنا بدراسة العـظام والعضلات . وعند الانتهاء كنا قد وصلنا الى القرار بأن العظام كانت نسبيـاً غير مهمـة ما دامت مـوجودة ، وأن العضـلات كـانت غـايـة في الأهميـة) . واذاً ، وبالرغم من أن الأدلة ليست في العظام فان العلماء استمروا بصياغة استنتاجاتهم اعتماداً عليها . وسبب ذلك أنه لم يكن لديهم الخيار ، فالعظام وحدها تبقى ولا تتـآكل أمـا العضلات فـانها تتآكـل . وعلى كـل حال ، هنـاك مشكلة أخرى في

---

(١) انظر المصدر ١٠ ، ص ٢٦ .

(٢) انظر المصدر ١ ، ص ٤٠٤ .

(٣) انظر المصدر السابق، ص ٤٠٩ .

(٤) انظر المصدر السابق، ص ٤٠٩ .

العظام يشير اليها (سميث) بالقول ([1]انه ذلك السجل للمتحجرات الذي يبين فقرات زمنية طويلة فيها قليل من التغيرات ، أو لا تغيرات ، تطورية أصلاً وتتخللها فترات عاجلة[*]من التغيرات . . . والمشكلة المستمرة الوجود في علم الأحياء التطوري كانت غياب المتحجرات الوسطية . فالتحولات التدريجية الطويلة الأمد للسلالات المفردة من الأجناس نادرة ، وبصورة عامة فانها تتضمن زيادات بسيطة في الحجم أو تأثيرات بيئية ووراثية تافهة . وبصورة نموذجية يتكون السجل من سلالات أسلاف ـ أجيال متتالية ثابتة من ناحية الهيئات خلال الزمن وغير مربوطة بأجيال وسطية) . وهذه كانت مشكلة حقيقية لم تستطع نظرية (دارون) أن تعطي تفسيراً لها . وواضح أنه في حالة وجود الفجوة الزمنية الطويلة فان الحلقة المفقودة التي تربط بين الجنسين على جانبي الفجوة لم يمكن اكتشافها . وهنا فان هناك احتمالين . الأول هو عدم ترك أي متحجرات لتلك الحلقات المفقودة (وهو غريب جداً) . والثاني أن تلك الحلقات المفقودة (المزعومة) لم تكن موجدة أصلاً . وليس هناك من سبيل في معرفة أيها الصحيح . ولذا فان الحل يجب أن يُفتَرَض ، وبذلك فانه يعتمد على الرأي الشخصي وليس الحقائق . وهذه كانت هي المشكلة مع التطور منذ البداية ـ الآراء الشخصية . ويخبرنا (كودمان) باستشهاده بفقرة من « الحلقات المفقودة » للكاتب (جون ريدر) انه[2](خلال دراسة متحجرات الانسان ، كانت العناصر المترابطة للتفسير ونظرية الادراك مرتبطة بقوة بشخصية العالم المقترح وقابليته على الاقناع دائماً . لذا فقد هيمن الأفراد الطموحين على هذا العلم الذي تقدم بقوة الجدال بقدر ما تقدم بقوة الدليل) .

ولكن في حالات كثيرة ، حتى تلك الآراء كانت قد اتخذت بحماس وعلى

---

(١) انظر المصدر ٦، ص ١٢٦ و١٦٣ .

(*) المقصود قصيرة .

(٢) انظر المصدر ١٠، ص ٨٥.

عجل ، وبدون دليل كافي أو دراسة كافية . و(ل . س . ب . ليكي) يقول (²)(وآراؤنا تُتخذ بواسطة تقديرات سريعة ، وغالباً لا واعية ، لمدى واسع من الخصائص التي تجتمع مع بعضها لتكوين صورة لجنس من نوع معين . وهنا فان التفسير الشخصي لقيمة الدليل الموجود أمام الاختصاصي يلعب دوراً كبيراً لا محال ، ولذا فاننا نجد مرات ومرات أن المتحجرات البشرية وبقايا الكائنات التي أدنى من البشر تصنف كأجناس لنوع واحد بواسطة بعض العلماء ، أو تصنف على أنها تمتلك مراتب جينية معينة أو متميزة . ان الحقيقة المجردة بأن شيئين «سواءاً كانا جمجمتين أو سنّين أو قطعتين من الخشب» يمتلكان نفس الطول والعرض والارتفاع لا يعني أنهما يمتلكان نفس الشكل أو انهما متشابهان من ناحية الهيئة . ان المسألة بعيدة كل البعد عن ذلك . . . وان دراسة تطور الانسان لا زالت في مرحلة الطفولة . لأنه ، وبصورة رئيسية ، فان أدلة المتحجرات المتوفرة لحد الآن والتي يمكن الاعتماد عليها لوضع استناجات مقبولة كانت دائماً نادرة نوعاً ما) . وبعد كل هذا فانه لمن العجيب أن نرى بعض الناس ذوي العقول العلمية يصرون على اعتبار التطور كحقيقة وواقع . وعلى أي حال فان علماء التطور أنفسهم في خلاف شديد حول الموضوع . و (رُوث مُور) تقول[3](لقد كان من الصعب جداً أن نكون متأكدين . ولما لم تكن هناك ثقة في معظم الحالات ، فقد ظهرت اختلافات جدية في الآراء حول عمر كل متحجرات الانسان أو متحجرات قريبي ـ الانسان المهمة تقريباً) . و (دورثي هنشو بيتنت) تؤكد على[4](وجود اختلافات كثيرة بين علماء التطور أنفسهم حول الأهمية النسبية للعوامل المختلفة التي تؤثر في مسار التطور ، سواءاً في الماضي او الحاضر) . و(اندري كايوكس) يحلل نظريات التطور المختلفة ، فيقول

---

(١) انظر المصدر ١٥، ص ١٦٠ ـ ١٦٣ ، ١٧١ .

(٢) انظر المصدر، ١ ، ص ٧ .

(٣) انظر المصدر ٩ ، ص ١٢٥ .

([1]عنـدما نجـابَه بهـذه الآراء المختلفة اختـلافاً كبيـراً ، نحن نتساءل كيف أنها ظهـرت . وهي تُنسب جـزئيـاً الى الفتـرات الـزمنيـة وحتى الى شخـصيـة الاختصاصي ، كما نعتقد) . من هذا يتضح أننا قد خُدِعنـا بطمـوحات النـاس وأذواقهم واعتقـاداتهم الشخصيـة التي تُعـرض علينـا عـلى أسـاس أنها حقـائق علمية .

والأدلة العلمية نـادرة بصورة مثيـرة للدهشة ، ولـدهشتنا يقـول (روبرت اندري) ([2]مثالان فقط لمتحجرات القرود القـديمة مـوجودة في أي مكـان على سطح الأرض) ، وعلى هاتين الجمجمتـين بُنِيَت نظريـة كاملة لتـطور الانسان . و (رُوث مُور) تقول ([3]لا تـوجد النـظرية في أي مكـان كاملة لحـد الآن) . ويتضح ان ما حدث هو أن فكرة ما قد طُرِحت وَجَـذَبت بعض العقول ، وسـار وراءهـا جيش من العلماء محـاولـين جـر اعتقـادات النـاس وراءهم . ولا يمتلك معظم الناس أي فكرة عن الاختلافات الواسعـة والكثيرة بـين العلماء أنفسهم ، وكم من الأخطاء وقعوا ولا زالـوا يقعون فيهـا في محاولـة اثبات اعتقـاداتهم حول التـطور وحقيقته . وحتى دارون نفسـه ، الذي كـان المؤسس لهذه الفكـرة ، قد وُجِدَ على خطأ .

ضد التطور :

لقـد خلقت الأدلة الجـديدة مشكـلات كثيرة لنـظريـة التـطور وعـرّضتهـا لانتكاسات حقيقية ، وأشارت باستمرار ضد التطور . (كودمان) يقول[4](اليوم يتخلىٰ كثير من العلماء عن دارون ويستبدلونه بنظرية تقترح أن الأجناس الجديدة

(١) انظر المصدر ٥، ص ١٩٧ .
(٢) انظر المصدر ١٦ ، ص ٢٤٧ .
(٣) انظر المصدر ١ ، ص ٩.
(٤) انظر المصدر ١٠ ، ص ١٧ .

ربما ظهرت نتيجة لطفرة نوعية كلية نحو الأمام ، والتي تفسر ظهور الانسان الفجائي بصورة أفضل) . و (ل . س . ب . ليكي) يشير الى ([1]اننا ربما يجب علينا أن نراجع أفكارنا بين الحين والآخر أيضاً فيما يخص مهد الانسان وأين يقع . . وأثناء كتابتي لهذا الفصل جاءت أخبار عن اكتشافات جديدة مهمة لبعض متحجيرات القرود في أوربا . . ولذا بعد ترجمة معاني هذه الأدلة الجديدة فلربما يجب علينا أن نغير أفكارنا مرة أخرى حتى ، وكما نأمل ، تصبح الصورة مكتملة كلياً يوما ما) . ولكن هل أنهم يبحثون عن شيء قد لا يكون موجوداً على الاطلاق ؟ وهذا هو أحد الاحتمالات التي تشير اليها الأدلة الجديدة . (رُوث مُور) تقول [2]لقد رُسِمَت الصورة لحلقة مفقودة وانسان بدائي . وكلاهما صَوَّرا مخلوقات ضخمة خرقاء تشبه القرود وكانت تتحرك بخطوات ثقيلة غير منتظمة بسيقان منحنية ورؤوس مندفعة الى الامام . ولكن العظام الحقيقية ، عندما اكتُشِفت ، حطمت هذه الصورة . فالمتحجرات بينت ان الانسان ـ القرد كان يمشي كالانسان الحديث ويمتلك جسماً منتصباً كجسم الانسان الحديث قبل أن يصل دماغه الى حجم دماغ الانسان لفترة طويلة) . ولذا فانها تؤكد[3](ان الصورة ، التي كانت مقبولة لفترة طويلة يجب تغييرها) . وهذه هي الكيفية التي يغير بها علماء التطور آرائهم باستمرار . وفي الواقع لو أننا القينا نظرة سريعة على نظريات التطور فاننا سنلاحظ تغيرات رئيسية حدثت فيها ، ولذا فقد طُرحت نظريات جديدة لتصحيح النظريات السابقة الخاطئة ، والتي كان الناس يعتبرونها صحيحة لفترة طويلة من الزمن . والنظريات الجديدة تتطلب افتراضات وترقيعات كثيرة قبل أن تؤخذ مأخذ الجد . و (ج . ليديارد ستبنز) يعترف[4](بأننا ندرس، كحقائق تاريخية ، كثيراً من الحوادث الاحتمالية المرتبطة

(١) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

(٢) انظر المصدر ١ ، ص ٦ .

(٣) انظر المصدر السابق، ص ٦ .

(٤) انظر المصدر ٢ ، ص ١ .

بارتقائها وسقوطها . والأدلة التي يمتلكها البيولوجيون الآن حول ظهور وانقراض المجموعات الحيوانية الرئيسية خلال العهود الجيولوجية الماضية تشبه ذلك في طبيعتها ، وتحمل في طياتها نفس الدرجة العالية من الاحتمال) . ولكن ما يُغفَل عنه هنا هو أن التاريخ ليس بتلك الأهمية القصوى لحياة الانسان حتى لو أخذت احتمالات خاطئة بخصوصه بينها قضية الخليقة باستطاعتها أن تغير طريقة حياتنا وأخلاقنا ومُثُلنا وعلاقاتنا بعضنا ببعض جذرياً ، فهي باستطاعتها أن تقلبنا كلياً الى هكذا أو هكذا ، ولذا فانها ، وبكل تأكيد ، يجب أن تؤخذ بجدية حقيقية بواسطة الناس الذين يعتبرون أنفسهم علماء ومفكرين يحملون مسؤوليات تجاه المجتمع الانساني . وعلى أي حال ، فان الموضوع بأكمله ، وكما يقول (ستبنز) مجرد احتمال وليس أكيداً . وبالرغم من ذلك فانه يُعرَض علينا وكأنه حقيقة علمية . الا أنه أبعد ما يكون عن العلم الذي نرغب أن نضع ثقتنا فيه .

نظريات التطور وتبريراتها ونقدها :

توجد ثلاث نظريات لتفسير التطور بصورة عامة . نظرية (لامارك) التي تعطي الدور الأساسي في التطور للبيئة . وكان لامارك عالماً فرنسياً أعلن عن نظريته قبل (دارون) بكثير (حوالي عام ١٨٠٢) . ويعتقد (لامارك) ان الأجناس تتفاعل لتغيير نفسها لغرض ملائمة البيئة أي أنها تعمل وتجهد نفسها للحصول على التغير اللازم . ومعنى ذلك أن سبب التغير الذي يحدث في خصائص الكائن الحي هو حاجة ذلك الكائن الحي لهذا التغير الذي يساعده على البقاء والديمومة ، مثلاً ، أن العضلات القوية للركض تصبح جزءاً من الكائن الحي . والتغير الجديد هذا ينتقل الى النسل الجديد لأنه (كما تزعم النظرية) يصبح جزءاً متأصلاً من الكائن . وهذه النظرية تعاني من مشكلات كثيرة وحلقات مفقودة كثيرة ، ولذا تم التخلي عنها تماماً من قبل العلماء .

ثم جاء (دارون) بعد ذلك في عام ١٨٥٩ (وكان عالماً انكليزياً) ،

فطرح نظريته التي تؤكد على الانتخاب الطبيعي كسبيل للتطور التدريجي . وهذا معناه أن الطبيعة تنتقي الكائنات الحية الأقـوى والأصلح ، أي أن الظروف هي التي تقـرر ، ويتم التغـير في الكـائن الحي المفـرد . وهـذه النـظريـة جابهت مشكلتين . الأولى انه وُجِدَ بأن التغيـرات في الكائنـات الحية تحـدث على شكـل طفرات كبيرة وليست تدريجية . الثانية أن هـذه التغيرات لم تحـدث في الكائنـات المفـردة ، ولكن للجنس كنـوع بـأكمله . و (سميث) يشـير الى انـه ([1]بينـما التنافس هو أساس الانتخاب الطبيعي بين الكائنات الحية ، فان التنـافس وحده ما كان ليعمل في الأزمان ما قبل الحياة لانتخاب المجموعات الجـزيئية الأصلح ، ولذا فان أنواعاً أخرى معينة من المسـاعدة كـانت ضروريـة) . من الواضـح أن المسألة يجب أن تكون هكذا لو أن الحياة كانت قد انبثقت فعلاً كما يقولون ، لأن الخليـة الأولى لم يكن معها مـا ينافسهـا . وأنها لمسألـة في منتهى البسـاطـة ولكن (دارون) ومؤيديه من العلماء لم يدركوا ذلـك لفترة قـرن من الزمـان . لذا فـان نظرية ثـالثة ، تسمى نـظرية الـطفرات الـوراثية ، ظهـرت عام ١٩٥٠ . وهـذه النظرية تؤكد على ظهور الخصائص الفجائية (والعشـوائية) الجـديدة عن طـريق الصدفة كسبيل للتطور بـواسطة طفـرات تسببها تغيـرات عشوائيـة في الجينات . وكانت هذه النظرية طريقاً للخروج من المأزق بعد أن وصل التطوريون الى نهاية مسدودة مع الانتخـاب الطبيعي الـذي اقترحـه (دارون) . ولكن هذه النـظرية عـانت من مشكلة أيضاً ، وهي أن هـذه الطفـرات وحدهـا ليست كافيـة لجعل الكائن الحي يتلائم مع الظروف لأن التغيرات (ولكونها عشـوائية) قـد لا تنتج الأصلح دائماً . لذا فان الرأي السـائد الآن هـو أن هناك عـاملين يؤثران معـاً في تطور الكائنات الحية ، وهما الطفـرات التي تولـد خصائص جـديدة والانتخـاب الطبيعي الذي يؤدي مهمة الصقل النهائي .

---

(١) انظر المصدر ٦، ص ١١ .

وعن الانتخاب الطبيعي يقول (روبرت اندري) ([1]ان دارون حاول أن يعطي تفسيراً للفروقات بين الأجناس على هذا الأساس وحده ، وفشله كاد يسبب انهيار النظرية بأكملها تقريباً . ولكن هناك شكلاً آخر من الصدفة الطبيعية لم تكن معروفة في زمن دارون . وهذه هي الطفرة الوراثية . . . ونظرية الطفرات الوراثية قد انقذت نظرية التطور) . وسؤالنا هو : هل أنها انقذتها فعلاً ؟ أم أنها اكثر التبريرات لا منطقية على الاطلاق لأي شيء في الوجود وليس للتطور فقط ؟ وهل أن هذه الطفرات ، أو الصدفة ، تعطي نتيجة ؟ ويجيب (اندري) بالقول ([2]واحدة من مائة من هذه الطفرات بالامكان اعتبارها جيدة ، وبصورة عامة نستطيع القول أن الطفرات التسعة والتسعين الأخرى تقتل الكائن الحي لحظياً ، أو تدمر نظامه الجيني الى درجة كبيرة بحيث أن الانتخاب الطبيعي يكمل افناءه) . انه لأمر عجيب حقاً !! انها ليست الصدفة بأكملها ولكن واحد بالمائة منها فقط . يا له من انقاذ اخرق لنظرية التطور ! في الواقع انه بمثابة الاعتراف بفشل النظرية بأكملها .

و (دي كايوكس) يشير الى أن ([3]التقسيمات الفجائية في دورة الطفرات ممكنة جداً ولكنها لم يقم البرهان عليها) . والسؤال هو : اذا كانت لم يتم اثباتها بعد ، كيف تكون ممكنة جداً اذن ؟ ويبدوان أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها استقراء ليس علمياً وأبعد ما يكون عن الحقائق .

ولكن كيف تحدث هذه الطفرات ؟

(دورثي هنشوبيتنت) تقول ([4]هناك عامل آخر بجانب الانتخاب

---

(١) انظر المصدر ١٦ ، ص ٢١٦ و٢١٩ .

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢١٩ .

(٣) انظر المصدر ٥، ص ١٣٣ .

(٤) انظر المصدر ٩، ٣٥.

الطبيعي قد يكون مهماً جداً في تطور الأجناس . وهذا العامل يسمى الانجراف الجيني . وهو عملية عشوائية . فبعض الخصائص المعينة قد تصبح نوعاً ما متكررة في الجنس بصورة عشوائية) . لذا فانها الصدفة ، بلا قانون أو تعليمات ، وليس هناك شيء نظامي ، ولكن مع ذلك جميع الكائنات الحية تتكون من أنظمة معقدة فائقة التطور والتنظيم . ويؤكد (اندري) كذلك بالقول ([1]ولكن الصدفة عامل لا يجب تجاهله في واقع العمليات الحيوية) . ونحن نقول ، ربما لا يجب تجاهل الصدفة ، ولكن جعلها القانون الذي يتحكم في الأمور ليس علمياً أيضاً . وعلى أي حال ، صدق أو لا تصدق ، فان (مونارد) يقول ([2]ان مجموعة تتكون من بضعة مليارات من الخلايا يمكن أن تتكون في مليمترات قليلة من الماء . وفي مجموعة بهذا الحجم قد يكون الفرد متأكداً أن أي طفرات ممكنة ستكون موجودة . وبذلك ، فانه في مجموعة كبيرة كهذه فان الطفرات ليست ظاهرة شاذة أبداً : انها القانون) . ولكن أين البرهان الذي يثبت أنها القانون ؟ وعلى سبيل المثال ، اذا أخذنا معدل الجريمة في امريكا بنظر الاعتبار ، وهو عالٍ جداً ، فهل باستطاعتنا أن نقول ان الجريمة في أمريكا هي القانون ؟ ان القانون يحتاج الى برهان قطعي على صحته ، وليس مسألة رأي فقط ، خاصة اذا كنا نتكلم عن الحقائق العلمية . وبالاضافة الى ذلك ، كيف ينطبق هذا القانون على الخلايا الاولى ؟ خاصة وأنه كان قد افتُرِضَ ان قليلاً منها ، وربما واحدة فقط ، عاشت وتطورت ، كما رأينا سابقاً . ويبدو أنه في الوقت الذي يشيّد العلماء نظرياتهم العلمية في جميع فروع العلم على أساس افتراض وجود علاقة سببية بين الحوادث المتعلق بعضها ببعض ، وعلى أساس امتناع الصدفة ، نرى التطوريون يقترحون الصدفة على أنها القانون الذي بموجبه تسير الحياة وتتطور (بلا برهان طبعاً) . و (مونارد) يقول ([3]في الواقع أن

---

(١) انظر المصدر ١٦ ، ص ٢١٦ .

(٢) انظر المصدر ٤ ، ص ١٢٠ .

(٣) انظر المصدر ٤ ، ص ١١٨ .

الانتخـاب الطبيعي يعمـل على منتجـات الصدفـة ، ولا يمكنه أن يعمـل في أي مكان آخر) . ولكنه يناقض نفسه عندما يقول ([1]ولكنه يعمل في منطقة ظروف ذات متطلبات كثيرة ، ومن هذه المنطقة فان الصدفـة ممنوعـة . وان التطور ليس مديناً للصدفة ولكنـه مدين لتلك الـظروف في مساره التقـدمي بصورة عـامة) . وعنـد قراءة هـذه الآراء لا نجـد أنفسنـا إلا في الـوضـع الـذي نـطلب فيـه من (مونارد) أن يقرر فيها اذا كان التطور سببه الصدفة ام لا .

ولكن ما هي العوامل التي تؤثر على الطفرات ؟

(دورثي بيتنت) تقـول ([2]وطريقـة أخرى لـزيادة قـابليـة تغـير الجينـات المتوفرة للانتخاب الاصطناعي بواسطة الطفرات الصناعية . فـالتعرض لـلأشعة السينية ، أو الأشعة فوق ـ البنفسجية ، أو بعض المواد الكيمياوية بامكانه زيـادة معدل الطفرات) . وقد جرىٰ بعض العلماء وراء هذه الفكرة ، و (ستبنز) يشير الى ان ([3]هـذا قاد بعض علماء الأحيـاء للاعتقـاد بـأن بعض هـذه الـطفـرات الفجائية تتولد بواسطة الأشعة الطبيعيـة ، مثل الأشعـة الكونيـة . ولكن عندمـا أجريت الحسابات ، اعتماداً على شِدَّات[*]معروفة للأشعة الطبيعية بـالمقارنـة مع الشِدَّات المطلوبة لتوليد الطفرات ، بينت النتائج أن شدة الأشعة الطبيعية واطئة الى الـدرجة التي لا يمكنهـا أن تسبب سـوى جـزءاً ضئيـلاً جـداً من الـطفـرات الفجائية) . ولذا فان هذا الرأي الـذي تمسك بـه العلماء لسنين طـويلة انهار هو الآخـر . ولذا فـان (ستبنز) يستنتـج ان ([4]اكثر التعميمـات أمـانـاً التي يمكن الاعتقاد بها في الوقت الحاضر هي القول بأن الطفرات الفجائية عبارة عن نتائج

(١) انظر المصدر السابق، ص ١١٨ .

(٢) انظر المصدر ٩ ، ص ١٠٩ .

(٣) انظر المصدر ٢ ، ص ١٩ .

(*) جمع شدة (وهي الكثافة) .

(٤) انظر المصدر السابق، ص ٣٠ .

عـرضيـة للصـدفـة في الأيـض(*)النـواتي أو حتى الخلوي) . ومـرة أخـرى فـان الصدفة هي المخرج الوحيد من المأزق في غياب الدليـل العلمي ، وهي التبريـر العلمي الوحيد لأعظم ظاهرة على وجـه الأرض . ان العلم لم ير تبـريراً أخـرق كهذا لأيٍ من نظرياته في أي حقل من حقوله .

و (ريشارد ليكي) يشارك الآخرين من أقرانـه في هذه الفكـرة الرائعـة ، فيقول ([1]في عملية الخلط فان الخطأ باستطاعته أن يحدث وتتغير واحدة أو اثنان من التعليمات . وهذه الأخطاء تعرف بالطفرات ، وسواء كانت هذه التعليمات التي تنتجها أحسن أو اسوأ فان الموضوع يعتمد على الصدفة) . وهكذا جئنا الى الوجود ، بواسطة الخطأ ، والصدفة . والأنكىٰ من ذلك أننا لا نعلم سواءاً كـان الانتاج الحاصل من هذه الصدفة نحو الأفضل أو الاسوء . ولا نستطيع أن نفهم كيف تستـطيع الأخـطاء أن تـولـد أنـظمـة معقـدة ومتـطورة كتلك التي تمتلكهـا الكائنات الحية فما تعلمناه دائماً هو أن الخطأ شيء سيء ويجب أن نتحاشاه . وقـد نتسـاءل لماذا لا يصبـح الأفراد ملوكـاً أو علماء بطريقـة الخطأ . فـلا ملك أصبح ملكاً بطريقة الخطأ ، ولا عالم أصبح عالماً بطريقة الخـطأ . ومن حقنا أن نتصـور اننا اذا كنا نتاجاً للخطأ فان الخطأ يجب أن يكون مقبولاً باعتباره نظاماً انتاجياً في حيـاتنا الاعتيـادية ، أو عـلى الأقل كـان يجب أن لا يُنْظَر اليـه بهذه السلبيـة التي نعرفها . واذا كنا نُقاد الى الاعتقاد بأننا نتاج للأخطاء كان علينا أن نكبر وننضج ونحن طبيعياً لا نعتبر الخطأ شيئاً قبيحاً . ثم لماذا لا تنتـج الأخطاء اشيـاءاً مفيدة في حيـاتنا اليـومية ؟ ويضيف (ريشـارد ليكي) بالقـول ([2]ولكن أحيانـاً يكون التغير محظوظاً والتعليمات الجديدة تقود الى التحسين) . وهكذا ، وكالآخرين ، فان هذه هي الخلاصة التي يترجم بها كيفيـة وصولـه الى معرفـة قصة الخليقـة :

(*) الأبيض = الميتابولزم .

(١) انظر المصدر ٨ ، ص ٧ .

(٢) انظر المصدر ٨ ، ص ٨ .

الصدفة ، والخطأ ، والحظ . ويسمونها الحقائق العلمية ويتوقعوننا أن نقبلها . والتطوريون يقبلون وقوع هذا العدد اللامتناهي من الصدف والأخطاء على أنها فعلاً حدثت ، ولكنهم لا يقبلون وقوع الصدفة الواحدة التي تقول أن الله هو الذي خلق الكون ، أو هو الذي مهد لهذه الكائنات أن توجد . وبالنسبة لهم فان هذه الصدفة المنطقية ، التي لا تتناقض مع البديهيات والقوانين العقلية التي شُيدت على أساسها جميع أنواع العلوم والمعرفة ، لا يمكن أن تكون قد وقعت . والسؤال هو لماذا ؟ وقد نجيب على هذا السؤال في الفصول القادمة . أما الآن فاننا سنبقى مع قصة الخليقة لكي نتحقق من الافتراضات التي على أساسها يُفسَّر نشوء الحياة . ونذكر هنا أن هذه الافتراضات هي تأملات بحتة ولم يقم البرهان العلمي على صحتها أبداً .

وكما انهارت نظريات التطور الأولى فان نظرية الطفرات الوراثية تنهار هي الأخرى أيضاً بواسطة الأدلة العلمية ، ويجب أن يظهر تفسير آخر لانقاذ فكرة التطور . ويشير (ريشارد ليكي) متكلماً عن الطفرات بأنها ، وحتى عندما تحدث ، فان (الأغلبية الساحقة من الطفرات مؤذية ولكن جزءاً صغيراً منها مفيد . . . والطفرات نادراً ما تكون هي المصدر المباشر ، اذا كانت على الاطلاق ، للتغيرات التي تعتمد عليها التغيرات التطورية . . . . وبدلاً من ذلك فانها تمون امدادات التغيرات لبُرْكة الجينات التي تقل دائماً بواسطة الحذف الانتقائي للمتغيرات غير الملائمة . . . ونتيجة لذلك فاننا لا يجب أن نتوقع وجود أي علاقة بين معدل الطفرات ومعدل التطور . وليس هناك أي دليل على وجود علاقة كهذه . . . . والسبب الأساسي لتعقيد التكيف الذي تسيطر عليه الجينات هو التعقيد والطبيعة غير المباشرة للعلاقة بين الجين والخِصّيصة . . . . ولا يمكننا أن نتوقع أي طفرة مفردة أن تحسن المقدرة العامة للكائن الحي ولكن

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٠ ، ٣٢ ، ٢٥ .

فقط تكيفه لظروف بيئية معينة) . ولذا فانه من الواضح أن الأدلة العلمية الحديثة تبين أن الطفرات لا تسبب أي تطور في الكائن الحي ، ولكن هذه الطفرات التي تحدث بطريقة الصدفة (كما يزعمون) تساهم في امداد بُركة من الطفرات ، وبطريقة الصدفة فان هذه البُركة تدفع الى الامام باتجاه التطور (حسب تصوراتهم) . ولكننا سنرى عن قريب أن المسألة ليست هكذا أيضاً .

و(بليبترو) يؤكد على فشل نظرية الطفرات بالقول ([1]ان العملية العشوائية الاعتيادية لآلية الجينات تميل الى انتاج اما تغيرات لا تطورية والتي يمكن اعتبارها اخطاء تعيين(*)والتي هي غير تكيّفية أو أنها تكون تكيّفية بطريقة الصدفة) . و (دي كايوكس) يشير هو الآخر الى فشل نظرية الطفرات بالقول ([2]ان القرعة ليست كافية . ونظرية الطفرات فاشلة من ناحيتين . فتطور الأجناس لا يمكن أن يكون نتيجة للصدفة وحدها حتى لو أن الانتخاب صحح الأخطاء . ولا يمكنها أن تنتج كذلك من جهود الكائنات الحية الداخلية وحدها ، لأنه في حالة وجود الكائنات الكثيرة في أي وقت معين فانها تبذل جهداً أكثر ، لذا سيكون هناك تطور أسرع . ولكن الحالة ليست كذلك في الواقع . ولذا لا بد وأن شيئاً آخر خارج الكائن الحي لعب دوراً أيضاً) . ولذا فانه يؤكد على ([3]اننا نعرف أن الأغلبية الساحقة لهذه الطفرات رديئة . وحتى أننا نستطيع أن نرى ذلك متمثلاً في لحوم أجسامنا ، أو على الأقل في أجسام أناس آخرين . ومعظم التشوهات الخلقية هي من هذا الأصل . لذا فان تفسير التطور وتقدم الحياة خلال الأزمان بواسطة عملية تهيمن عليها التشوهات والعيوب يبدو متناقضاً . واللجوء الى الانتخاب يضائل التناقض ، ولكن هل

---

(١) انظر المصدر ١٤ ، ص ١٥ .

(*) تعيين = فعل أخذ العينات .

(٢) انظر المصدر ٥، ٢٠١ .

(٣) انظر المصدر السابق، ص ٢٠٠ .

يقضي عليه ؟ ان تفسير المقطوعة الموسيقية لا يكمن في سلسلة من النوطات الخاطئة) . و (بليبترو) يذكر أيضاً انه ([1]تحت تأثير أخطاء التعيين(*)العشوائية ، أو المسمى « الانجراف الجيني » في هذا المجال ، فان تردد(*)صبغية جينية معطاة قد يزداد حتى الى ١٠٠٪، أو يقل حتى الى الصفر . . وذلك لأنه ، وكما هو معروف الآن ، فان هذه هي العملية الوحيدة التي بواسطتها يستطيع التطور (غير الموجّه باتجاه التكيف) أن يحدث . . . . ولكن كم هي اعتيادية الحدوث وكم هي مهمة في اطار الصورة العامة للتطور ، هذان سؤالان لا زالا يقوم عليهما جدال عنيف) . اذن ، وكما قد نتساءل ، أين نقف الآن بعدما اتضح أن فرصة التطور والدمار متساوية ؟ وهذا يضع توازناً باتجاه تأكيد الثبات والسكون ، وليس التطور ، وهو ما نقوله بأن الله تعالى خلق الأشياء كما هي . وبعد كل هذا فانه ليس عجباً ان نجد العلماء في خلاف ولا يستطيعون أن يصوغوا قانوناً من التطور . ولكنهم مع ذلك يعرضون الموضوع علينا وكأنه واقع وحقيقة وفي ذلك خداع وغش لا يليق بالعلم ولا بالعلماء .
ويبدو أن التطور ليس سوى معتقد يؤمن به مَنْ يؤمن ، وموضّة العصر الحديث ، وهاجس يتملك بعض الناس الذين يتمسكون به ويحاولون تبريره بأي اسلوب كان . و (بليبترو) يخبرنا بأن ([2]الاتفاق الجماعي على قبول الفكرة يبدو الآن عاماً ، ولكن أهميته في المسار التطوري الطويل والتغيرات التطورية الجذرية قد حُجبت كلياً تقريباً بواسطة التأثير غير العشوائي للانتخاب) . أي أنهم يرون الطبيعة الخلابة ، ثم يفرضون التطور ، ثم يبررونه بالعشوائية ، ثم يقولون بما أن النتاج النهائي (وهو الطبيعة) موجودة فلا بد وان العشوائية تنتج اللاعشوائية (أي النظام) . ولكن أين الحقائق العلمية في هذا التفسير ؟ وأين

---

(١) انظر المصدر ١٤، ص ١٥ .

(*) تكرار حدوث .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ١٥ .

التجارب العلمية التي تؤكد هذه المفاهيم والاستنتاجات ؟ (بليبترو) يخبرنا باحتمالين . الأول انه[1](اذا كان التناسل تباينياً ، واذا كانت هناك علاقة متبادلة بين العوامل الجينية المتميزة في الأسلاف وفي نجاحهم الأعظم النسبي في التناسل ، فسوف تكون هناك زيادة في تكرار هذه العوامل الجينية ضمن الجنس من جيل الى آخر . والتطور سوف يحدث ، وسوف يكون موجهاً وليس عشوائياً) . والاحتمال الثاني انه (اذا كان التناسل عشوائياً ، وبالاجتماع مع العملية العشوائية ذاتياً في الانقسام الاختزالي ، فلا توجد نزعة احصائية للتغير في تكرار العوامل الجينية ضمن الجنس . وبكلمة أخرى ليست هناك نزعة لحدوث التغيرات التطورية الموجهة . . . . وحتى لو أخذت الطفرات بنظر الاعتبار فان هناك نقطة توازن فيها أي طفرة معينة تُوازَن بواسطة طفرة ارجاعية وخسارة عشوائية ، وليس هناك نزعة باتجاه التغير التطوري في الجنس . لذا فان عملية الجينات العشوائية كلها لا تميل ، احصائياً ، الى انتاج التطور) . ولكن بما أنهم يؤمنون بأن التطور مسألة واقعية لا جدال فيها فانهم يفترضون أن الاحتمال الأول هو الذي يحصل . وهو ليس أكثر من افتراض مبني على معتقد مسبق وليس اكتشافاً علمياً يبين بأنه هو الذي يحدث من بين الاحتمالين . ولكننا نريد أن نجلب الانتباه الى نقطة مهمة في هذا الصدد ، وهي أنه لما كان التطوريون يؤكدون (وكما رأينا) أن عملية الطفرات الوراثية هي عملية عشوائية فاننا نميل الى افتراض حدوث الاحتمال الثاني وليس الأول . أم هل أن الصدفة والخطأ والحظ تتوقف هنا ؟

وعلى كل حال ، بسبب الظهور المفاجيء للأجناس الكاملة وبسبب ان الطفرات لا تنتج تغيرات رئيسية في الكائن الحي ، فان أحدث النظريات ترى أن التطور يحدث للجنس ككل . و (بليبترو) يشير الى ان [2](النهاية المهمة فى

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ١٤ .

(٢) انظر المصدر ١٤ ، ص ١٣ .

التطور هي قابلية تكيف الجنس ككل ، ومقدرته على الاستمرار خلال الأجيال المستقبلية ضمن بيئة معينة) . ولكن ماذا يعني هذا ؟ هل انه يعني أن كل الكائنات الحية ، وبطريقة الصدفة ، تحدث فيها نفس الطفرات التي تسبب نفس التغييرات في خصائصها ؟ يا للعجب !! في الواقع أن هذا معناه حدوث نفس الطفرات ، وبطريقة عشوائية لملايين الكائنات الحية التي تنتمي للجنس الواحد . ولكي يستمر التطور فان هذه العملية العشوائية يجب أن تحدث لكل الأجناس في كل الأجيال وبصورة دائمية . ويبدو لنا ، لو ان هذا هو فعلاً ما يحدث ، فانه عملية مصممة بكل تأكيد وليس مسألة عشوائية ، ذلك لأن تكرار حدوثها بهذه الكثرة ينافي تعريف معنى العشوائية أصلاً . فالشيء الحادث يقال له عشوائياً اذا حدث بدون تكرار ، أما إذا تكرر بخصوص نفس الشيء فلا يسمى عشوائياً وإنما لا بد وأن هنا علاقة سببية له . وبذلك فان هذه العملية ليست صدفة ابداً ، وأنه لمن الجنون أن يوصف شيء كهذا بالعشوائية .

وخلاصة الموضوع ، كما يشير اليها (بيجون كورتن) هي ان (التطور ، كما تم اثباته ، يأتي من تبادل الفعل بين التغيرات في الوراثة الناتجة من الطفرات ومن الانتخاب الطبيعي . وهذا كل ما في الأمر ويجب علينا أن نقبل به)[1] . ولكن (اندري دي كايوكس) يجلب الانتباه الى أن هذا الاستنتاج الأخير ليس بتلك القوة . فهو يشير الى ان (ظهور السلالات الجديدة يشكل مشكلة عويصة . فداروين لا يشير اليها ، ولامارك يقدم لنا احتمالات كثيرة ولكن قليلاً جداً من الحقائق يمكن رؤيتها تعمل في الطبيعة اليوم ، ونظرية الطفرات الوراثية تجهزنا بأكوام من التغيرات المفصّلة ، ولكن قليلاً منها مهمة أو مفيدة . وهي تشبه بناء جبل من الأحجار الترابية الصغيرة)[2] .

---

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٤٢ .

(٢) انظر المصدر ٥ ، ص ١٩٨ .

التطور معتَقَدٌ ودين

بالرغم من ندرة الأدلة وفشل جميع النظريات التي اقترحها التطوريون في اعطاء تبرير مقبول لفكرة التطور فان الناس يتمسكون بها ويحاولون تبريرها بأي طريقة كانت . وفي الواقع فقد أصبح التطور مجرد اعتقاد أشبه بالدين أكثر مما هو علم ، وأولئك الذين تخلوا عن المعتقدات الكنسية قد استبدلوها بالتطور . فها هو (بيتر رسل) يخبرنا في معرض حديثه عن تحرير ذرات الأوكسجين الى الجو بواسطة الخلايا الحية الاولى التي تفترضها نظرية التطور على أنها كانت تتغذى على المواد الكيمياوية وتطلق الأوكسجين (على حد زعمهم) ، فيقول :[1] استمر الأوكسجين بالتراكم الى ما قبل ١,٥ مليار سنة عندما وصل الى نسبة ٢١ ٪، ذلك المستوى الذي صادف وان كان هو التوازن الأمثل بين الكفاءة الحيوية وخطر اشتعال النيران . ولذا فانه توقف عن الزيادة بصورة فجائية وبقي متزناً اتزاناً استثنائياً منذ ذلك الوقت) . يا للعجب كيف يلعب المعتَقَد بتفكير الانسان وبأي طريقة يجعله يفكر !! ولكننا لو قلنا للسيد (رسل) باننا جئنا من مكان نائي من غابات الامازون وبعد أن رأينا التكنولوجية الحاضرة لأول مرة ولاحظنا السيارات تسير من حولنا والطائرات تطير فوقنا الخ ، وقررنا ان « المكائن استمرت بالتراكم حتى وصلت الى المستوى الحاضر الذي صادف وان كان هو المقدار المطلوب الذي يحتاجه الانسان» ماذا سيظن بنا؟ ونحن نسأله لماذا توقف الأوكسجين هكذا فجأة؟ وكيف صادف وان كان هو المستوى الذي يعطي الاتزان الأمثل بين الكفاءة الحيوية وخطر اشتعال النيران بالضبط ؟ بطبيعة الحال ، وكما قد نظن ، فان هذه صدفة عجيبة أخرى . فكل هذه الظواهر العظيمة المحكمة التنظيم ليست سوى صِدَفاً عجيبة . ولا نعلم ماذا حدث للعلم وللحقائق والاكتشافات العلمية ، وأين هي تلك العلوم التي جعلت

(١) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤٥ .

هؤلاء العلماء يعتقدون بأنها صدف ليس الا . أليس القول بأن هذه الظواهر الفائقة التنظيم هي نتاج لتخطيط مسبق أكثر علمية من القول بأنها محض صدف ؟ وكما أننا نقول أن هذه المكائن والآلات التكنولوجية الحديثة قد تم تصميمها وصنعها بواسطة العقل ، فانه من الانصاف ، والاحترام لعقولنا ، أن نفترض نفس الشيء لظاهرة الأوكسجين وظاهرة الحياة العظيمة . ولكن خواطر « الصدفة » و « الخطأ » و « الخط » و « ربما » و « لا بد وان » تسيطر على عقول العلماء بسبب الايمان المسبق بالمعتقد القائل أن التطور هو سبب الخليقة . وأحد التبريرات يعطيه (ستبنز) هو[1] (ان هياكل محسَّنة كهذه تطورت تدريجياً ، وكما نظن ، خلال تراكم الطفرات والمؤتلفات الجينية) . وواضح انه عندما يتكلم عن تطور هذه الهياكل فانه يتكلم بثقة ، ولكن عندما يأتي الى الأسباب نرى كلمة الظن تظهر بسبب عدم وجود الاثبات الأكيد . ولكن اذا لم يكن البرهان موجوداً أليس لدينا الحق في أن نسأل (ستبنز) كيف انه أصبح متأكداً من أن هذه الهياكل قد « تطورت »؟

و (سميث) يبرر الخليقة بواسطة التطور كما يلي ([2]ان العمليات الجيوفيزيائية كالجو والتبخر والترسبات لا بد وأن اثرت في ذلك الوقت كما تفعل الآن لخلق أنواعاً متباينة من البيئات . وانه لمن الواضح ان واحداً من هذه البيئات على الأقل كان ملائماً للحياة من ناحية درجة الحرارة والتركيب) . وقد يكون هذا صحيحاً ، ولكن السؤال : ما هي هذه البيئة ؟ والجواب على ذلك هو انه بما اننا لا زلنا نعيش وفينا حياة فان تلك البيئة لا بد وانها كانت تشبه بيئتنا هذه التي نعيش فيها . واذا كانت هذه هي الحقيقة ، وهي كذلك طبعاً ، كان يجب على الحياة أن تكون في انبثاق مستمر . وهذا معناه ان ولادة الخلايا

---

(١) انظر المصدر ٢ ، ص ٢٥ .

(٢) انظر المصدر ٦ ، ص ١٢ .

البدائية (التي يؤكد عليها التطور) يجب أن تكون مستمرة دائماً منذ ذلك الـوقت الى وقتنا الحاضر . اليس من الانصاف أن نقترح هذا الاحتمال ؟ ولكن اذا كـان ذلك ممكناً ، وهو ما يجب أن يكون ، فأين الأدلـة العلمية ؟ ان علماء التـطور لا يتكلمـون عن هذه الأمـور أبداً ، فهم يقـولون لنـا أن الحياة انبثقت قبـل بضعة مليارات من السنين فقط ، ثم بـدأت (لا لسبب) بالتـطور . واذا لم يكن هناك انبثاق مستمر لخلايا جديدة وحياة جـديدة فـالسؤال هو : مـا هو السبب الـذي اوقفها ؟ لا جواب هناك .

(دي كـايوكس) يبـرر ايمانـه بالتـطور كالآتي :[1] اذا اتفقنـا أن الـطبيعـة استطاعت أن تخلق أجناساً مختلفة من مخلوق معين ، اذاً فاننا لا نستطيع أن ننكر أنها استـطاعت أن تجعـل نفس الاحتمـال يعمـل لمخلوق من أصـل آخـر ، لأن حدود الأجناس مستمرة) . ثم يستطرد :[2] حالما نبدأ نازلين في مسار التطور فانه من المستحيل أن نتوقف في وسط الـطريق، فأمـا كله أو لا شيء). وهو يفـرض أن التطور حقيقة، ومن ثم فانه من الطبيعي أن ينتهي الى استنتاجه هذا. ولكن أليس هـذا نفس الشيء الذي قلنـاه آنفاً عن البيئـة التي يجب أن تكون مـلائمـة لانبثاق الحياة المستمر ؟ فاذا كان اقتراح (دي كايوكس) مقبولاً ، يجب ان يكون اقتـراحنا مقبـولاً أيضاً . ولـذا بامكـاننـا أن نـطرح الـرأي التـالي بنفس اسلوب (دي كايوكس) وطريقة استنتاجه : « اذا اتفقنا أن الطبيعـة خلقت خلية بـدائية واحدة، فماذا يـوقفها من خلق خـلايا اكـثر؟ أما اننـا نستمر مـع هذا الاقتـراح او لا ،لأنـه من المستحيل التـوقف في منتصف الطريق، فـأما كله أو لا شيء). فماذا يكون الجواب على هذا الاقتراح ؟ ولكن (دي كايوكس) يتمسك بالتطور مهما كان الأمـر، ويشير الى أن الشيء المهم هـو ليس كيف انبثقت الحياة، ولكن

---

(١) انظر المصدر ٥ ، ٥٤.

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٥٤.

المهم هو ([1]معرفة الاتجاه الذي تأخذه هذه الحركة الحيوية خلال الزمان والمكان وفهم قوانينها وتوجهاتها . فتراكيبها عبارة عن وسائل أو ممثلين ، ولكن المهم هو بماذا يلعبون وليس ما هو كنههم). ونحن لا نشك في أهمية معرفة الكيفية التي تعمل بواسطتها الحياة لأن ذلك يساعدنا في تحسين طرق معيشتنا وصحتنا وسعادتنا الخ . وقد لا نجادل في ماهية تراكيبها . ولكن عندما تُعرض علينا نظرية بخصوص الموضوع وتُطرح على أنها تمثل الحقيقة التي تفسر الخليقة فان من حقنا أن نطلب برهاناً قطعياً على اثبات صحتها . و (دورثي بيتنت) تجلب الانتباه الى حقيقة انه ([2]عندما نتكلم عن التطور فاننا في الواقع نتكلم عن احتمالات وليس اشياءاً مؤكدة) . وهذا يرمي باقتراح (دي كايوكس) الأول في سلة المهملات ويجعل استنتاجه يستند على لا شيء وينهار . و (ستبنز) هو الآخر يبرر ايمانه بالتطور بواسطة رأي مجرد وليس برهاناً علمياً ، فهو يقول ([3]كل الأجناس والكائنات الحديثة كانت ولا زالت موجودة كأجناس ناجحة وتلائم بيئتها جيداً، وكل الطفرات المحتمل أن تكون مفيدة لا بد وان حدثت على الأقل خلال تاريخ تطور السلالات) . ومرة اخرى ، لان الانسان يمتلك عينين (كما قد نضرب مثلاً) فلا بد وأنه يرى بواسطة كلا العينين . فلأن الكائنات الحية موجودة لا بد وأنها تطورت ، ولا بد وأن الطفرات المفيدة قد حدثت . يا له من استنتاج علمي !! ما هو الفرق بين استنتاج كهذا والاستنتاج بأنه لما كانت المكائن موجودة فلا بد وأنها تطورت بعضها من بعض. ولا ننسى أن المكائن أيضاً مصمَّمة على أسس متشابهة وتصنع بطرق وأساليب متشابهة ، وعلى سبيل المثال فان جميع السيارات والحافلات والشاحنات الخ تمتلك اشياءاً كثيرة مشتركة بينها مثل الماكنة وآلة القيادة والعجلات والمقاعد والمكابح الخ . واذا اتينا برجل

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٨٨.

(٢) انظر المصدر ٩ ، ص ١٧ .

(٣) انظر المصدر ٢ ، ص ٢٤ .

من الغابة لم ير هذه الأشيـاء من قبل ، وبعـد ان يلاحظ التشـابه فـانه سيمتلك نفس القوة التبريرية التي يمتلكها التطوريـون بأن هـذه الآلات تطور بعضهـا من بعض بطريقة الصدفة .

وبعضهم يبرر التطور بـواسطة عـامل الـزمن. (اندري) يقـول (١)لكي نفهم التـطور، كما قلت ، يجب أن نكتسب ، عـلى الأقل ، احتـراماً لضخـامة الزمن . وعندما نكون قـد احرزنـا بعض الفهم المرتعش لتلك اللُجّـة من الزمن المسماة مليون سنة ، عندها نستطيع أن نفهم كيف أن المخلوق شبه ـ الانسان ، العديم الذقن والصغـير الدمـاغ ، آخر الحيـوانات ، استـطاع أن يلقي بنفسه في تلك اللجة بكل قابلياته للركض والرمي والصيـد والقتل ، وكـل غرائـز اللبائن التي ورثهـا للعـلاقـات الجنسيـة والاجتمـاعيـة ، وللتملك والمجـد، ولـلاعـداء والاصدقاء ، وكيف استطعنا أن نخـرج من اللجة بـدون الشيء الكثير الاضـافي سوى ذقناً ودماغاً أكبر) . حقاً انه لمن العجيب كيف يطلب منا أن نحترم الزمن وليس عقولنا ، وانه لمن العجيب كيف أنه يعتبر الدماغ شيئاً تـافهاً عنـدما يشـير اليه بالعبارة « بدون الشيء الكثـير الاضافي ». وسـوف نناقش مسـألة الـدماغ في فصول قادمة ، ولكننا نود أن نشير هنـا الى ما يستـطيع الايمـان الأعمى أن يفعل بصـاحبه ، وكيف يجعله يفكـر . والأكثر دهشـة هو أن (انـدري) نفسه يـرجع ليسأل ، غير محترماً الـزمن الذي يـطلب منا أن نحتـرمه ، فيقـول (٢) اذا كانت الـطبيعة ، خـلال نصف مليار سنـة ، قـد تمكنت من انتـاج العـالم الحي الـذي نعـرفه ، فلمـاذا لم تستطع في المليـار سنة التي قبلهـا أن تنتـج أكـثر من الـرغـوة المـوجودة عـلى بركـة فلاح ؟) . وللجـواب على ذلـك فانـه ينحرف عن مشكلة الزمن ، مناقضاً نفسه ، ومعتمداً على أسباب اكثر غرابة فيقول (٣)ان الجواب ،

(١) انظر المصدر ١٦ ، ص ٢١٤ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٢١٥ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

طبعاً ، سهل جداً . فالموت في الأزمان ما قبل العصر الكمبري(*) لم يكن معروفاً، وكانت الحياة موجودة ولكن ليس الموت . . . وعالم الطحالب والاميبا والديدان البدائية عبارة عن حياة مستمرة الوجود. . . . ونعترف أنه قد يكون تبسيطاً اكثر من اللازم نوعاً ما اذا قلنا ان الحياة اخترعت الموت) . وفي الواقع أن هذا النوع من التفكير بُركة لزجة لا يجب ان يقع فيها احد لأن الخروج منها شبه مستحيل . فالتبريرات المطلوبة لاثبات مسائل كهذه تكاد تكون لا نهائية . وواضح انه ليس بامكاننا ان نتصور الى أي حد يذهب المؤمن بقضية ما لغرض تبرير ايمانه . فحتى الخرافات والتصورات الخيالية تصبح حقائق بموجب منطقه . ولا يمكننا أن نتحاجج عندما يُدفع العلم الى هذا الحد . أين البرهان العلمي ؟ وأين الحقائق التي تثبت آراءاً كهذه ؟ لا يوجد أي منها . ولكنه يرجع ليعترف ([1]يبدو انه لا يوجد سبب قوي لعدم تمكن الظرف الذي ساد لفترة مقدارها ثلثي عمر الحياة ان لا يستمر لفترة اضافية قصيرة اخرى. . . ايُّ مُحتلِّين خائبين لوحول عصور ما قبل الكمبري اولئك الذين اصيبوا بسلسلة من الصِدَف التي اجتمعت لتحرمهم من حياتهم الخالدة؟ اننا لا نعلم. وعندما ننظر الى الوراء، الى الاصل النهائي للقوة التي كانت في يوم ما ستصبح انساناً، نصل الى نقطة افتراق قبل خمسمائة مليون سنة. في البداية، قليل جداً، وفقط أبسط احتمالات الحياة الرئيسية «والتي يسميها علماء الأحياء الشُعَب» كانت موجودة، ثم، وبترتيب قصير جداً، وبمضي الزمن التطوري، فان البقية تظهر فجأة .

وجميع الحياة الحيوانية المتناهية في التنوع والتعقيد التي نعرفها اليوم حدثت خلال هذه الفترة ، وليس قبلها . . لماذا ؟ ماذا حدث قبل خمسمائة مليون سنة لخلق بدايات العالم المتنوع الحيوي ؟)، في الواقع ان هذه اسألة وجيهة . ولكنها ليست لنا لكي نجيب عليها ، فالتطوريون هم الذين يجب أن يجيبوا

(*) احد العصور الجيولوجية .

(١) انظر المصدر السابق، ص ٢١٤ ـ ٢١٦ .

عليها . وعلى أي حال ، قد لا يكون من الصحيح القول انه في الفترة السابقة للخمسمائة مليون سنة الماضية كانت توجد احياء بدائية فقط . فهذا هو افتراض التطوريون وحدهم ، لانه لا توجد آثار تشير الى أن هذه الاحياء البدائية كانت موجودة فعلاً في ذلك الوقت .

ورجوعاً الى موضوع التبريرات ، فان بعض الناس يبررون التطور كما يلي . (برتراند رسل) يقول [1]ان جميع الكائنات الحية تتكاثر بسرعة كبيرة بحيث أن القسم الأكبر من كل جيل يجب أن يموت قبل الوصول الى العمر الذي يسمح له أن يترك نسلاً . فأنثى سمك القُدْ تضع حوالي ٩,٠٠٠,٠٠٠ بيضة في السنة . فاذا وصل كل النسل الى البلوغ وانتج سمك قُدْ آخر ، فان البحر سيصبح صلداً خلال بضعة سنين ، بينما ستُغطى اليابسة بطوفان جديد) . ومنها يستنتج ان هناك تنافساً مستمراً ضمن الجنس الواحد وبين الأجناس المختلفة ، والذي يقود الى الانتخاب والتطور (على حد زعمه) . ولكن الواقع ليس كذلك ، فهذا (دي كايوكس) يوضح انه [2]اذا كان صحيحاً أن التطور ينتج من الطفرات العشوائية بمعدل ثابت خلال العصور الجيولوجية ، فاننا يجب أن تكون عندنا فرصة أكبر لملاحظة آثاره عندما تكون الفترة الزمنية بين الأجيال قصيرة . واذا كان التطور يبدأ بقرعة فعلاً ، واذا أخذنا بطاقة في كل مرة ، فان الجائزة الرئيسية يجب أن تُبربَح بتكرار أكثر كلما يصبح سحب البطاقات اكثر تكرار . وعلى أي حال ، فان السحب ، أو الأجيال الجديدة ، تحدث كل بضعة سنين بالنسبة للحصان والفيل . وبالنسبة للدياتوم[*]فانه يحدث كل بضعة أيام . ولكن بالرغم من ذلك فان الجائزة الرئيسية ، وهي الجنس الجديد ، لا تظهر بتكرار أكثر في مسار العصور

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٧٣ .

(٢) انظر المصدر ٥ ، ص ٢٠٠ .

(*) الدياتوم هو طحلب مجهري .

الجيولوجية . فتوقعات الحياة هي نفسها في كلتا الحالتين .

وفي القرعة أو اليانصيب ، فاننا نمتلك حظاً لربح الجائزة الكبيرة اذا كانت مائة بطاقة موجودة اكثر مما لو كانت مائة ألف بطاقة موجودة . والحياة تزودنا بهذه التنوعات . وبعض الأجناس تمتلك بذوراً أو بيضاً قليلاً جداً ، ولكن بعضها يمتلك الكثير . فالاويستر(**)تمتلك بضعة ملايين وكرة ـ النفاخ(***)تمتلك بضعة مليارات . وانه صحيح أن كثيراً من هذه البذور تنفقد أو تؤكد عندما تكون في مرحلة البيض أو عندما لا تُخَصَّب ، ولكن كثيراً منها تصبح يرقات ايضاً ، ثم كائنات فتية ثم انها تتعرض للانتخاب مثلما أن البالغة تتعرض للانتخاب . ويجب أن نجد تطوراً أسرع عندما تكون هناك بيوض اكثر . ولكن صورة الحياة في الماضي تبين لنا لا شيء من هذا النوع . ومحّار الماء العذب المسمى يونيو يضع مائتي الف بيضة في السنة . ولكن كائنات الملاريا الولّادية تلد خمسين طفلاً فقط . وبالرغم من ذلك فانه خلال المراحل الجيولوجية كانت الملاريا هي التي تطورت اسرع من اليونيو . والجمل يلد طفلاً واحداً في السنة ، بينما الضفدع ينتج خمسة آلاف . خمسة آلاف دعموص تسبح في بركة مائية ـ انها لفرصة رائعة للانتخاب ! ولكن مع ذلك ، وخلال المراحل الجيولوجية ، فان الجمل هو الذي تطور بصورة أسرع) . ولذا فان هذا التوضيح يجعل تبرير (برتراند رسل) ينهار من الأساس .

والايمان بالتطور يرجع ببعض العلماء الى خرافات اليونانيين القدماء . وهؤلاء العلماء ، وبطريقة ما ، بدأوا يقنعون أنفسهم بأن فكرة التطور ليست حديثة ولكنها قديمة بقِدَم تاريخ الانسان . وأصبح ذلك برهاناً آخر لصحتها . و (مُور) تخبرنا بأن [1]الاغريق وضعوا ايديهم على أكثر من بريق قصير من

(**) الاويستر هو نوع من المحار.

(***) كرة ـ النفاخ هي نوع من الفُ٢ريات

(١) انظر المصدر ١ ، ص ١٠ .

الحقيقة الأساسية للتطور . ثالس ، الذي عـاش من سنة ٦٢٤ الى سنـة ٥٤٨ ما قبل الميلاد ، نظر الى الحياة السابحة في بحر إيجة الازرق وأعلن ان المـاء هو الأم التي خرجت منها كل الأشياء والتي بواسطتها توجـد) . ونحن لا نعلم أين هي الاشارة الى فكرة التطور في هذا الكلام ؟ ان كل الأشياء الحية تحتـاج الى الماء ، وهذه احدى حقائق الوجود ، وهي تقول هـذه الحقيقة التي عـرفها الانسـان من ملاحظاته البسيطة عـلى مر التـاريخ ، سـواءاً قبل الاغـريق أو بعدهم . و (دي كـايوكس) هـو الآخر يقـول ([1]لقد رأينـا سابقـاً في بلاد الاغـريق القـديمـة ان امبادوكلس حمل فكرة الوحـدات المتفرقـة ـ الأطراف ، والـرؤوس ، والقرون ، والعيون ـ التائهة التي تتحد بالصدفـة لتكوين الأشكـال الوحشيـة ، والتي حُذِف كثـير منها بعـد ذلك بـواسطة الحيـاة . وكان هـذا أول اقتراح لفكـرة الانتخـاب الطبيعي ، الذي التُقِطَ مرة اخرى بعدئذ من قبـل دارون) . يا لهـا من سفسطة وربط يـائس بين الخـرافة والعلم لتكـوين النـظريـة !! فهنـا تجتمـع التصـورات السفيهة للأطراف والرؤوس والعيون التـائهة في الـوجود بخط واحـد مع حقـائق وصِدَف التطور . ولـذا اذا كانت عنـدك فكرة في عقلك فـانه يكفي لاثبـاتها أن تفتش بين الكتب القديمة والحديثـة وتجد خـرافة أو قصـة أو شيء من ذلك ، ثم تستعمله كبرهان على صحة فكرتك . وستكـون علمياً . ولم لا ؟ أليس هـذا ما يفعله التطوريون كما رأينا ؟ ونحن نتساءل : اذا كانت خرافات الاغريق القدماء قد جعلت (دي كايوكس) يؤكد صحـة التطور فلمـاذا لم يستطع بقيـة الاغريق وأوربا كلها التي آمنت بالله أن يجعلوه يؤمن بوجود الصانع ؟

و (مُور) هي الأخرى تقول ([2]ان نظرية التطور لم تضعفها ردود الفعل الناتجة بسبب اخـطاء الماضي والتصـورات غير الصحيحـة السابقـة وفتح أبـواب

---

(١) انظر المصدر ٥ ، ص ٨٤.

(٢) انظر المصدر ١ ، ص ٤٢٨ .

المفاهيم الجديدة . بل على العكس من ذلك ، فان الحقائق الأساسية التي وضعها دارون والتطوريون العباقرة الذين تلوه قد قويت . ويستطيع العلم ان يبدأ مرة أخرى للوصول الى غايته : الحقيقة التي لا يمكن الوصول اليها ، ولكنها التقريبية ، عن الانسان ، وأصله وتطوره) . وهنا نرى انها تسمي أدلة التطور بالحقائق . ولكننا رأينا سابقاً ان كل شيء لا يتعدى آراء العلماء العاملين في هذا الحقل ، وهي مختلفة ، وليست هناك حقائق . ثم تسميها الحقيقة التقريبية التي لا يمكن الوصول اليها ، والذي يجعل كل شيء بمثابة تبذير للوقت والجهود طالما اننا نعلم مسبقاً انه لا يمكن الوصول اليها . وهذا يجعلنا نأخذ احتمالين . الاول ان الفكرة بأكملها خاطئة ولذا لا يمكن الوصول الى نتيجة من ورائها . والثاني ان الموضوع يستحيل على الانسان الوصول الى نهايته أو معرفة حقيقته فبأي حق يعرضونه للناس على أنه حقيقة الخليقة ؟

ليس هناك انعكاس :

يقول علماء التطور ان عملية تطور الكائنات الحية تسير باتجاه واحد الى التحسن فقط ، وليس هناك انعكاس في هذه العملية . (بليبترو) يذكر انه (ليس هناك كائن حي ، ولا جنس ، ولا سلالة ترجع الى أي تركيب أو حالة سابقة بالضبط . وكمثال عام ، ولكنه قوي ، وهو ان الحيتان جاءت من الأسماك ، وقد رجعت الى الماء وتبنت حالتها السمكية مرة اخرى ولكنها لم تصبح سمكاً مرة اخرى . وكل نظام او عضو أو نسيج أو خلية للحوت متميزة بوضوح عن اعضاء أي سمك موجود الآن أو كان موجوداً في السابق . . . . والعمليات الجينية للتطور كلها قابلة للانعكاس ، ولكن انعكاسها كلها الى نفس الدرجة في التقارب وضمن اطار بيئي متشابك ومتغير مسألة غير محتملة الى درجة بحيث انها من غير الممكن أن تكون قد حدثت خلال مجرد بضعة مليارات من

---

(١) انظر المصدر ١٤ ، ص ١٧ .

السنين) . أليس هذا مدهش حقاً !! عندما تأتي المسألة الى كون الطفرات الوراثية عشوائية وانها أنتجت الانسان من خلية واحدة فانها ليست غريبة ، بل على العكس من ذلك انها ممكنة جداً . ولكن عندما يصل الموضوع الى انعكاس العملية فانها مسألة غير محتملة على الاطلاق . ونحن نسأل : أليس الطفرات عشوائية ؟ أليس هم يقولون أن ٩٩ ٪ منها تعمل عكس التحسن ؟ اذن أليس من المنطقي ، عندما نقارن الـ ١ ٪ الى الـ ٩٩ ٪ ، ان نفترض بأن التطور يجب ان يتجه باتجاه الـ ٩٩ ٪؟ أليس هذا الاتجاه هو الاتجاه الذي يجب أن يكون احتماله أكبر وليس اتجاه الـ ١ ٪؟ وعلى أي حال ، أين البرهان العلمي على أن الانعكاس لا يحدث ؟ وماذا عن الصدفة ، هل هي ممنوعة هنا ؟ أم ان الصدفة لها قوانينها التي تمنعها من عكس خصائص الأجناس ؟ وماذا لو أن الجنس رجع الى نفس الظروف السابقة تماماً ، وهو محتمل جداً لأن الظروف في مناطق الكرة الأرضية ثابتة تقريباً ؟ ونحن نلاحظ هنا انه عندما تصل المسألة الى التطور فان العلماء يتصرفون مثل السياسيين . اذا أرادوها كبيرة فهي كبيرة واذا أرادوها صغيرة فهي صغيرة . وفي هذا المجال يؤكد (كورتن) بالقول ([1]ليس هناك رجوع الى الوراء ، فالتطور لا يعكس مساره) . ولكننا نسأل : لماذا ؟ أين الدليل أو البرهان أو القانون العلمي ؟ هل انه قانون بأن التطور لا ينعكس ؟ واذا كان كذلك فمن الذي وضع هذا القانون ؟ هل هو شيء آخر خارجي !! ام أن هذه صدفة عجيبة اخرى دائمةَ الوقوع باستمرار ؟

ان ما يثير السخرية في كيفة وضع التطوريون فلسفتهم وطريقة تفكيرهم يمكن ملاحظتها من المقطع التالي لـ (كورتن) عند وصفه للانسان ([2]بأنه السلالة الوحيدة التي تمتلك قوة تطورية مستقبلية كامنة ، والوحيدة التي تستطع

---

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٦٥ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ١٧٢ .

أن تعطي شيئاً جديداً حقيقياً . فالحصان والقط والخفاش الخ لا يمكنها ان تتطور الى أي شيء يختلف اختلافاً حقيقياً ، والانسان فقط يستطيع أن يفعل ذلك) .
ولكننا نستطيع أن نحاجج هذا الرأي بالقول اذا كان التطور ممكناً فلماذا لا تستطيع هذه الحيوانات أن تتطور ؟ أليس هذا رأي غريب من انسان يؤمن بالتطور ؟ اننا نرى انه اذا كان التطور واقعاً فقصارى ما نستطيع أن نقوله هو أن الانسان يجب أن يكون أكثر استعداداً للتطور من غيره لانه يدرك بوعي وجود هذا المشروع العظيم بدون أن نلغي القدرة التطورية الكامنة التي يُفْتَرَض أن تحملها جميع الكائنات الحية الأخرى . في الواقع أن الفكرة بأكملها لا تبدو كعِلْم صلب . فهذا (سميث) يلخص الموضوع بالقول ([1]اذا كان هذا التكيف يأتي نتيجة للانتخاب الطبيعي للمتغيرات التي هي في أصلها غير تكيّفية ، فان العملية لا بد وان تتضمن عدداً كبيراً من الخطوات التي كثير منها صغيرة المقدار . كما ان انتاج تكيّف مفصل بواسطة الطفرات ذات التأثيرات الكبيرة فقط ـ الطفرات العملاقة ـ سيجابه نفس الصعوبات التي يواجهها جرّاح مضطر للقيام بعملية باستعمال مِشْرَط مسيطَر عليه ميكانيكياً والذي يمكن تحريكه قدماً واحدة في كل خطوة . و « فشر » في حجة له يذكرها « لا ند» ذهب الى أبعد من ذلك ، فهو يجادل بالقول بما أن الكائنات الحية الموجودة متكيفة جيداً فان الطفرات الكبيرة مؤذية بالضرورة . ولكنني لست مقتنعاً كلياً بذلك .
وأنا اتفق أن التكيف لا يمكن انتاجه بواسطة انتخاب الطفرات العملاقة فقط ولكنني لا أرى لماذا لا نقبل أن طفرات عملاقة عرضية يمكن أن تكون قد أُدْمِجَت بواسطة الانتخاب . والسؤال هو تجريبي في النهاية) . يتضح من هذا عدم وجود الحقائق لاثبات هذه الأشياء وليس هناك اتفاق على نظريات التطور . وكل ما في الأمر هو أن العلماء يحاولون موافقة نموذج أو نماذج مهزوزة على ظاهرة موجودة، خارج نطاق العلم . والقضية لا تتعلق بالعلم أو القوانين العلمية .

---

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ١٢٥ .

والا لماذا تطور الخروف فامتلك دثار الصوف الثقيل بينما بقيت البقرة بجلد عار تقريباً بالرغم من ان كلاهما يعيشان نفس البيئة ؟ ولماذا تطورت الكائنات الحية فأصبحت مختلفة هذه الاختلاف الجذرية التي نراها بالرغم من أنها عاشت في نفس البيئة (على افتراض أنها كلها تطورت من خلية واحدة) ؟ ولماذا تطورت بحيث اننا اذا قطعنا عضواً مهماً من بعضها فان الكائن الحي يموت بينما بعضها اذا قطعنا معظمه لا يموت (كالنبات) ؟ وفي الواقع فان هناك ما لا نهاية له من الاسئلة التي يمكن أن نطرحها والتي تقف نظرية التطور أمامها عاجزة ومشلولة تماماً. و (اندري) يقول [1]"قد نظن طبعاً أن الحياة نفسها جاءت الى الوجود قبل فترة قصيرة . ولكن الظن لا يكون حقيقة . فاننا لا زلنا لا نعرف عمر جُرمِنا[*] بالرغم من أن ما يقارب أربعة مليارات سنة يعتبر تخميناً لا بأس به على أي حال . وبسبب اننا لا نعرف عمر جرمنا فاننا لا نعرف وقت وظروف بدء الحياة . . . وسواءاً حدث أول مزيج من المادة اللاعضوية وتبدَّلَ الى كائن حي بطريقة الصدفة أو بطريقة حتمية ، سواءاً لأنها « أي الحياة » لم أو لأنها كان عليها، وسواءاً انبثقت بواسطة العمليات الكيمياوية أو النشاطات الاشعاعية ، أو شرود الذهن الالهي : كل هذه نقاط قابلة للمناقشة) . ومع ذلك فان الايمان ايمانٌ سواءاً كان خطأً أو صحيحاً ، وأولئك الذين يؤمنون بالتطور يعرضونه علينا باعتباره حقائق علمية شرعية وعلينا أن نقبلها ، وهم يتمسكون به وكأنه اله .

انه تكيف فقط :

رأينا سابقاً انه لا توجد أدلة حقيقية بأن التطور قد وقع فعلاً . وليس هناك من يستطيع أن يثبت بطريقة لا جدال فيها ان سلالة معينة قد تطورت من سلالة اخرى (على الطريقة المتبعة في حقول العلم الأخرى) . وبدلاً من ذلك

---

(١) انظر المصدر ١٦ ، ص ٢١٤ .

(*) يقصد الكرة الأرضية .

توجد افتراضات كثيرة واختلافات كثيرة في الآراء . ولكن التطوريين يستمرون بأخبارنا أن التجارب تبين أن التطور لا بد وأنه قد حدث بسبب قابلية التكيف التي يمكن ملاحظتها في الكائنات الحية . فالى أي حد يذهب التكيف في إحداث التغيرات ؟ وهل انه يصل الى الحد الذي يتغير فيه الكائن كلياً الى كائن جديد ؟

(ستبنز) يعترف بان ([2]الشيء الأكيد هو أنه في الواقع ليس هناك عالم من علماء الأحياء رأى أصل مجموعة رئيسية من الكائنات بواسطة التطور . ومع ذلك ، فان أجناساً وأنواعاً قد تم انتاجها في المختبر أو الجنينة بواسطة استنساخ بعض العمليات التطورية المعروفة على أنها تحدث في الطبيعة) . ولكن ما هي هذه العمليات التطورية التي يتكلم عنها ستبنز ؟ (برتراند رسل) يخبرنا بأن ([3]حيوانات أليفة قد تم تغييرها كثيراً بواسطة الانتخاب الاصطناعي : فخلال وساطة الانسان ، أصبحت الأبقار تنتج حليباً اكثر ، وخيل السباق تركض اسرع ، والغنم تنتج صوفاً اكثر . وحقائق كهذه أعطت أكثر الأدلة المتوفرة وضوحاً لداروين عن ما يستطيع أن يفعله التطور . وانه لحقيقة ان المربين لا يستطيعون تحويل سمكة الى مارسوبيال(**)، أو مارسوبيال الى قرد ، ولكن تغيرات عظيمة كهذه قد نتوقعها تحدث خلال العصور العديدة التي يحتاجها الجيولوجيون) . ويتضح ان كل ما هو متوفر لا يتعدىٰ التكيف والتحسن وليس تغير الجنس أو النوع . وعن الزمن المطلوب لتغيير الأنواع تجيب (مُور) بالقول ([1]ان المعضلة حادة . هل استطاع الانسان الحديث أن يتطور من مرحلة الانسان ـ القرد الجنوب افريقي في الفترة الوجيزة التي مقدارها مليون سنة ؟ . . . الجواب يبدو كلا ، لأنه اذا كانت الفروق بين هؤلاء الأجداد (اي

---

(٢) انظر المصدر ٢ ، ص ١ .

(٣) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٧٤ .

(**) مارسوبيال = حيوان يحمل طفله في كيس في جسمه .

(١) انظر المصدر ١ ، ص ٤٠٣ .

انسان النياندرنال) وانسـان اليوم قـد أُخِذت بنظر الاعتبار بـواسطة الانتخـاب الطبيعي الذي يعمل بالاسلوب والسرعة التي افترضها دارون، فان المليون سنـة لا يمكن أن تكون كافية) . لذا فان القول بأن التطور حـدث بسبب الزمن ليس كافياً وليس هناك أدلة تشـير اليه اطـلاقاً ، وهـو ليس سوى افتـراض وتخمين لا أساس لهما من قبل أولئك الذين يؤمنون بالتطور ، وكانا هكذا دائماً .

ولكي نتـوصل الى الخلفيـة الحقيقية التي انبثقت منهـا فكـرة التـطور وأين تقف الآن، فاننا نستشهـد بقول (دورثي بيتنت) التي تقـول (ان[1]التطور يستمـر حولنا كل يوم، كل دقيقة، بـالرغم من انـه بطيء جـداً في العادة بحيث اننـا لا نراه . . . وكثير من الكائنات المألوفة حولنا تعتبر أمثلة رائعة على التغير التطوري الحديث والذي لا زال مستمراً . فالداندليون[*]الموجود في حديقتـك ، وسنونـو الـدار الـذي يبني عشـه تحت السقف ، والجـراثيم التي تجعلك مـريضـاً ـ هــذه الكـائنات الاعتيـادية تكيف نفسهـا باستمـرار لتلائم التغيـرات في العـالم المحيط بها . . . ولكن بالضبط ماذا يعني العلماء بالتطور ؟ انه ، وبكـل بساطـة ، يمكن أن نُعـرّفه عـلى انه العمليـة التي بواسـطتها تتغـير الكائنـات الحية خـلال أجيـال كثيرة . . . فالتطور هو تغير) . ولكن هذا أليس صحيحاً تمامـاً . فالتـطور ليس مجرد تغير ، وليس أي تغـير . فما نفهمـه هو أن التـطور صنع انسـاناً من خليـة بدائية . لذا فان وصفه بأنه مجرد تغير يعتبر سوء فهم كبير . والمسألة تصبح اسوأ عنـدما تقـول (بيتنت) ([2]ان التطور ليس بـالضـرورة يعني التقـدم) . ونحن نسـأل : اذا كانت الحـالة كـذلك كيف يكـون هناك بقـاء وديمومـة اذاً ؟ وكيف تـطورت الأنواع الـراقية من الأنـواع الدنيـا ؟ دعنا نـرى قولهـا التـالي ([3]ولكن

---

(١) انظر المصدر ٩ ، ص ٩ ـ ١٠ .

(*) نوع من النبات .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ١٧ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ١٧ .

مقيـاس نجاح التـطور في الواقـع ليس كم معقد أو كم ذكي أو كم جميـل يصبح الكائن الحي ، ولكن المهم هو هـل سيكون قـادراً على البقـاء اليوم ويتـرك نسلاً غداً ام لا . والتغيرات التطورية تقـود الى التكيف لبيئة معينـة في زمن معين) . اذن فان التطور هو التكيف . ولكن هل هو كذلـك ؟ اننا نـرى خلطاً وتشويشـاً كثيراً هنا . فنحن نفهم التطور ، كما يُعرَض علينا بـواسطة علماء التـطور ، على انـه شيء آخر ليس مـا تقولـه (بيتنت) اذا كانت الخليـة البدائيـة قـد أصبحت انساناً . والمتتالية التي يتضمنها تصريحها يمكن تلخيصها كما يلي :

تغير ← تكيف ← تطور

ولكننا نفهم التطور والتكيف كما يلي (بموجب ما يُعرَض علينا) .

تغير ↓↑ تكيف } ← ليس ← تطور

ذلك لانه اذا كانت الخلية قد تطورت الى انسـان فان التـطور يخلق اشياءاً جديدة أفضـل من سابقتهـا بالضـرورة . أي انه انتـاج لظواهـر جديـدة لم تكن موجودة من قبـل ، وهو تغـير نحو انتـاج خصائص اكـثر تطوراً في الاتجـاه الذي يسـاهم في تكـوين سـلالات جـديـدة متـطورة ، أي مخلوقـات أكـثر تـطوراً . فالتطور ، كما يقال ، حَوَّل خلية الى الانسان ، وبنظرية كهذه فانه ليس صحيحاً أن نساوي التطور مع التغير المجـرد ، والذي يُستقـرأ منه ان أي تغـير في الكائن الحي يصبح تطوراً ، ثم يُستَنْتَج ان قابلية الكائنـات الحية عـلى التكيف للمحيط هو تطور . لعمري ماذا حدث للفكر !! فلو كان التطور أي تغير مجرد فان الخلية لن يمكنهـا أن تصبح انسـانـاً مـطلقـاً . ان التكيف يختلف عن التـطور اختـلافـاً جذرياً . ويبدو لنا ان المتتالية الآتية تنطبق بصورة أفضل من المتتالية السابقة :

التطور ← حدوث تغيرات جديدة تخلق شيئاً اكثر تطوراً لم يكن موجوداً من قبل .

بينما :

التغير ← التكيف .

لذا فان التطور ليس أي تغير . والتطوريون يتكلمون عن التكيف وكأنه تطور ، والعكس بالعكس ، والذي يقودهم الى اجراء تجاربهم عن التكيف ويعتبرونها تطوراً . وواضح أن هناك خلطاً وتشويشاً حول الموضوع . فمفهوما التطور والتكيف يُستعملان بأسلوب متبادَل لاعطاء نفس المعنى . ولكن الحقيقة ان العمليتان ليستا نفس الشيء . لأن التكيف هو التغيرات التي تحدث للكائن الحي لتمكينه من مقاومة الظروف البيئية ولا يتغير الجنس الى نوع آخر ، بينما التطور هو التغير الذي يخلق كائناً جديداً . وفي الواقع ، فان فكرة التطور بأكملها تُخْتَزَل الى التكيف . و (بيتنت) تخبرنا بأن (⁽¹⁾التكيف الى بيئة معينة يجب أن يكون توافق وسطي . فالعنق الطويل عند الزرافة قد يعني أن الزرافة تستطيع أن تصل الى الغذاء غير المتوفر بالنسبة للآخرين ، لذا فانها تزيد من امدادات الغذاء لها ، ولكنها ايضاً تسبب مشاكل للزرافة . فقلبها يجب أن ينبض بقوة أعلى لكي تستطيع كمية كافية من الدم أن تصل الى دماغها ، وقد لا تستطيع أن تركض بالسرعة التي تركض بها قريناتها قصيرة ـ الأعناق . ولذا فانه من الأفضل الكلام عن البقاء للصالح وليس الأصلح ، لأن الأصلحية هي توافق وسطي دائماً ، وما يكون صالحاً اليوم قد يكون أقل أصلحية غداً) . ولكن اذا كان اكتساب شيء معناه خسارة شيء آخر فان الخلية لن يمكن لها أن تصبح انساناً . وعلى كل حال ، ان القول بأن الصالح يبقىٰ وليس الأصلح معناه القول ان الأدنى يستطيع البقاء أفضل من الأرقى لأن الأصلح يتضمن

---

(١) انظر المصدر ٩ ، ص ٧ .

الصالح بالتعريف ويجب ان يكون أكثر تطوراً منه . وهـو بمثابـة القول بـأنه ليس هناك تطور في الواقع .

وعنـدما نتكلم عن التكيف فمن الـواضح انـه لما كـانت الظروف والمـواد الغذائية متغيرة من منطقـة الى اخرى عـلى سطح الأرض فـان التكيف ضروري بـالنسبة للكـائنات الحيـة مهما كـان أصلها سـواءاً تـطورت من خليـة ام ان الله خلقهـا ، فهي في كلتا الحـالتين تحتـاج الى قابليـة التكيف للظروف لـلاستمـرار بالحياة . واذا كـانت قد خلقهـا خالق فـان هذا الخـالق بالتـأكيد سيضـع قابليـة التكيف فيهـا . ولا نحتاج أن نجـري تجارب مختبـرية لكي نـرى هذا التكيـف ، فنحن نستطيع رؤيته في انفسنا . وكل ما نحتاجه هو قليل من التمارين الرياضية لنرىٰ كيف تنمو عضلاتنا أو نعرّض أجسامنـا الى الشمس لنرى كيف يتغـير لون بشرتنا . أليس هذا تكيف للظروف والبيئة ؟ ولكن هل يمكن أن نسميه تطوراً ؟ والتكيف ليس عمليـة عشوائيـة لأن الكائن الحي اذا وضـع تحت نفس الظروف فانه سيعاني من نفس التغيرات في كل مرة . فالجلد المعرض الى الشمس يصبح أغمق لوناً دائماً ، وقابلية التعرق تزداد دائماً في الأجواء الحارة . ولو كان التكيف عشوائياً لكانت التجارب مـع الحيوانـات والنباتـات تعطي نتـائج مختلفـة في كل مـرة ، ولما كـان تحسين أي نـوع من النباتـات أو الحيوانـات ممكناً . فـان تحسين خصائص الحيوانات والنباتات لاعطاء انتاج أوفر لـدليل صـارخ على أن التكيف يتبع قوانين ثابتة .

ونحن لا ننكر أن نظرية التطور نبهت الانســان الـى القابليـة الموجـودة في الكائن الحي للتحسين فيما لو تحسنت ظـروف المعيشة والغـذاء التي هي جزء من قـابلية الكـائن الحي على تحمـل الظروف والتكيف للبيئـة ، على ان ذلـك كـان نتيجة عرضية لم تقصدها النظرية ولكن استقرأها علم الاحياء من نظريتي التطور والوراثة ، واستعملهـا لتحسين نسـل كثير من الحيـوانات والنبـاتات ممـا ادى الى تحسين هذه الأنـواع وانتاج المـواد الغذائيـة بصورة أوفـر . ولكن علماء الأحياء لم

يتمكنوا من تبديل احدى هذه الحيوانـات أو النباتـات من نوع الى آخـر لذا فـان تحسينات كهذه للكـائنات الحيـة لا تقودنـا الى الاستسلام بـأن النظريـة صحيحة (وهي النقـطة التي يحـدث فيهـا الخلط بـين التـطور والتكيف) . وحتى بـدون مساعدة نظرية التطور فان علم الاحيـاء بامكـانه أن يصـل الى نفس النتيجة عن طريق آخر لأن خاصية التكيف موجودة في الكـائن الحي مهمان كـان أصله (كما قلنا) . ولا نحتاج الى نظرية تخبرنا بذلك. فالفلاح الحافي القدمين تكون أقدامه عـريضة ولكن أطفـاله لا تكـون أقدامهم عـريضة ابـداً اذا لم يعملوا في الأرض حـافي القدمـين . ولكن التطوريـين ، ومنذ البـدء ، يستعملون خاصيـة التكيف المـوجودة في الكـائن الحي لاجراء تجـاربهم التي تثبت لهم في كل مـرة اعتقـادهم بالتطور ناسين بأن كل ذلـك يمكن أن يفسر بتفاسـير أخرى لا تقـل منطقيـة عن تفسيرهم ان لم تكن أكثر منطقية .

استنتاج :

قمنـا بدراسـة وتمحيص لنظريـات التطور المختلفـة والآراء السـائـدة بـين العلماء ، والمتعلقـة بها ، فـوصلنا الى استنتـاج انه لا تـوجد نـظرية واحـدة يتفق عليهـا العلماء أنفسهم ، وليست هنـاك أدلـة علميـة كـافيـة تسنـد أي من هـذه النظريات . وبصورة عامة فان هذه النظريـات ليست سوى آراءاً لأولئـك الذين يطرحونها . وجميع الأدلة التجريبية المتوفرة تخص تكيف الكائنات الحيـة للظروف والبيئة وليس تطورها من نوع الى آخر. وليس هناك أحد يستطيع أن يؤكد بدون شـك ان التطور قـد وقع فعـلاً ، ولا يوجـد من يستطيـع أن يعطي اي بـرهـان عليه .

وأحـدث النظريـات تجمع بـين كل من الـطفرات والانتخـاب الطبيعي ، وتزعم أن كليهما مسؤولان سوية عن التطور . ولكن كلا من هاتين النظريتين تم البرهان على فشلها فيما لو أخذت لوحدها . ولـذا فان جمعهـما معاً لا ينقـذ فكرة التطور .

ويتضح ان العلماء يخلطون التكيف مع التطور ويعتبرون التكيف تطوراً ، ولكنهما في الواقع مسألتان مختلفتان . فالتكيف موجود في الكائنات الحية كـوسيلة دفـاعية ضـد الظروف القـاهرة ولكنـه لا يسبب تغير الكـائن الحي من نـوع الى نوع آخر .



الفصل السابع

تحليل بعض المفاهيم الموجودة في نظرية التطور :

سوف نتطرق في هذا الفصل الى بعض الظواهر التي نلاحظها في حياتنا اليومية ، أو التي تزعمها نظرية التطور، ونحاول تحليلها في محاولة للوصول الى فهم أعمق لكيفية تطبيق مفاهيم التطور عليها ، وفيما اذا كان باستطاعة نظرية التطور اعطاء تفسير مقبول لها .

الغاية من التطور نحو الأرقى :

ان المنطق العقلي يملي علينا القول انه لكل عمل غاية وهدف اذا كان هذا العمل متوخياً نتيجة أفضل . واذا لم تكن هناك غاية فان ذلك العمل لا يتوخى نتيجة ويصبح عبثاً وتفريطاً في الوقت والامكانيات بدون فائدة . أي انه يمثل خسارة ، والخسارة نقصان . وهذا النوع من العمل ليس له وجود في هذا الكون . ذلك لانه اذا سمحت قوانين الكون لعمل عابث واحد فان ذلك معناه أن قوانينه تسمح بحدوث العمل العابث ، وهذا معناه امكانية حدوث اكثر من عمل عابث واحد . وفي هذه الحالة ، ليس هناك ما يمنع من حدوث اعمال عابثة بالعدد والنوعية التي تؤدي الى فناء الكون وتدميره . وهذا تناقض مع

وجـود الكون وقـوانينه الصـارمة التي تحـاول الحفاظ عليـه وعلى وجـوده . وهذه القـوانين لا تسمـح للخلل ان يتسلل الى أرجاء الكـون ، بل تقضي عليـه حال حدوثه ، والا لما بقي الكون في شكله هـذا وتوازنـه . وحدوث العمـل العابث يخل بعدالة الكون الذي يستند وجـوده على القـوانين العـادلة التي تسبب تـوازنه وبقاءه . فالتـوازن هو العـدالة ، ولـو لم تكن عدالـة لاختل الكـون وانتهى، أو لكان تحول الى شكل آخر متوازن تسود فيه العدالة أيضاً . لـذا فحدوث العمـل العـابث اخلال بهـذه العدالـة . والاخلال بـالعدالـة ظلم ، لأن الظلم هـو كل خـروج عن العدالـة . ولكن اذا كـانت العـدالـة هي التي تحكم فكيف يحـدث الـظلم !! فالـظلم والعدالـة متناقضـان ، والمتناقضـان لا يجتمعـان في آن واحـد ومكان واحد . وهذا قانون كوني نجده يسري على جميع ما في الكون ، وهو من بديهيات العقل الاساسية .

السؤال هنـا هو أن المـادة عندمـا تطورت نحـو الاحسن فـاكتسبت الحيـاة بموجب نظرية التطور ، فما هي الغاية التي تنشدها المادة من هذا العمل الجبـار ؟ وما الفائدة التي جنتها ؟

اننـا نرى أن الكـائن الحي يموت ويـرجع مـرة اخرى الى نفس المـادة التي تكونت خلاياه منها ولا تتغير تلك المادة بالمرور خلال الكائن الحي . بل ترجع لما كانت حتى لو مرت خلال خلايا الكائن الحي وأصبحت جزءاً منها ما لا نهايـة له من المرات، فانها سوف ترجع الى ما كانت عليه قبل الحياة في كل مرة يموت فيها الكـائن الحي ، مـادة لا حـراك فيهـا ولا تختلف اي اختـلاف عن المـادة التي لم تدخل الخلية الحية أو الكائن الحي اطلاقاً . والشيء الوحيد الذي يحدث هو أنها تُستعبَـد من قبل الكـائن الحي كما نستعمـل الحصان للركـوب ، وهذا أبعـد مـا يكون من أن يسمى فائدة أو تطور . فتـطور المادة الى الخليـة الحية اذن لم يحـولها الى أفضل مما كـانت عليه قبـل الحياة . ولا تتغـير المادة الى أي شيء يختلف مثلما أن الـوجود الأول ، وبعـد الانفجار الكبـير الذي أنتـج الكون ، غـيَّر المـادة من

الذرات البسيطة الى ذرات أثقل وأكثر تعقيداً (أو طوّرها ، وليس غيّرها ، كما يرغب التطوريون أن يقولوا لصياغة تشبيه وربط هذا التشبيه مع فكرة تطور الكائنات الحية وزعم أن الكون كان ولم يزل في تطور ، ناسين ان المادة توقفت عن التطور لسبب مجهول وليس هناك تطور مستمر ، بل اننا نرى العناصر الثقيلة كاليورانيوم يحدث له عكس ما يزعمون ، فهو يشع ويتحول الى عنصر أخف هو الرصاص) . وبدلاً من التطور فان المادة استُعبِدَت وبقيت كما هي . ويبدو أن هذا العمل لا يمثل سوى ضياع في الجهد والوقت حيث تفنىٰ الحَياة التي هي الشيء الجديد وتنتهي وكأنها لم تكن ، وكل شيء يرجع الى ما كان عليه ، مادة ميتة . وباختصار ، فان الصورة العامة هي كالآتي :

مادة ← حياة ← موت ← الحياة تفنى / المادة ترجع كما كانت } كائنات حية اخرى تسير نحو « لا هدف »

ان هذا العمل يبدو عملاً عابثاً ، سواءاً من ناحية المادة أو من ناحية الكائن الحي الذي يأتي الى الوجود فقط لكي ينقل الحياة الى كائن حي آخر ، بدون فائدة أو غاية . ويبدو أن المادة والكائن الحي عابثان ومبذران للوقت والجهد باللعب بهذه الطريقة . وهذا العمل العابث لا يمكن بأي صورة من الصور أن يوصف بأنه تطور ، بل الأجدر أن لا تكون له امكانية الحدوث وأن لا تسمح له قوانين الكون الصارمة وعدالته بالحدوث .

ولكن ، وبما أن الشيء حدث ، حيث أن الكائنات الحية موجودة . اذن لا بد وأن هناك تفسيراً آخر لهذه الظاهرة العظيمة . ولا يقبل العقل المنطقي أن عملاً عظيماً كهذا لا يستهدف غاية معينة ، خاصة مع وجود التعقيدات الكثيرة للأشياء المتداخلة فيه .

تناقض مبدأ التطور مع نفسه :

لو تصفحنا الوجود في جميع أبعاده ، سواء المادة ، أو الحياة ، أو العقل ، لرأينا ان كل شيء تحكمه قوانين صارمة وفي منتهى التعقيد . ولا شيء يحدث بدون الخضوع لهذه القوانين . والقانون هو نظام ، والنظام هو نتيجة لتنظيم ، والتنظيم نتيجة لتدبير ، والتدبير نتيجة لحسابات وأخذ ما يليق ورفض ما لا يليق . وهذا معناه اختيار والاختيار تفكير والتفكير ذكاء .

واذا بحثنا عن أصل الانسان بموجب نظرية التطور فاننا سنصل الى المادة . أي أننا سنصل الى نتيجة تقول ان الانسان تطور مما هو أدنى منه . وهذه النتيجة واضحة . وبما أن الانسان يتكون من أجزاء معقدة ومنظمة ، وكل جزء من هذه الأجزاء عبارة عن نظام معقد يؤدي وظائفه وواجباته بموجب قوانين وايعازات صارمة ، أي بما أن الانسان هو مجموعة قوانين (اي أنه نظام) ، فلا بد وأنه تنظم وتدبر واختير عن تفكير وذكاء . وذلك لأنه ، وكما قلنا ، سابقاً ان الاختيار عملية تتطلب ذكاءاً . الا ان نظرية التطور تقول ان الانسان جاء مما هو أدنى منه ذكاءاً وهو المادة . وبطبيعة الحال فان المادة لا تمتلك الذكاء ، ولا تستطيع أن تجري عملية التفكير المطلوبة لانتاج نظام كالانسان . وهنا نجد التناقض بين ما تقدم من بديهيات عقلية (والتي تُعْتَبَر من نتاج التطور) وبين مبدأ التطور . فأيهما نأتمنه بأن يكون الطريق السليم المؤدي الى استنتاج أصل الانسان ، هل هو الذكاء ؟ أو ما هو أدنى ذكاءاً من الانسان ، وهي المادة ؟ .

وللوصول الى الجواب الواضح ولكن بطريقة أقل وضوحاً ، نقول (وباستعمال لغة التطور نفسها) ان الانسان قد تطور الى الاحسن فامتلك العقل ، وهذا العقل يمتلك بديهيات مسلم بها ويعتمد عليها في جميع الاستقراءات العلمية التي أوصلت الانسان الى جميع أنواع المعرفة . ومن هذه البديهيات العقلية مبدأ عدم التناقض ، والذي معناه استحالة اجتماع المتناقضَيْن

في شيء واحد وفي آن واحد . وهذه البديهية (او القانون العقلي) لا بد وان تكون أرقى ما وصل اليه العقل ، والا فليس هناك تطور ، حيث اننا اذا قبلنا مبدأ التطور فاننا نقبل ان ما هو موجود الآن يجب ان يكون أرقى شيء . اذن هذا القانون العقلي قانون راقٍ لأنه احد قوانين العقل الراقي . لذا نحن نستند على هذا العقل الراقي وقوانينه الراقية في اجراء الحكم على الأشياء (وبضمنها التطور نفسه) وحكمه أفضل الأحكام وأرقاها . ونحن تطورنا الى عدم قبول اجتماع المتناقضَيْن ، ونحن لسنا سوى النتاج الأخير للتطور .

ماذا يقول لنا عقلنا الراقي عن مبدأ عدم التناقض ؟

انه يقول ان ما هو أدنى ذكاءاً لا يمكن أن يصنع أو يكتشف ، أو يخترج ، أو يفهم ، ما هو أذكى منه لأن في ذلك تناقض . فهو ان لم يكن الاذكى فسوف لن يعرف الاذكى (لذا فان المثل يقول : « انه يتطلب اثنان لفهم شيء واحد » ، حيث يجب أن يكون مثله على الأقل لكي يفهمه) ولذا سوف لن يستطيع ايجاده .

وأما اذا كان يعرفه فهو الاذكى ولا يمكن أن يكون ما يصنعه أذكى منه . وبكلمة اخرى ، اذا عَرَف الأذكى فلا يمكن أن نقول انه أقل ذكاءاً لأن ذلك معناه اننا عرّفناه أولاً بأنه لا يملك قدرة معينة ، ثم استتبعنا ذلك بالقول : ولكن مع ذلك انه يملكها ، أين انه يملكها ولكن لا يملكها في الوقت ذاته ، وهذا تناقض لا يمكن قبوله كما تقدم . لذا فان القول ان المادة انتجت الانسان الذي هو أرقى منها غير مقبول لانه تناقض . فنحن نقول ان المادة لا تمتلك قدرة الانسان لأنها أقل رقياً منه ولكن بنفس الوقت هي التي صنعته . فهي لا تمتلك قدرة الانسان ولكنها تملكها ، أو تملك أكبر منها ، في الوقت ذاته ، وهذا تناقض لا يمكن قبوله . فاما أن تكون المادة لا تمتلك القدرة ، وفي تلك الحالة لا تستطيع ايجاد الانسان الذي هو أرقى منها . أو انها تمتلك القدرة ، وفي تلك

الحالة لا يصح القول ان الانسان أرقى من المادة وتطور منها . وهذا معناه ليس هناك تطور .

وهذا الاستنتاج ينطبق على القول بتطور اي كائن حي الى ما هو أرقى منه ، والذي معناه التناقض .

مبدأ عدم التناقض :

ان مبدأ عدم التناقض يجب ان يُقبل من قبل الذين يزعمون التطور لأنه ، وبموجب نظريتهم ، النتاج الأخير (لحد الآن) للتطور لأنه أحد قوانين العقل البشري الذي هو أرقى من غيره . وبما ان هذا القانون هو أفضل وأرقى ما توصل اليه التطور ، فان القول بامكانية التطور الذي أدى الى ايجاده معناه القول بامكانية تطوره من نقيضه لانه لا بد وانه تطور من شيء أدنى منه ، والشيء الوحيد الذي أدنى منه هو نقيضة ، لأن قانوناً أساسياً كهذا اما أن يكون صحياً أو خطأ . اي اما أنه هو صحيح واما أن نقيضه صحيح وليس هناك شيء بينهما . لذا يمكننا القول ان هذا القانون صحيح ، وهو ما يجب أن يكون حيث انه الأرقى ، في هذه الحالة فان ذلك معناه ان نقيضه وهو خطأ قد عاش لفترة من الزمن . ولما كان النقيض هو نتاج للتطور أيضاً فان ذلك معناه ان التطور انتج مبدأ خاطئاً ، ولا يمكن للخطأ أن يوصف بأنه تطور ، ولا يمكن أن يكون أرقى من أي شيء آخر (وهذا الشيء الآخر لا بد وأنه عاش قبله بموجب التطور) . وكذلك لا يمكن قبول ان الخطأ انتج الصحيح (فيما لو قيل ان هذا القانون الأساسي تطور مما هو أدنى منه) واذا كان مبدأ عدم التناقض خطأ فان التطور سوف لن يكون له أي معنى لأن انتاج الخطأ هو الرجوع الى الوراء وليس الى الامام . في جميع الحالات نستنتج انه ليس هناك عملية تطور نحو الأرقى ، واذن لا بد وان هناك تفسيراً آخر لحل التناقض .

ان مبدأ عدم التناقض قانون مهم جداً وهو الذي أوصل الانسان الى ما

لديه من معرفة ويجب قبوله ، وبموجبه نستنتج انه ليس هناك تطور . أما اذا رفضناه فيجب أن نرفض جميع أنواع المعرفة التي اعتمدت عليه . وفي هذه الحالة لا يمكن حتى التكلم عن نظرية التطور أو غيرها لأن نظرية المعرفة سوف تنهار بأكملها .

الصراع من أجل البقاء :

عندما قررت الخلية ارساء مبدأ الصراع من أجل البقاء كان هناك احتمالان . أما ان يؤدي هذا الصراع الى انهاء الحياة وفنائها ، أو يؤدي الى الحفاظ عليها . وكان بالامكان أن يؤدي هذا الصراع الى فناء الحياة . أي ان الكائن الحي (أو المادة) اختار هذا الطريق بالرغم من احتمال الفناء . وذلك معناه ان الكائن الحي قرر الدخول في مغامرة كان من الممكن أن تؤدي به الى الفناء . وبديهي ان هذا ليس أسلم الطرق للوصول الى الغاية المنشودة من عملية ايجاد الحياة وانبثاقها أو الحفاظ عليها . بل ان في هذا الطريق خطورة كبيرة جداً . فالكائن الحي سلك طريقاً ليس صحيحاً ولكن محفوفاً بالمخاطر . وهذا يناقض مبدأ السير في طريق التطور نحو الأرقى .

واذا كان الكائن الحي على علم مسبق بأن العملية سوف تؤدي الى البقاء وليس الفناء ، فان ذلك ليس فقط عملاً واعياً وإنما يصحبه علم غيبي سابق للحوادث .

ولكن ، وتمشياً مع نظرية التطور والبقاء ، كان الأجدر أن يسود قانون التآخي للحفاظ على الحياة وليس قتل القوي للضعيف وسيادة القوي . لأن هذا الضعيف ربما ليس ضعيفاً ولكنه ضعيف بالنسبة للقوي وهذا لا يعني انه لا يحمل القوة في تركيبه ، كما ان ذلك لا يعني انه لا يستطيع انجاب النسل القوي القادر على خوض تجربة الحياة . وليس غريبا أن نرى أبوين ضعيفين أو قصيرين ينجبان نسلاً قوياً أو طويلاً . كما ان القصير قد يكون أكثر ذكاءاً من الطويل ،

وبـذلك فـانه أصلح للبقـاء . وهذا يبـين زيف ادعاء النـازية ، و (دارون) من قبلهم .

ونذكر هنا سوء الفهم عند بعض الناس عن ظاهرة انتاج بعض الكائنـات الحيـة لاعداد كبيـرة من النسل تفـوق متطلبـات البقـاء . وقـد رأينـا سـابقـاً ان (رسل) يقول[1] (ان جميع الكائنات الحية تتكاثر بسرعة كبيرة بحيث أن القسم الأكبر من كل جيل يجب أن يموت قبـل الوصـول الى العمر الـذي يسمح لـه أن يترك نسلاً . فـانثى سمكة القُدْ تضع حـوالي ٩,٠٠٠,٠٠٠ بيضة في السنـة . فـاذا وصل كـل النسل الى البلوغ وأنتـج سمك قُـد آخر ، فـان البحر سيصبـح صلداً خلال بضعة سنين ، بينما ستتغطى اليابسـة بطوفـان جديـد . . . . ولكننا نـرى ، في الحقيقة ، ان أجنـاس النبـاتـات والحيـوانـات ، وكقـانـون ، ثـابتـة تقريباً . . . . ولذا يوجـد ضمن كل جنس ، وبـين الأجناس المختلفـة ، تنافس مستمـر ، وفيـه تكـون عقـوبـة الهـزيمـة هي المـوت) . ونحن لا نفهم كيف تم التوصل الى هذا الاستنتاج من الملاحظات التي سردها (رسل) ، فهو يشير أولاً الى أن أكثر السمك يموت قبل البلوغ لانه يؤكل بواسطة الأسماك الأخرى عندما يكـون صغير جداً أو لا زال بيضاً . ونحن لا نرى أين التنافس ، فليس هناك تنافس على الاطلاق . لأن بيضاً لسمك كبير قد يؤكل بواسطة سمـك صغـير ، فأين يكون استنتاج (رسل) ؟ ونحن نستطيع القول بكل ثقة ، وكما يتفق معنـا كثـير من الناس ، أن معـظم هذه الأسمـاك الصغيـرة والبيـوض ، لـو لم تؤكـل لكبـرت الى أسماك لا تختلف أي اختـلاف عن تلك التي يحالفهـا الحظ في البقاء (لأنها لا تؤكـل) . ونفس الشيء يمكن قولـه عن شجرة الـزيتون (عـلى سبيـل المثال) التي تنتج ملايين الزيتون خلال فترة حياتها ، والتي تستطيع أن تملأ الكرة الأرضية بأشجـار الزيتـون خلال بضعـة سنين . فهـل أن شجرة الـزيتون تنتـج

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٧٣ .

الزيتون فقط للتنافس مع الأجناس الأخرى ؟ أم أنها تنتجه كغذاء للآخرين ؟ وماذا عن أجناس النحل التي تعتمد على نحلة واحدة ، وهي الملكة ، للانتاج ، واذا ماتت هذه الملكة فان المملكة بأكملها تنقرض ؟ ان هذه المسألة ، في الواقع ، وضعت التطوريين في نهاية مسدودة . (بليبترو) يستنتج ان[1](وضع الجنس بأكمله في وضعية حرجة وغير ملائمة كهذه في التنافس مع الأجناس الأخرى ، فان واقع أو أهمية احتمال ظاهرة كهذه ليسا مفهومين بوضوح) . انهما ليسا واضحين بالنسبة للتطوريين ولكن ليس بالنسبة لغيرهم . وهذا ، وبمعية التصريح القائل ان اعداد الأجناس ثابتة ، والذي معناه انها في توازن ، يقودنا الى القول أن جميع الأجناس تزود بعضها بعضاً بالغذاء وبنفس الوقت تحافظ على التوازن . أي ان الكائنات الحية يتغذى بعضها على بعض وهي الطريقة الوحيدة لادامة الحياة والطبيعة . وبالنسبة للأجناس التي يكون نسلها في خطر (كالأسماك) ، لأن الأم لا توفر الحماية أو العناية لأطفالها ، فان الطريقة الوحيدة للحفاظ على الجنس من الانقراض هو وضع اعداد كبيرة من البيوض . والنبات يتغذىٰ على الأرض ، أما الحيوانات فانها تتغذىٰ على النباتات وعلى الحيوانات الأخرى . ولا يمكن تصور الكائنات الحية في الطبيعة بأجمعها ان تتغذىٰ على الأرض فقط ، لأنها اذا كانت كذلك فان الطبيعة ستكون غير الطبيعة التي نعرفها . والطبيعة نظام دقيق وعجيب ، وتبدو وكأنها كائن حي واحد ، وتعمل بنظام معقد كالكائن الحي الواحد ، حيث فيها كل نوع من الأجناس يمتلك دوره الثابت الذي يؤديه كما تؤدي أجزاء الكائن الحي الواحد أدوارها المرسومة والثابتة .

الحلقات المفقودة :

لو نظرنا الى الاختلافات بين اثنين من الكائنات الحية التي تأخذ الترتيب

---

(١) انظر المصدر ١٤ ، ص ١٧ .

علـى سلم التطور لـوجدنـاها كثيـرة ، وليست اختلافـاً واحـداً . وأحيـانـاً فـان الاختلافات أكثر من التشابه . وبما ان احدهما تـطور من الآخر ، أو انهما تـطوراً من نوع ثالث انقرض بعدئذ ، فالمتـوقع أن يكـون الختلاف في نقـطة واحدة لأن كـل اختلاف يمثـل طفرة . ولكن اذا كـان الاختلاف بـين هذين الكـائنين يمثـل عشرة اختلافات على سبيل المثال ، فان ذلك معنـاه ان عشر طفرات قـد حدثت وفي كل طفرة جيل جديد قد انقرض لأسباب لم تتطرق نظرية التطور اليها ، ولا تخبرنا الى أين ذهب هـذا العدد الهـائل من الأجيـال ، ولماذا لا تـوجد آثـارها . (ل . س . ب . ليكي) يـوضح هـذه المسألـة بالقـول[1] (وبـدلاً من المفهـوم الشائع لدى العلماء المشغولين بالبحث عن الحلقة المفقودة ، فـان الحقيقة هي أن أطـوالاً كاملة من السلسلة مـا زالت مفقـودة) . ومثـال عـلى ذلـك ، الحصـان والحمـار اللذان ينتميـان الى نفس الفصيلة ، فهنـاك اكـثر من اختــلاف واحـد بينهـما ، لذا فـان الحلقة المفقـودة بينهما ليست نـوع واحد من الأجنـاس ، ولكن عدداً منها . الا أنه لا يوجد اثر لها لاي من هذه الأجناس.

أما اذا كانت هذه الطفـرات كلها حـدثت في آن واحد، كـما يقترح بعض العلماء (وطبعاً هذه الطفرات حدثت بطريقـة الصدفـة بأجمعهـا) ، فان الـوضع يصبح عسير التبرير على التطوريين وعسير البرهنة على وقوعـه . وتطبيق نـظرية الاحتمال يبين ان احتمال حدوث طفرات كهذه لكل نوع من أجناس الكائنـات الحية. أي انه اذا افترضنا حدوث الطفرات المتعددة في وقت واحد لكل جنسين متتـاليين عـلى سلم التطور عـلى أنه مقبـول واعتيادي (لأننـا لا نجـد الأجنـاس المفقودة التي تمثلها كل طفرة واحدة) ، فان قيمة الاحتمال ستتجه الى الصفر .

واذا كـانت تلك الأجيـال قـد انقـرضت فـان ذلـك معنــاه انها لا تصلح للبقاء . وهذا تناقض مع كـونها أصلح من سابقتهـا التي لا زالت باقيـة بينها هي

---

(١) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٥٨ .

انقرضت . لانه لو لم تكن سابقتها موجودة . فان ذلك معناه أن جميع الكائنات الحية يجب أن تكون منقرضة عدا الانسان (الذي هو النتاج الأخير) ، لأن الاحياء تطورت بعضها من بعض .

وقد يقول بعض العلماء ، كما رأينا في الفصل السادس ، ان الأصلح نسبياً هو الذي يبقى ، وليس الأصلح(*) . وقد رأينا كيف أن رأياً كهذا لا يمكن قبوله لأن الأصلح بالتعريف يجب أن يكون مجهزاً بخصال اكثر تمكنه من البقاء . ومثال على ذلك الانسان والأسد . فالانسان بالتأكيد ، لا يستطيع أن يعيش في البراري كما يعيش الأسد . ومع ذلك فانه الأصلح للبقاء بسبب عقله ، بالرغم من أن الأسد أصلح نسبياً من الانسان للعيش في القفر . وبدلاً من العيش في البراري فان الانسان يتحاشىٰ الظروف غير الملائمة ويبقى .

ولا بد هنا من ذكر الحلقة المفقودة بين الانسان والقرود التي يبحث عنها التطوريون منذ زمن (دارون) . حيث اعتقد العلماء ، ولفترة طويلة ، أن الحلقة المفقودة بين الانسان والقرود مجرد كائن حي واحد . وكانوا متحمسين جداً للفكرة . الا أنهم وبعد وقت طويل وجهود مضنية اكتشفوا أن الحلقة المفقودة ليست كائناً حياً واحداً ، بل عدداً من الكائنات الحية . ولو كان احدهم قد انتبه الى الاختلافات بين الانسان والقرد ، وليس فقط التشابه ، لرأى ذلك وبكل بساطة .

والآن فانه من الواضح لكل فرد أن الاختلافات بين الانسان والقرود جلية في المظهر والهيكل العظمي والقابليات والعقل والنسل الخ . و(كلين ج . ستركلاند) يشير الى انه[1](ليس هناك جدال في انه توجد حوالي

(*) الاصلح نسبياً هو الذي يمتلك بعض الخصال الافضل ، اما الاصلح فهو الذي يمتلك كل الخصال الافضل .

(1) انظر المصدر ٣، ص ٢١ .

دزينتان(*)من الحلقات في سلسلة التطور بيننا وبين البروكونسول)(**). ويـزعم التطوريون الآن أن هنـاك عدداً قليـلاً من الكائنـات الحية بيننـا وبين القـرود . ولكن في الـواقع تـوجد بيننـا وبـين القـرود اختـلافـات أكثر مما يتضمنهـا هـذا الادعـاء ، لأنه تـوجـد اختـلافـات كثيـرة بـين كـل اثنـين من هـذه الكـائنـات المزعومة . ونظريـة التطور لا تستـطيع تفسـير أسباب عـدم وجود أي أثـر لهذه الأحياء ، ولا تذكرها أو تتطرق اليها . والنظرية تتحداها صعوبة حقيقية في هذه المسألة . وقـد بينت الأدلة الحـديثة أن النـظرية بـأكملها خـاطئة . وهـذه الأدلة الجـديدة تشـير الى ان الانسان ظهـر فجـأة عـلى الأرض . وهي شيء أقـرب الى الحقيقة التي يتقبلها العقل بموجب الاستعدادات الكامنة فيه .

سلطان الزمن والتطور :

للزمن سلطان مطلق على الحياة الجديدة في الخلية . فالخلية تحيـا ثم تموت بعد فترة زمنية معينة . ولم تفسر نـظرية التـطور هذا السر المجهـول الذي جعـل للزمن هذه القدرة على افناء الحياة الجديدة المنشودة . فالخلية تكبـر وتهرم وتمـوت وتنتهي وكأنها لم تكن ، لذا فانها تضع الحيـاة في المولـود الجديـد . ولكن لماذا ان العمر يجعل الكائن الحي غير قـادر على الاستمـرار بالحيـاة بينما يستـطيع المـولود الجديد أن يعيش لفترة أطول ؟ ان نظرية التطور لا تعطي تفسيراً مقنعاً . وهـذه المسألة تصبح ذات أهمية اذا عرفنا أن نفس النوع من الأجناس يمر خلال أجيـال عديدة ، تعيش ثم تموت ، قبل أن تحدث طفرة واحدة . وبعض هذه الأجنـاس تتكون من خلية واحدة. ولكن لمـاذا ان الشغل (أي الحيـاة) يُعجِّز الكـائن الحي عن العيش بمرور الزمن ؟ ولماذا لم تتطور الخلية الاولى ، او الاحياء الاخـرى ، لكي تستطيع مقاومة الزمن ؟ .

(*) الدزينة = اثنا عشر.

(**) يقصد القرود.

وطبعاً ان الخلية الام لا تُسَلّم الحياة كلها للكائن الجديد لانها لا تموت حال انبثاق النسل الجديد . ولكنها تعطيه حياة اخرى من نفس النوع الذي تحمله ، وفي الحقيقة أنها صورة كاملة من الحياة التي تحملها ، فالنسل الجديد يحصل على نسخة من حياة امه . أي يحدث استنساخ وليس انتقال للحياة ، لان كمية الحياة ونوعيتها لا ينقصان في الأم عند مجيء النسل الجديد ، والعملية ليست انتقال كامل للحياة من الخلية الأم الى النسل الجديد .

الحياة في الخلية الأم تفنى عند موت الام ، ولكن الحياة في النسل الجديد تبقى الى وقت آخر . ويبدو وكأن الزمن والحياة متناقضان أو عدوان ، فحالما تولد الحياة الجديدة يبدأ تأثير الزمن عليها لقتلها . وهذه الظاهرة الملفتة للانتباه ، بسرها المجهول ، شيء لم يلتفت اليه التطوريون ولم يبتّوا فيه .

ونرى أيضاً أن الحياة في هذه الخلية الجديدة (التي تمثل النسل الجديد) انبثقت الى الوجود من العدم(*)(لأن الحياة فيها استنساخ وليس انتقال) ، نراها ولدت مهزومة ومستسلمة لسلطان الزمن الذي يقتلها لا محال . فلم لم تتطور باتجاه مجابهة الزمن وليس الاستسلام له والهروب امامه والاندحار ؟ ففي كل مرة تنجب الخلية نسلاً جديداً يولد هذا النسل مهزوماً أيضاً من قبل سلطان الزمن . واذا قلنا أن الكائن الحي يتطور دائماً ، فان ذلك معناه ان هذا الكائن يتطور بنفس الوقت الذي هو مهزوم فيه .

والسؤال هنا ، ما هو هذا العداء الذي يناصبه الزمن للحياة ؟ وما هو سره وسببه ؟ ولم لا يؤثر على المادة فيفنيها ولكنه يؤثر على الحياة فيفنيها ؟

لقد قطعت الخلية الحية شوطاً كبيراً في تطورها (بموجب نظرية التطور) وفي مقاومتها للظروف والبيئة حتى وصلت الى الانسان ، ولكنها تركت موضوع

(*) ليس هناك عدم بموجب تفسيرنا، (انظر الفصل الثاني عشر).

التـطور لمقاومـة الزمن واستسلمت لـه بشكل منقـطع النـظير ، فـما هـو السر في ذلك ؟ .

هناك تفسيران لهذه الظاهرة :

الأول ، ان الحيـاة استسلمت لسلطان الـزمن الـذي فـرض وجـوده عـلى الكائن الحي ووضع نـظاماً لقتله لسبب مجهـول ، ولم تستطع المـادة التي أوجدت الحياة أن تساعد تلك الحياة للتغلب عـلى هذه المشكلة . عنـدئذ يجب أن يكـون الزمن أرقى من المادة في سلم الوجود . ولكن الزمن يستمد وجوده من المادة لأن المادة عبارة عن طاقة متجمعة وتشع الضوء الذي هو طاقة ، والذي يعتمـد عليه الـزمن(**) . اي ان الـزمن أرقى من المـادة التي يستمـد وجـوده منهـا والتي يفنىٰ بفنائها . وهنا نصل الى تناقض كما هو واضح ، اذ كيف يكـون الزمن أرقى من المادة وبنفس الوقت يعتمد وجوده عليها ؟

الثـاني ، ان المادة هي التي فـرضت هذا القـانون عـلى الكائن الحي حـال انبثاقه فجعلته متأثراً بالزمن وفرضت عليـه الموت كـما فرضت عليـه الحياة . وفي هذا تناقض مع الغاية المنشودة في البقاء والتطور . ولحل هذا التنـاقض لا بد من وجود تفسير آخر لظاهرة الحياة غير التفسير الذي تزعمه نظرية التطور .

النوم والموت :

من المعلوم أن النوم فقدان للوعي وتقليل للحركة والفعاليات الحياتيـة الى الحـد الادنى، والنزول بـالحياة الى أدنى مستـوى. ويبدو أن هـذا نوع من المـوت المؤقت ، وخسارة للوقت . وكان عـلى الخلية الحيـة أن تتطور لمنعـه لا للاحتيـاج اليه . وكان على الكائن الحي أن يتـطور لاستغلال هـذا الوقت الضـائع للحيـاة والتكاثر والتطور ما دام انه ولد ليحيا لا ليموت . لماذا كان عـلى الكائنـات الحية

(**) انظر الفصل العاشر .

أن تتوقف عن الوعي (وبمعنى آخر عن العيش) الجزء لا يستهان به من عمرها؟ألم تستطع أن تتطور للتخلص من هذه الظاهرة التي هي بمثابة موت مؤقت ؟

الملاحظ ان فترة النوم طويلة جداً وتقارب نصف عمر الكائن الحي في معظم الأجناس الحية . والنوم ليس من الحياة في شيء لأن الكائن الحي غير فعال خلاله ، وبالأحرى فانه أقرب الى الانقراض لأن فقدان الوعي يجعل الكائن الحي فريسة سهلة لأعدائه . واذا كان الكائن الحي وُجِدَ ليبقى ، لماذا ينام لفترات طويلة من الزمن ؟ ألا يصح القول بانه وُجِدَ لينام (اي يموت) بدلاً من أنه وجد ليحيا طالما أن فترة النوم مساوية تقريباً ، أو أطول أحياناً من فترة اليقظة والوعي ؟ وفي هذه الحالة تصبح الحياة ناتجاً عرضياً ، وتنهار نظرية التطور حيث لا يصبح هناك موضوع لها .

أما مسألة الموت فانها سر غريب . فاذا كانت الخلية وُجِدَت لتبقى وتحيا فلم الموت ؟ واذا كانت الخلية قد وجدت لتسير بمسار يوصلها الى شاطيء السلامة والرقي لا بد وأن تكون الخطوات التي تسير فيها كلها تؤدي نحو هذا الغرض ، ونحن لا نرى كيف يكون الموت من هذه الخطوات لأنه الفناء، وهو بالضبط عكس الغاية المنشودة نحو التطور والرقي . فماذا حدث لتأخذ الخلية هذا الانعطاف الانتحاري الذي يقوّض كل الغايات والجهود المُستَثمَرة في سبيلها ؟ ويا ترى لماذا سمحت المادة بهذا الانهيار الكامل والتحول العكسي عن الغاية ؟

التوازن في الطبيعة :

الكائنات الحية متوازنة في الطبيعة بطريقة دقيقة ومحكمة بحيث لو أن نوعاً واحداً اختفى لاختل التوازن ولأدى ذلك الى الاخلال بعملية التطور والحياة بطريقة أو بأخرى . وعلى سبيل المثال ، أما ان تموت بعض الأجناس لأنها تتغذىٰ على النوع الذي اختفى ، أو ان أجناساً أخرى ستتكاثر وتطغى لأن

الجنس الذي كان يتغذىٰ عليها اختفى . وظاهرة كهـذه سوف تسبب سلسلة من التغيرات التي قد تولد وضعـاً جديـداً متوازنـاً ، وقد يكـون التغير الكـلي فيه الى الدرجة التي تنتج جنساً مهيمناً جديداً .

ان الكائنات الحية تبدوا في توازن عجيب جعلها كما هي عليه . وأكثر من ذلك انها تمتلك وسائل الدفاع عن نفسها على شكل تكيّف وما شابـه بحيث انها دائماً تحاول الحفـاظ على أجنـاسها من الانقـراض . وعلى أي حـال ، فان بعض الكـائنـات مـوجـودة منـذ مـلايـين السنـين بينـما انقـرض بعضهـا . وقـد بينت الاكتشـافات الجيـولوجيـة ان الأجناس التي انقـرضت لم تختـفِ من نفسها ولكن كانت هناك عـوامل خـارجية مسؤولـة عـن فنائهـا . والسؤال هنا : هـل ان هذا التوازن صدفة أيضاً ؟ هل أنه حظ ؟ أم أن هناك صانعاً يعين الأدوار لكل جنس من الأجنـاس للحفاظ عـلى هذا التـوازن كما هـو ، او أن هذه الأجنـاس تتطور باسلوب محدد سلفـاً للحفاظ عـلى التوازن الصحيـح والظروف المـلائمة للكـائن الحي المهم الوحيد لكي يتطور الى أرقى مستوى ، وهو الانسان ؟

وقـد يخطر عـلى البال انـه بالنسبـة للطبيعة ، أو المـادة لكي تعبّد الـطريق لـلانسان لكي يتـطور الى شيء أرقى معناه ان المـادة سخـرت كـل شيء لخـدمـة الانسـان لكي تمضي عملية التـطور الى الامـام . ويتضـح ، اذا كـانت الحـالـة كـذلك ، ان هنـاك اهتمامـاً واعياً بـالانسان بـاعتباره الغـاية المنشـودة أو الحلقة الحاضرة نحو الغاية المنشودة . ويتضح كذلك أن المادة طـورت وهيأت الـظروف لخدمة كـائن حي واحد ، بـدلاً من تطويـر كل ، أو بعض ، الأجنـاس الأخرى للاحتياط ، فـاذا لم يكتب النجاح لاحـداها فـان الأخرى سـوف تمضي بالأمـانة وتحملها .

وقد تقودنا ملاحظة التعقيد الـذي تطورت اليـه الكائنـات الحية ، سـواءاً بايولوجياً او اجتماعياً ، وكيف أن الحفاظ على الحيـاة مهم (حيث في الواقـع أن

فعاليات الكائن الحي متمركزة كلياً تقريباً على تحاشي الموت والحفاظ على الحياة) الى التساؤول عن السبب الذي جعل المادة تركز على كائن حي واحد . أم أنها كانت تعلم مسبقاً أن هذا الكائن سوف لن ينقرض !!

اذا كانت الكائنات الحية قد تطورت عشوائياً بدافع من ذاتها ، لماذا اذن وصل احدها فقط الى المستوى الاعلى (الانسان) ؟ أليس المفروض أن نرى أجناساً أخرى متطورة أيضاً كما تطور الانسان ، خاصة وانها تعيش في نفس بيئة وظروف الانسان ، أو بيئة وظروف مشابهة لها ، وليس هناك ما يمنعها من أن تفعل ما فعله الانسان ، ولكن ربما بطريقتها الخاصة ؟ فليس هناك ما يدل على أن الظروف كانت ملائمة للانسان فقط لكي يتطور . كما انه ليس هناك ما يبرر تطور الانسان وحده الى هذا المستوى المتقدم ، وليس هناك أيضاً ما يشير الى أن الانسان أوقف الاحياء الاخرى من التطور أو اعاق تطورها بشكل من الأشكال .

وراثة العلم والمعرفة :

ان العقل الواعي هو أعلى مستوى على سلم التطور . ويحتوي هذا العقل ، وبواسطة الاكتساب ، على معلومات كثيرة تسهل للانسان حياته الاجتماعية وطريقة معيشته وتعطيه أسباب الصحة والراحة . وقد تخطر على البال فكرة هي أنّ وراثة النسل الجديد لهذه المعرفة من الأم شيء جيد ومفيد . وبالتأكيد فانه يساهم كثيراً في دفع عملية التطور الى الامام وخدمة الانسانية . فلو تصورنا أن علم (نيوتن) او (اينشتاين) أو غيرهما من العلماء والفلاسفة والمفكرين تُورَث بواسطة ابنائهم ، كم كانت ستساهم في تقدم الانسان في الاتجاهات العلمية والفكرية المختلفة ؟ ولو كانت الحالة كذلك لكان عالمنا يختلف عن العالم الذي نعيشه الآن كلياً ، ولربما كنا قد وصلنا الى غزو الفضاء بصورة اكبر لفائدة الانسان الآن .

ان طفل الانسان يولد مع المعلومات الأساسية الغريزية فقط ، وفي كل مرة يقوم الانسان بتربية الطفل الصغير وتعليمه كل شيء . وفي ذلك ، وكما نشاهد ، خطورة كبيرة . حيث يتربى الأطفال وتتم برمجة عقولهم على أفكار متناقضة من معتقد لآخر ، أو من دولة لأخرى ، مما يسهل استعمالهم في الحروب والدمار ، بدلاً من أن يرثوا العلوم بصورة غريزية . ولو كان الانسان يرث العلوم كما يرث الغرائز لما تحولوا الى مجتمعات متحاربة ، بل لكانت النتيجة ، وبموجب نظرية التطور ، أن يتكون مجتمع انساني واحد كبير يسير نحو الغاية التطويرية المنشودة . ولقام النسل الجديد بطفرات جديدة في التطوير والاسراع في هذه العملية في كل مرة حيث يضيف معلومات جديدة الى المعلومات الموروثة ، بدلاً من أن يقضي حياته لتعلم ما انتج آباؤه وتبذير الوقت والجهد ، لانتاج القليل في النهاية . ولما كان العقل الواعي عند الانسان يستطيع ادراك هذه الحقيقة ، ألم يكن الأجدر به أن يسلك هذا السلوك تلقائياً كجزء من العملية التطويرية التي أنتجته ؟ فلماذا لم يسلك هذا السلوك اذا كان هناك تطور واذا كان هو نتاج لهذا التطور ، حيث عليه حمل الأمانة واعطاؤها الى الحلقة التي تليه في السلم كما فعل أسلافه من قبل والذين ادّوا الأمانة بكل اخلاص الى أن تم انتاجه ؟

وثمة مسألة اخرى تلك ان الانسان (والحيوان أيضاً) يرث العلوم والمعارف الغريزية ، ولكنه لا يرث العلوم والمعارف المكتسبة . وهذه العلوم المكتسبة انما سميت مكتسبة لأنه لا يرثها ، ونحن نرى انه اذا كان هناك تطور لكان سار في طريق تمكين الانسان من وراثة هذه العلوم أيضاً . ولا نرى من مانع في ذلك ، طالما أنه يرث المعارف الأخرى التي نسميها غريزية . بل بالعكس ان ذلك يسير بالضبط نحو الغاية المنشودة وفي طريق التطور . ولكن لم يحصل شيء من ذلك . وقد نتساءل لماذا ان المادة ، أو الحياة ، أو عملية التطور ، غفلت عن هذه الميزة المفيدة ؟

استنتاج :

نظرنا في هذا الفصل الى بعض المواضيع التي تخص الكائن الحي ، مثل غاية التطور وفكرة الصراع من أجل البقاء ، والنوم والموت ، وغيرها من الظواهر . فوصلنا الى النتائج التالية :

ـ ان نظرية التطور لا تستطيع تفسير هذه الظواهر تفسيراً مقبولاً ومعقولاً .

ـ ليست هناك أي فائدة ايجابية حصلت عليها المادة من عملية التطور ، ووجدنا ان المادة لم تكتسب شيئاً من هذه العملية بل أن الشيء الوحيد هو أنها استُعبِدَت .

ـ ان مفهوم الصراع من أجل البقاء يناقض نفسه بنفسه ولا يمكن قبوله من وجهة النظر الفلسفية .

ـ ان مفهوم التطور نفسه يحمل نقيضه فيه ويناقض بديهيات العقل الأساسية ولذا لا يمكن قبوله كمفهوم لتفسير ظاهرة الحياة العجيبة .



الفصل الثامن

الانسان والتطور :

لقد اعتقد (دارون) ان الانسان تطور تدريجياً كما تطورت الحيوانات الأخرى . وظهرت عدة نظريات زعمت أن أسلافنا كانوا كالقردة . وقادت نظرية التطور كثيراً من العلماء الى الاعتقاد بأن الانسان ليس سوى حيواناً آخر من فصيلة القرود العليا ، ولكنه اكثر تطوراً منها . وظهرت تعابير مثل « الانسان حيوان ناطق » نتيجة لذلك . ولكن الأدلة الحديثة بينت أن هذه الأفكار كانت قد طرحت على عجل نوعاً ما وبدون تروٍ .

وكان الاعتقاد بحيوانية الانسان مسألة لا جدال فيها بالنسبة لبعض الناس . (ديزموند موريس) يقول انه [1]لمن الواضح انه قرد من نوع ما ، ولكنه من نوع غريب . . . . . فمجموعة القرود التي ينتمي اليها قردنا العاري[*]ظهرت في الأصل من خزين اللبائن التي كانت من نوع آكلات

---

(١) انظر المصدر ١١ ، ١٥ ـ ١٦ .

(*) يقصد الانسان لانه ليس على جسمه شعر كثيف كبقية القرود .

الحشرات البدائية . وهذه اللبائن الاولى كانت مخلوقات صغيرة وغير مهمة وتتقفّز بعصبية في أمان الغابات. . . . وفي الزمن الغابر قبل ما بين خمس وعشرين الى ثلاثين مليون سنة ، كانت الحيوانات ما قبل القرود قد بدأت تتطور الى القرود الفعلية . . . . وبمرور الزمن أصبحت هذه الشبه ـ قرود اكبر وأضخم . وبدلاً من الركض والتقفز المرح فانها تبدلت الى المشي باستقامة ، هازة يداً فوق يد على طول جانبيها ، وقد انقرضت أذيالها) . يا لها من قصة أشبه بقصص الأطفال . فالى هذا الحد وصل بعض الناس في خيالهم بدون أي أدلة علمية تسند تصوراته هذه . ويؤكد (ديزموند موريس) مرة اخرى على حيوانية الانسان ، وان طريقة معيشتنا جاءت خلال التغيرات البيولوجية وليس الثقافية ، فيقول ([1]غاية ما يحتاجه الفرد لكي يرى انها هكذا[**]هو النظر الى سلوك جنسنا في الوقت الحاضر . والتطور الثقافي اعطانا تقدماً تكنولوجياً مدهشاً أكثر فاكثر ، ولكن كلما تعارض هذا مع خصائصنا البيولوجية الأساسية فانه يلاقي مقاومة قوية . ونحن نحني رؤوسنا بتكرار أمام طبيعتنا الحيوانية ، وضمنياً نعترف بوجود وحش معقد يضطرب في داخلنا) . وبطبيعة الحال فاننا لا نتفق مع هذه الملاحظات كلياً ، ونعتقد بوجود تفسير آخر لها . وهي تحدث في المجتمعات الأوربية ولكن لا تحدث في المجتمعات غير الأوربية كلها ، وهي تخص غرائز الانسان فقط . و (ستبنز) يؤكد ان ([2] مقارنات حديثة تم اجراؤها بين التراكيب الكيميائية لبروتينات الانسان . . . . والبروتينات المناظرة لها في القرود . وهذه المقارنات بينت ان الانسان والشمبانزي والغول تحمل تشَابهاً قريباً من بعضها بعضاً بالنسبة لهذه المواد الكيميائية الأساسية للجسم . . . . وهذه الأدلة تسند بقوة النظرية القائلة انه في مرحلة ما من

---

(١) انظر المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(**) اي حيوانية .

(٢) انظر المصدر ٢ ، ص ١٦٤ .

تطورهم كان اسلاف الانسان حيوانات تشبه القرود . . . . وهذه النظرية توافق تماماً أدلة المتحجرات الحديثة) . وهكذا فان العلماء يصنعون نظريات عملاقة كهذه ، بالرغم من قلة أدلة المتحجرات ، فقط لكي يقوم البرهان على خطئها بعد وقت قصير . و (ستر كلاند) يقول ([1]ولكن نِتَف[*]الحقائق في حقل علم طبائع البشر وحدها من التفاهة بمكان بحيث لا يمكن جمعها لاعطاء أي فكرة عن الصورة الكبيرة مهما دورنا هذه النِتَف أو مططناها) و (ل . س . ب . ليكي) يشير الى أنه ([2]توجد مدرسة فكرية واحدة تعتقد أن الانسان ، وخلال مسار تطوره ، مر خلال مرحلة كانت فيها أيديه طويلة ، كتلك التي تلاحظ في الشمبانزي والغول ، ولكن الأدلة التي تسند هذا الرأي بدأت بالانهيار) .

الأدلة الحديثة الآن تبين أن التطور التدريجي لم يحدث ابداً . فالأنواع تظهر على شكل سلالات كاملة وليس ككائنات حية منفردة تتطور ، وأسلافنا لم يكونوا قردة أو ما شابه ذلك . ولم يستطع العلماء أن يجدوا أي أدلة تسند الرأي القائل أنهم كانوا قردة . وقد ذكرنا سابقاً ان (رُوث مُور) تعترف ان ([3] كل واحد من هذه المجموعات (اي مجموعات الأجناس) تختلف عن جميع بقية المجموعات . وتوجد لا استمرارية ، أو فجوة ، بين حتى أقرب التجمعات) . و (كودمان) يقول ([4]من ناحية الانسان الحديث، فان تغيرات جذرية كهذه تفتح الطريق أمام نظريات أخرى لأصل الانسان ، ضمن اطار التطور أو غيره . . . والتخلليون[**]يقولون ان الانتخاب الطبيعي لا يلعب أي

---

(1) انظر المصدر ٣، ص ٩ .

(*) جمع نِتفة ومعناها الشيء القليل .

(2) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٧١ .

(3) انظر المصدر ١ ، ص ٢١٩ .

(4) انظر المصدر ١٠ ، ص ١٧ و١٥٠ .

(**) قسم من العلماء الذين يقولون ان التطور يتكون من ظهور الاجناس الذي تتخلله فترات طويلة بلا تطور .

دور في أصل الأنواع ولكنه يدخل في مرحلة لاحقة للتأثير على نجاحها البيئي . وبكلمة أخرى فان ضغط المحيط ينتخب جنساً بأكمله لكي يموت أو ينتعش ، وليس كائنات حية منفردة كما أكد « داروين » . وفي هذا الرأي ، فان الانتخاب الطبيعي للأفراد يُنظَر اليه على انه يسبب تغيرات تطورية صغيرة فقط ضمن الجنس « تطورات مجهرية » ، وليس التغيرات الكلية التي تسبب بروز جنس جديد «تطورات عملاقة».

وفي الوقت الحاضر فان على العلماء أن يتعاملوا مع مشكلات أخرى لنظرية التطور كانوا قد ورثوها من سابقيهم . (كلين ج . ستركلاند) يعترف [1]بأننا اليوم لسنا متقدمين كثيراً . فنحن عندنا أسلاف شبه ـ قرود في جانب واحد من الفجوة وعندنا أنفسنا في الجانب الآخر . وهذه الفجوة مقدارها عشرون مليون سنة) . و (بيجورن كرتن) يشير الى ان [2] بقايا الكائنات التي شبه الانسان ـ القرد قليلة ، وبصورة عامة فانها متأخرة أيضاً من ناحية الزمن الجيولوجي) . وبسبب هذه الحالة من ندرة أدلة المتحجرات ، وبسبب ايمان العلماء بتطور الانسان من القرود فقد ظهرت نظريات عديدة ، ثم تبين أنها كانت كلها خاطئة . وقد بينت أدلة المتحجرات أن الانسان الحديث ظهر على الأرض منذ ما يقارب الـ ٣٥٠٠٠ ـ ٤٠٠٠٠ سنة فقط. وقد شكل ذلك مشكلة حقيقية بالنسبة للتطوريين ، ولذا فقد غير كثير منهم آراءهم . و (رُوث) تشير الى أنه [3]حتى في المراحل الاولى فان الطريقة الجديدة في اختبار التاريخ «بواسطة الكاربون ١٤ او الاشعاع الكاربوني» اشارت أيضاً الى

---

(١) انظر المصدر ٣، ص ٨ .

(٢) انظر المصدر ١٢ ، ص ٤ .

(*) الأدلة الحديثة جداً تبين أن الانسان موجود على الأرض لفترة اكثر من ذلك (حوالي ١٥٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠٠ سنة) .

(٣) انظر المصدر ١ ، ص ٨ .

أن الانسان أحدث مما تجرّأ العلم على أن يتصوره . . . . وقد أشارت التجارب الفذة ان الانسان قد يكون تغير بسرعة اكبر مما اعتقد دارون) . ومن ثم فانها تعطي صورة التطور بوضوح كما يلي : ([1]اذا كان الانسان موجوداً لفترة قصيرة ، فهل كان باستطاعته أن يتغير بالمقدار الكبير الذي تبينه المتحجرات ؟ هذا السؤال أساسي ، وفي النهاية فان نظرية التطور أما أن تقف او تنهار بالاجابة عليه . فأما أن يكون التطور ممكناً في الوقت الذي استغرقه ، أو انه مستحيل) . و (بيجون كورتن) يجيب على سؤال كهذا بالقول ([2]ان ظهور الانسان الحديث في أوربا قبل حوالي ٣٥٠٠٠ سنة كان فجائياً ، وليس هناك انتقال معروف من انسان النياندرتال الى أولئك الذين هم أناس حديثو - الهيئة) . ولذا يتضح أنه ليس هناك تطور . و (ستركلاند) يؤكد أنه ([3]بسبب الطريقة التي يعمل بها التطور فان تطور جنسنا بالمقدار الذي تطورناه عبارة عن قضية مستحيلة من الناحية الجسمية اذا كان خط أسلافنا المباشر قد عاش في ظروف اعتيادية . وهذه الحقيقة يجب أن تكون قضية لا جدال فيها ، وان رفض قبول هذه الحقيقة كان سبب التشويش الكثير الذي اكتنف عصورنا التي ما قبل التاريخ) . و (مُور) تستشهد بالدكتور (شيروود ل. واشبورن) بالقول ([4]ان هذا الوضع الجديد قد أطلق عليه اسم التفاهة الرياضية والاحصائية . لانه اذا كان كل واحد من الاختلافات بيننا وبين الانسان - القرد مبنية على أساس عنصر منفصل من التركيب الجيني للفرد فانه في الواقع سيكون من المستحيل تغيير الانسان - القرد الى الانسان الحديث في الزمن الذي تشير اليه السجلات الفعلية) . ومع طرح هذا النص ، وليس لسبب علمي ولكن لمجرد

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢١٩ .

(٢) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٢١ .

(٣) انظر المصدر ٣ ، ص ٢٢ .

(٤) انظر المصدر ١ ، ص ٤٠٣ .

الايمان بالتطور ، فان (مُور) ، وكباقي العلماء ، تتمسك باعتقادها بانه كان باستطاعة الانسان ان يتطور خلال ٤٠٠٠٠ الى ٥٠٠٠٠ سنة فقط ، والذي هو وقت قصير جداً في الواقع ، فتقول ([1])اذا كانت هناك فعلاً تغيرات جينية قليلة ضرورية ، واذا كان التطور قد تحرك بسرعة احياناً ، فان التقدم من الانسان ـ القرد الى الانسان ليس غريباً أن يكون قد وقع خلال مليون سنة ، وليس غريباً أن تكون الترتيبات النهائية قد حصلت خلال الخمسين الف سنة الماضية) . ولكن المشكلة هي أن التغيرات الجينية ليست قليلة ، فالفروق بين القرود والانسان فروق أساسية وجذرية . ولكن مع ذلك فان العلماء يؤمنون بالتطور ، لأنه بدون التطور فانهم سيقفون في نهاية مسدودة . ولذا فان الأمور يجب تبريرها ، ولكن سواءاً كان هذا التبرير صحيحاً أم خطأ فانها مسألة أخرى . و (مور) تقول ([2])ولذان فان واشبورن اقترح طريقة للخروج من مأزق الزمن . فتغيرات جينية قليلة نسبياً مع الانتخاب الطبيعي بامكانها تحويل الانسان القرد ذي الخطوات الحرة والدماغ الصغير ، الى أناس اليوم الحُرّي الخطوات أيضاً ولكن بأدمغة أكبر . وبهذه الطريقة كان انجاز التطور خلال فترة أقل مما يسمح به الحساب الجديد للزمن ممكناً) . وبطبيعة الحال فانها ليست متأكدة من ان التطور قد حصل فعلاً . ولا يمكنها أن تكون متأكدة على أي حال . والمسألة ليست مسألة دماغ كبير فقط ، لانها ليست مسألة أكوام من الخلايا الحية . فالفيل أضخم من الانسان ولكن مع ذلك فان الانسان اكثر تطوراً من الفيل . ان المسألة هي مسألة القابلية ، ومسألة العقل كعضو فعال ، وليس كمية أكثر أو أقل من اللحم . وكما سنرى قريباً ، فان (كودمان) يلفت الانتباه الى أن الذي يصنع الانسان ليس حجم الدماغ ولكنها القابليات العقلية .

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٤١٤ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٤١٢ .

و (كورتين) يجلب الانتباه الى حقيقة معاكسة لـرأي (مُور) . فهـو يقول ([1]في تلك الحالة يجب أن يكون الانسان القديم شبيهاً بالقرود أكـثر فأكـثر عند رجوعنا بالزمن الى الوراء . ولكن لدهشتنا انه لم يكن كذلك . وفي الحقيقـة فان مصـطلح « الانسان ـ القـرد » خادع لتصـوراتنا عن الانسـان القديم . . . . وفي الواقع نحن نشك بأن هيئة أسلافنا كانت عـلى شكل مـا يطلق عليـه القرد عـلى الاطلاق . . . . وأمامنا الخطوط العريضة لمشكلة رئيسية . ففي كل مكان تقريباً نجـد انسان النيـاندرتـال والانسـان القـديم كـلاهمـا استُبـدلا فجـأة بـالانسـان الحديث . والأكثر من ذلك ، فان هؤلاء الغـزاة الجدد يمتلكـون خصلات نـوعية مختلفة ، والتي لا بد وأنها استغرقت وقتاً ليس بـالقصير لكي تتـطور . ولكن اين بدأ أصل الانسان الحديث ؟) . وتعترف (رُوث مُور) انه ([2]على ضـوء الفهم الجديد هذا ، فان كثيراً مما كان يُدرَّس عن زمن الانسـان وتطوره يجب أن يتغـير الآن . فالكتب الجديدة يجب أن تكتب والمناهـج الدراسيـة يجب أن تراجـع) . ومـرة أخرى تنهـار نظريـة التطور . ولـذا فقد ظهـرت نظريـات جديـدة بينها تم التخلي عن النظريات القديمـة . و (ليكي) يقول ([3]انني شخصياً، بالاشتـراك مع الكثير من الآخـرين ، لدي اعتقـاد قوي ان الانسـان ربما تـطور مباشـرة من كائن ذي أربع سيقان الى كائن ذي ساقين بدون تطوير ايدي اضافية طويلة) . ولكـن (كورتن) لا يتفق مع ذلك ، فهو يقول ([4]احدى النظريات تقتـرح ان الانسـان الحديث تـطور محلياً من انسـان النيانـدرتال في الشمـال ، ومن انسـان السولو وتل ـ بروكن في الشمال. وقد يمكن وضع نظرية لذلك ، ولكنني لا اجد

---

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ٤ و١٢٧ .

(٢) انظر المصدر ١ ، ص ٤٢٧ .

(*) يقصد الانسان الذي غزا سهول الأرض .

(٣) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٧١ .

(٤) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٢٧ .

بُدّاً من الاعتراف بأنني لا أرى ذلك مقنعاً . فالتغير كبير جداً والزمن قصير جداً وليس هناك ما يشبهه في الأزمان الغابرة أو في ترتيب سلالات التطور) .

لقد وقع العلماء بأخطاء جمة بسبب اسراعهم في طرح نظرياتهم التي تبيّنَ مرة اخرى ، وأخرى ، انها خاطئة . وقد اخطأوا حتى في التعرف على المتحجرات . و (واشبورن) يذكر ان انسان النياندرتال نفسه قد لا يكون سوى غولاً أو قرداً . و (مُور) تذكر ان الدكتور واشبورن بنى مخيمه في منطقة القرود لدراسة العضلات والعظام في القرود ، فوجد أن ([1]بعض الجماجم محدَّدة بحافات عظيمة عبر الجبهة ، وهذه كانت حافات عظيمة حول العيون ، وأنف عريض ومسطح جداً . ولكن بعضها كان يمتلك منحنياً ناعماً . « ولو ان هذه الجماجم كانت قد وجدت كمتحجرات »، يقول واشبورن ، « لكانت مغرية للفرد لان يسمي الأولى رجل بكين ـ القرد والثانية انسان حديث . ولكنهما في الواقع كانتا من نفس الجنس وعاشتا في نفس الوقت تماماً) . و (ليكي) يقول ([2]لو نفحص ونقارن عدداً من الجماجم التي تعود الى بعض أجناس الانسان الحية المعروفة أكثر من غيرها فاننا سوف نندهش في الحال للاختلافات العظيمة بينها ، سواءاً نظرنا اليها من الجوانب أو من الامام أو من الاعلى . ويمكن ملاحظة ان حُجْرة الدماغ أو القحف تتغير تغيراً معتَبَراً بين أمثلة نموذجية من جنسين مختلفين ، بينما يوجد اختلاف بدرجة أقل بين جماجم الأفراد الذين ينتمون الى نفس الجنس الواحد) . و (كرتن) يؤكد على ان ([3]الانسان لم يرتقِ من القرود) . وكذلك يقول (كودمان) ([4]يوجد تداخل معتبر في المدى الجمجمي بينَ انسان النياندرتال والانسان الحديث وفي الحقيقة بعض أدمغة

---

(١) انظر المصدر ١ ، ص ٤٠٩ .

(٢) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٦٣ .

(٣) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٥٩ .

(٤) انظر المصدر ١٠ ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

النيـاندرتـال كانت أكبـر من دماغ الانسـان الحديث . . . . والقفـزة النـوعيـة في قابليات الانسان الحديث بالمقارنـة مع انسـان النيانـدرتال تبـين ان الشيء الذي يصنع الانسان ليس فقط حجم الـدماغ ولكنـه تركيب الـدماغ . ونحن نـرى ، وبتكرار ، ان حجم الدمـاغ والذكـاء لا يرتبـطان بالضـرورة ، فها هم مفكـرونا الـعـظام يـأتـون مـن كـلا الـطرفـين لمـدى الحـجـم الجمجمي ١٠٠٠ الى ٢٠٠٠ سم). و (كـرتن) يـذكـر أن ([1] المنـظمـين الزيولوجيين اصبحوا الآن واعين تماماً وحـذرين من زيادة تعقيـد قائمـة مجموعـة المصطلحات الرسمية بأسماء جـديدة عـلى أساس غـير كاف) . والجمـاجم التي كان يُعتقد أنها تطورت بعضها من بعض تبـين أنها عاشت خـلال نفس الفترة ، ولذا كان هناك كثير من التناقض والغموض حول أصل الانسان ، وقد وضعت الـنظريات ، وتلتهـا أخرى ، بنـوع من العجـل اليـائس ، أو بنـوع من الخيـال الضارب لبعض الناس حيث أصبح التطور نوعاً من الموضّة ومن لا يعتقد به فهو ليس مثقفاً أو علمياً ، فالاعتقاد بالله والخليقة أصبح دليل التأخر . وبـالرغم من أن العلماء صوروا لنا العلاقة بين القرود والانسان على أنها حقيقـة ، فان الـواقع كان دائماً يشـير الى انه لم يكن أحـد من اولئك العلماء متـأكداً من مـزاعمه ، ولم يكن أحد منهم يعرف الجواب . ولم يكن الموضـوع سوى اعتقـاد غير مبني عـلى العلم . ولم يفعل العلماء سوى عـرض اعتقاداتهم علينـا بطريقـة خادعـة ومملوءة بـالغش ، فقد بينت أحـدث الأدلة ان الانسـان ظهر فجـأة عـلى الأرض ، وان الانسان القديم الذي كانوا يعتقدونه قرداً لم يكن سوى انساناً آخر لا يقـل ذكاءاً عن الانسان الحديث ، وقـد عاش في مجتمعـات تشبه مجتمعـاتنا ، وقـد استعمل الرياضيات وعلم الفلك وحياكـة الأقمشة وغيـرها . أي انـه لم تكن هناك قـرود تشبـه الانسان ، او انسـاناً يشبـه القرد كـما زعموا. وقـد عاش الانسـان القـديم وانقرض قبل ظهـورنا عـلى الأرض بزمن طـويل . وهـذه الاكتشافـات الجديـدة

---

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ٦ .

جعلت بعض العلماء يغيروا آراءهم في بعض المزاعم التي كانت مقبولة لفترة طويلة (أو ما كان يعتقد أنها حقائق) ، وظهرت نظريات جديدة لتفسير أصل الانسان بعيداً عن التطور ، مثل نظرية التدخل الخارجي . فلم يحصل تطور للانسان ولم يجدوا له أدلة . ولذا فان هذا العصر هو عصر الحيرة بالنسبة لعلماء التطور . وقد تكون فكرة آدم وحواء هي الحقيقة التي ستفرض نفسها مرة أخرى بعد الجهود الجهيدة لأكثر من قرن من الزمان قضاه العلماء بالبحث والتحقيق .

فردية الانسان :

تساهم خصائص عديدة في تكوين فردية الانسان مثل قامته المستقيمة وجلده العاري (الذي لا يكسوه الشعر بالمقارنة مع الحيوانات الأخرى) وسمات وجهه الخ . الا ان اهم ما يميزه هو عقله . وهذه الوحدانية (بين المخلوقات) قد أهملها التطوريون بدون مبرر منطقي عندما نظروا الى الانسان على أنه حيوان آخر في سلم التطور . وقد رأينا سابقاً كيف أن (دزموند موريس) يؤكد على حيوانية الانسان ويضرب عرض الحائض جميع المسائل الثقافية ، وهي القضايا المتعلقة بالعقل .

و (ستبنز) أيضاً يؤكد ان ([1]الانسان ، وبدون أي جدال ، حيوان في أصله وخصائصه البيولوجية) . ومعنى هذا التصريح ليس واضحاً ، فهل أنهْ يصف حقيقة جسمية ، كتلك التي نراها على شكل جسم أم أنه يقصد أن الانسان ليس سوى حيواناً كبقية أجناس الحيوانات . والظاهر أن هناك خليطاً من كليهما موجود في المعنى . فالحقيقة الجسمية قد استخدمت لتأكيد ايمان مسبق بأن الانسان قد تطور من أسلاف أقل رقياً . ولكن ، وكبقية المثقفين العارفين ، فان (ستبنز) لا ينكر فردية الانسان . فهو يقول ([2]ولكن مع ذلك فان

---

(١) انظر المصدر ٢ ، ص ١٦٤ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

الانسان أكثر من مجرد حيوان بيولوجي . فعند النظر الى جنسنا من أكثر وجهات النظر موضوعية نستطيع أن ندرك سلوكنا في النوعية الفريدة . . . حيث لا يستطيع أي جنس آخر أن يتحكم في قَدَرِه الى المدى الذي نستطيعه ، بواسطة قابلياتنا على التذكر والاستفادة من الماضي ، وكذلك النظر الى الامام وتصور المستقبل ، والتكلم بعضنا مع بعض والعمل معاً لتوفير حياة أفضل) . و (ج . برونوسكي) يقول ([1]الانسان مخلوق فريد . فهو يمتلك مجموعة من المواهب تجعله فريداً بين الحيوانات ، بحيث انه ، وخلافاً لها ، ليس مجرد رقم على سهول الأرض ـ ولكنه صانع لسهول الأرض . وهو ، بجسمه وعقله ، المستكشف للطبيعة والحيوان الذي يظهر في كل مكان والذي لم يجد وطنه ولكنه صنعه في كل قارة) . و (بيجور كورتن) يؤكد بأن ([2]فردية الانسان تمتلك تفسيراً تاريخياً بكل تأكيد) .

وفي الواقع فان كل جنس من أجناس المخلوقات فريد بطريقته الخاصة ، وكل الحيوانات تمتلك أدمغة . والفرق الوحيد بينهما وبين الانسان هو أن الانسان يمتلك الارادة والوعي ، ولكن التطوريين غير مكترثين كثيراً بتطور أدمغة الحيوانات، فهم يعتبرونها مجرد خطوة أخرى في عملية التطور . والحقيقة انها ليست كذلك . لأن العقل مهما كان بسيطاً هو نوع آخر من الوجود يختلف عن الحياة المجردة .

العقل :

العقل (او الفكر) هو الحلقة الاخيرة لحد الآن في سلم التطور (بموجب نظرية التطور نحو الأرقى) . والعقل يختلف عن الحياة والمادة . فهو يمتلك الارادة والاختيار والتمييز . كما يمتلك التفكير الارادي ، أي القدرة على اشغال

---

(١) انظر المصدر ١٧ ، ص ١٩ .

(٢) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٧٢ .

نفسه في التفكير الارادي أو ايقاف نفسه عنه . وهذه الاختلافات تضعه في موقع مميز عن المادة ، وعن الحياة بشكلها البسيط . فالمادة نوع من الوجود ، والحياة نوع آخر من الوجود ، وكذلك العقل فانه نوع ثالث من الوجود . ويشير (بيتر رسل) الى ذلك بالقول ان (1)(الوعي يختلف عن مجرد مجموعة من خلايا الدماغ مثلما أن الحياة تختلف عن مجرد مجموعة من الذرات) . فعملية انبثاق العقل ليست عملية اتساقية لتطور الكائن الحي (فيما لو كان التطور قد وقع فعلاً) كما يزعم التطوريون بل هو انعطاف في الوجود لا يقل أهمية عن انبثاق الحياة الى الوجود. وهو ظاهرة جديدة مضافة الى الحياة وليس مجرد مرحلة أخرى من مراحل التطور. ولكن كيف يفسر التطوريون ولادة العقل بقابلياته الواسعة التي لا يمكن لأحد أن يحصيها ؟ فهل كان صدفة أيضاً ؟ لعمري أي صدفة هذه ؟ أم أنها كانت الظروف التي لعبت الدور الأساسي ؟ وفي هذه الحالة أي نوع من الظروف تلك التي جعلت الانسان الكائن الوحيد الذي يحتاج الى العقل ؟ وهل كانت ظروفاً كيميائية تشبه الظروف التي أنتجت الحياة (الخلية الاولى) عن طريق الصدفة ؟ ام انها كانت ظروفاً نفسية ؟ واذا كانت ظروفاً نفسية كيف يمكن تفسيرها بايولوجيا بموجب التطور ؟ ام انها كانت من هذا وذاك معاً ؟ وفي هذه الحالة ما هي نسبة كل منهما ؟ وهل أن ظروفاً كهذه أنتجت العقل عند الانسان فقط ؟ وهل كان الانسان هو المخلوق الوحيد الذي احتاج الى العقل ؟ وأين الأدلة العلمية التي تثبت أن الكائنات الحية الأخرى لم تحتج الى العقل لتطوير حياتها والدفاع عن نفسها ضد المخاطر ؟ انني متأكد أن الغزال الذي يقف ساكناً ويتلقىٰ رصاصة الصياد التي تقتله ، لو كان يمتلك عقلاً لاستفاد منه في معرفة ما يجري ولانقذ حياته من الموت المحقق . اننا نلاحظ أن العقل موجود عند كائنات حية كثيرة بنسب متفاوتة من الذكاء ، وقد تطور عند الانسان ولكنه بقي في تلك الكائنات على مستويات أدنى بكثير بحيث أن الفكر الارادي يوجد

---

(1) انظر المصدر ١٣ ، ص ٥٥ .

عند الانسان فقط ، وهو الفكر الواعي ، علماً أن الانسان يعيش تحت نفس ظروف تلك الكائنات من طبيعة ومناخ وغذاء .

واذا قيل أن الحيوانات الأخرى طورت شيئاً آخر كالغزال مثلاً تطورت عنده سرعة الركض والاسد تطورت عنده القوة العضلية الخ ، فالسؤال هنا لم هذه الاختلافات الشاسعة علماً أن الجميع عاشوا ولا زالوا يعيشون في ظروف متشابهة من الطبيعة والجو والغذاء فأصبح بعضهم طعاماً للآخر ؟

ويلاحظ أيضاً أن بعض الحيوانات طورت (أو تمتلك) نفس الخصائص كغيرها مثل الركض السريع والقوة العضلية والطيران ، فهذه الخصائص تمتلكها حيوانات كثيرة وليس نوعاً واحداً من الأجناس ، ولكن العقل يمتلكه الانسان فقط ، لماذا ؟ ولماذا تطور هذا العقل الى اكثر مما يحتاجه الانسان للبقاء ؟ ان الاكتشافات العلمية بينت ان الانسان يستعمل ١٠ ٪ فقط من قابلياته العقلية ، واذا كان الانسان قد تطور من مخلوق أدنى منه ، فان ذلك معناه أن العقل قد تطور اكثر مما يحتاجه الانسان . وهذا لا يتوافق مع الادعاء الذي يزعم أن الأجزاء التي لا تستعمل تضمر بمرور الزمن ، ولا نعلم كيف ان الـ ٩٠ ٪ المتبقية لم تضمر ولا كيف أنها تطورت في المجال الاول . و (كودمان) يذكر بانه ([1]وكما سأل والاس ، كيف يستطيع الانتخاب الطبيعي ان يزود الانسان بعقل يفوق احتياجاته ؟) . اذ ان النظرية تقول ان التطور يتم بموجب حاجة المخلوق للبقاء وان هذه الحاجة هي التي تقرر المتطلبات ، فمن اين أتت المتطلبات الاضافية التي جعلت الانسان يمتلك القابليات الاضافية .

النتيجة الواضحة التي يمكن استنتاجها مما تقدم أعلاه هي أن عقل الانسان لم يتطور . و (كودمان) يشير الى انه ([2]حال ظهور عقل الانسان على

---

(١) انظر المصدر ١٠ ، ص ٢٦٨ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ٤٢ .

مسـرح الوجود فان الانتخاب الطبيعي لم يعد بامكـانه العمـل على الانسـان) . ومشيراً الى (والاس) . عالم الاحيـاء المشهور ، فـان (كودمـان) يقول ([1]انـه شعـر أنه من المستحيـل تصـور ان تـطور الانسـان كمخلوق روحي جـاء نتيجـة للانتخاب الـطبيعي) . و (كودمـان) يسأل بكـل صواب ([2]هـل ان كل شيء نتعلمه عن وظيفة العقل يتلائم مع المادية الصرفـة وتطور دارون ؟) . ثم يجيب (بـالعكس ، ان البحوث الجـديدة تبـين ، وبتكرار ، ان نـظام الـدمـاغ ككـل يستـطيع بكيفيـة مـا أن يعمـل بـطرق تتعـدىٰ القـابليـات الفيـزيـائيـة لخـلايـاه العصبية البالغ عددها حوالي عشرة مليارات) . وفيـما يخص أصل الانسـان فان العلم الآن يقف عـلى حافـة منعطف مهم . فـالتطور لا يبـدو قادراً عـلى اعطاء الجواب ، وأحدث نـظريات التـطور لا تكفي . ويتضح أن نـظريات التـطور في خطر حقيقي . فاذا لم يكن الانسان قد تطور مما هـو أدنى منه ، فـلا بد وأنـه قد خُلِق ، وبذلك فان تبريـر كون الكـائنات الحيـة الأخرى قـد جاءت عن طـريق الخليقة أيضاً لن يكون عسيراً . و (كودمان) يقول ([2]باختصار ، فان الانسان الحديث يمثل رزمة جسمية وعقلية جديدة كلياً ، واحـدة مكونـاتها المختلفـة تبدو متكاملة بدقة لاتمام بعضها بعضاً) .

الجلد :

يمتلك الانسان جلداً متميزاً عن باقي الحيوانات من ناحية كونه غير مغطىٰ بالشعر ، عدا بعض المناطق . وهذه الظاهرة كانت ولا زالت لغزاً محيراً بـالنسبة لمدعي التطور . كيف أصبح الجلد عارياً هكذا ؟ وما هو التفسـير لذلـك بموجب نظرية التطور التي تقضي بأن الحاجة للبقـاء هي سبب التغيرات ؟ في الـواقع أن المشكلة مستعصية ، وقد ظهرت نظريـات كثيرة لتفسـير هذه الـظاهرة . وبعض

---

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٥ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

هـذه النـظريـات رُفضت مبـاشـرة تقـريبـاً من قبـل الآخـرين العـاملين في هـذا الحقل .ولا توجد لحد الآن أي نظرية تعطي جواباً مقبولاً . فالسؤال هو اذا كان الانسان قد تطور مما هو أدنى منه فلا بد وأنه فقد شعره بسبب احتياجـات التطور التي تساعده على البقاء بصورة أفضل مما لو كان مغطى بالشعر . ولما كانت هـذه الحالة تمثل نهاية مسدودة ، فان بعض الناس ذهبوا الى الحد الذي نكـروا فيه أن الانسان هو أقل الحيوانات شَعراً . و (ديـزمونـد موريس) يـذكر ذلـك بالقـول ([1]ان أحد الاختصاصيـين المشهورين ذهب بعيـداً الى القول ان الـرأي القائـل بأننا « الأقل شَعراً من بين جميع اللبائن بعيد كل البعد من أن يكـون صحيحاً . والنظريات الغريبة المتعددة التي وضعت لأخذ فقدان الشعر الخيالي بنظر الاعتبار ليس هناك حاجة لها ». وواضح ان هذا هـراء . وهو يشبـه القول بـأن الانسان الاعمى ، ولانه يمتلك عينين ، فانه ليس اعمى) .

وقد ظهرت نظريات عديدة لتفسير ظاهرة فقدان الشعر . وبعضها سفيهة الى درجـة بحيث انها مضحكة ، ويمكن للفـرد إدراك ان اليأس والاحبـاط كانـا وراء ظهور هذه النظريات باسم العلم .

ويخبرنا (ديزمونـد موريس) ان ([2]احـد التفسيرات هو انـه عندمـا تخلى القرد الصياد عن ماضيه البدوي[*]واستقر في قواعد ثابتة ، تمثـل وطناً لـه ، فان عـرينه اصبـح مملوءاً بالـطفيليات الجلديـة الكثيرة . ويُعتَقَـد ان استعمـال نفس الأماكن للنوم ليلة بعد ليلة قد اعطى أرضية خصبـة لتكاثـر مختلف أنواع القـراد والعثة والبرغوث والبق الى النقطة التي أصبح الوضـع فيها يمثـل خطورة شـديدة للتعرض للأمراض . وبواسطة نزع معطفه المشعـر ، فان سـاكن العرين أصبـح

---

(١) انظر المصدر ١١ ، ص ٣٣ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(*) يقصد الرجال (كثير الارتحال) .

يجابه المشكلة بصورة أفضل) . ولكن اذا كانت هذه هي الحالة فقد نتساءل لماذا لم تفعل الحيوانات الأخرى التي تسكن المغارات ذلك ؟ لماذا كان الانسان الوحيد الذي فعل ذلك ؟ ولماذا جميع الأجناس البشرية ، خاصة أولئك الذين عاشوا في المناطق الباردة كالمناطق الجبلية مثلاً ، حيث أن وجود الطفيليات أقل احتمالاً ؟

وتوجد نظرية أخرى تقول ان الانسان ، وبعد اكتشاف النار ، أصبح غير محتاج للشعر لتدفئته ، ولذا فانه فقده . وقد نتساءل هنا أيضاً انه اذا كان سبب وجود الشعر هو مقاومة البرد فلماذا تمتلكه الحيوانات الاستوائية ، وأحياناً بكثرة ؟ من الواضح أن هذه نظرية تافهة .

نظرية أخرى تقول ان عملية التغذية عند الانسان كانت وسخة نوعاً ما ، خاصة عند أكل اللحوم ، والتي كانت تسبب الأمراض . ولتحاشي الأمراض فان الانسان فقد شعره . وهذه النظرية تضرب لنا طير الباشق (أو العقاب) الذي لا يمتلك ريشاً على عنقه مثلاً وتزعم أن هذا الطائر فَقَد ريش عنقه بسبب طريقة تغذيته الوسخة . وللرد على هذه النظرية لا نحتاج الى اكثر من القول انه اذا كان هذا هو السبب ، فقد كان على الانسان أن يفقد الشعر الذي على وجهه ، وليس الشعر الذي على جسمه تاركاً الشعر على وجهه في الرجال ، وهو المهم في الموضوع ، بهذه الكثافة . بالاضافة الى ذلك فان طريقة أكل الانسان ليست وسخة كطريقة اكل الباشق . وماذا عن الحيوانات الأخرى كالصقور والنسور والأسود والنمور الخ ، لماذا لم تفقد ريشها أو شعرها ؟ وفي الواقع بامكاننا أن نجد مثالاً في الطبيعة لأي شيء ، ولأي نظرية تُطرح ، ولكن تبريراً كهذا لا يمكن اعتباره اسلوباً علمياً أو منطقياً . ذلك لأن النظرية ، ولكي تصبح مقبولة ، يجب ان تبرر نفسها علمياً وبواسطة أسباب منطقية ، وأحياناً ، بالتجربة أيضاً .

وهناك نظرية أخرى تقول انه في فترة زمنية ما ، ذهب الانسان ليعيش قرب البحر بسبب وجود الغذاء بكثرة فيه . وكان عليه أن ينزل الى الأعماق

ليصطاد الأسماك وما شابه ، ونتيجة لذلك فانه فقد شعره بسبب الماء . ولكن هذه النظرية لا تفسر سبب بقاء الشعر على الرأس والوجه وهما أول ما يكون بتماس مع الماء عندما يعوم الانسان أو يغوص في الماء . كذلك لما كان الذكور هم الذين يقومون بالأعمال عادة (وهو الصيد هنا) لماذا فقدت الأناث الشعر من وجوههن بينما لم يحصل ذلك للذكور ؟ ثم لو أن الانسان كان فعلاً قد عام لفترات طويلة بحيث انه فقد شعره لماذا لم يطور جهازاً تنفسياً يستطيع التنفس بواسطته داخل الماء فيبقى فترة أطول ويحصل على غذاء أوفر ؟ أليس هذه هي الحاجة التي يزعمها التطوريون للبقاء ؟ ولماذا لم يتطور بحيث أن أطفاله يستطيعون العوم تلقائياً وبدون الحاجة الى التعلم ؟

وهناك نظرية أخرى تسمى نظرية الصياد . وتزعم هذه النظرية ان الانسان عندما نزل من الأشجار (لانه كان كالقرود) وأصبح صياداً (لاحظ ان القرود لا تأكل اللحوم) فانه احتاج أن يطارد فريسته . وهذا معناه انه احتاج لأن يفقد الحرارة التي تولدت في جسمه من جراء الركض . ولكن الشعر كان بمثابة معطف ثقيل يمنع فقدان الحرارة ، ولذا كان عليه أن يتخلص منه . و (ديزموند موريس) يزعم انه ([1]بواسطة فقدانه معطف الشعر الثقيل وبواسطة زيادة عدد غدد التعرق على سطح جسمه فقد استطاع الانسان أن يحصل على تبرير كثير ـ وهذا التبرير ليس لغرض الحياة اليومية الاعتيادية ولكن للحظات المطاردة العنيفة ـ سوية مع انتاج الطبقة الرقيقة السخية من السائل المتبخر على أطرافه وجذعه الفعال والمعرض للهواء) . وهذه النظرية تعتمد على النظرية القائلة أن أسلافنا تركوا الأشجار بسبب ندرة الغذاء . ولكن الأدلة على ذلك لم يتم الحصول عليها مطلقاً . وعلى العكس فان (كورتن) يقول ([2]ان اسلافنا لم يُجبَروا على ترك الأشجار بسبب نوع من الأزمات ، مثل موت الغابات

---

(١) انظر المصدر ١١ ، ص ٣٧ .

(٢) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٣٥ .

بسبب الجفاف ، ولكنهم نزلوا الى الأرض لغزو مناطق جديدة مفضلة) . وهذا يبين ان الانسان لم يكن مجبراً على مطاردة فريسته لأن الغذاء كان متوفراً في هذه المناطق الجديدة (فيما لو كان التطور هو ما حصل فعلاً) . وعلى أي حال ، اذا كانت المطاردة هي سبب فقدان الانسان لشعره ، فلماذا لم تفقد الحيوانات المفترسة الأخرى ، مثل الاسود ، شعرها ؟ ولماذا فقدت انثى الانسان شعراً أكثر من الرجل بالرغم من أن الرجل هو الذي يقوم بالمطاردة ؟ وعلى أي حال ، لم تستطع أي من النظريات أن تفسر سبب عدم فقدان الانسان الشعر من وجهه (بالنسبة للذكر) وتحت الابط وحول اعضائه التناسلية . ولماذا ان الشعر على وجه الذكر يتركز على اللحية والشارب وليس على الجبهة أو الأنف أو الخدود أو حول العيون عدا الحاجبين .

ويبدو أن النظريات المطروحة ليست سوى محاولات لملائمة نماذج ناقصة على ظاهرة موجودة . ولا يوجد أي منها قرب التفسير الصحيح أو الملائم للظاهرة المطلوب دراستها .

الانسان يخون التطور :

يقول التطوريون ان الانسان يمثل المرحلة الأخيرة في سلم التطور لحد الآن ، ولذا فانه أرقى الكائنات الحية (وهذا مما لا شك فيه) . ونستنتج من ذلك انه يجب أن يكون أكثر هذه الكائنات استعداداً للتطور ، وقد يكون هذا هو ما يعترف به (كورتن) عندما يقول ([1]انه السلالة الوحيدة التي تمتلك قوة تطورية مستقبلية) . ولما كان الانسان ذكياً وواعياً فقد نتصور انه كان يجب عليه أن يحاول التطور بصورة واعية لكي يختصر الزمن ويسرع في هذا المشروع العظيم الذي بدأته المادة . خاصة الآن ومع ولادة العقل الواعي في الانسان

---

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٧٢ .

والذي يفهم الغاية من ايجاده وإيجاد الحياة وعملية التطور ، لذا فقد نعتقد انه كان عليه أن يؤدي الأمانة التي علقتها عليه المادة وأأتمنتها فيه . ولا بد وأن نتذكر هنا أن الكائنات الحية غير المفكرة والأقل تطوراً من الانسان قد حرصت على هذه الأمانة قبله ونجحت في أداء واجبها بخصوص التطور حتى وصلت اليه (اي الى الانسان) ، فعليه أن يكون جديراً أيضاً بحمل هذه الأمانة والحفاظ عليها ، فهو أرقى ما وصلت اليه الحياة في سلم التطور ومزود بامكانيات أفضل من الكائنات الحية التي كانت قبله لانجاز مهمته . ولكن ماذا نرى ؟ وبأي شيء منهمك هذا الانسان ؟ هل انه مشغول بحفظ الأمانة وتطوير نفسه وتطوير الكائنات الحية الأخرى معه ؟ ام أننا نرى العكس من ذلك ؟

في الواقع أننا نرى الانسان مشغولاً بتدمير نفسه وقتل بعضه بعضاً سواءاً ضمن المجتمع الواحد أو بين الأمم المختلفة ، والتاريخ مليء بالحروب التي تشهد بذلك . وواضح أن هذا تبذير عظيم للطاقات التي يمكن استعمالها في دفع عملية التطور الى الامام . وما يقوم به الانسان الآن من صناعة السلاح الذري لتدمير جميع الكائنات الحية على الأرض ، وليس نفسه فقط ، ليس تطوراً ولكنه تناقض صارخ مع مبدأ التطور نحو الأرقى . فماذا حدث لعملية التطور ؟ هل أنها ، ولسبب مجهول ، انعكست ؟ وهل قرر الانسان ، الذي هو نتاج الجهود العظيمة ، أن يعتبر هذا العمل الضخم تافهاً ولذا فانه يتمرد عليه ؟

ان امتلاك العقل هو الذي ساعد الكائن الحي على اختراع ما يدمر به نفسه . فهل كان امتلاك هذا العقل غلطة ؟ أم انه هو المنشود ؟ فاذا كان غلطة فانه تناقض واضح مع مبدأ التطور ، واذا كان هو المنشود فلماذا يحاول الانسان تدمير نفسه ؟ وهو مشغول جداً بايجاد طرق جديدة للدمار ويصرف جهوداً عظيمة وأموالاً طائلة في سبيل ذلك بدلاً من صرفها على تطوير نفسه ، وكأنه وُجِدَ لهذه الغاية التدميرية لا لكي يكون الحلقة الجديدة في التطور . وقد يقال ان الانسان هو آخر كائن متطور تنشده المادة . فاذا كانت هذه هي الحالة فان

الأجدر به اذن أن يكون على أحسن حال للبقاء والتكاثر لا ان يفني نفسه وجميع الحياة حوله . ان الانسان مشغول جداً في صناعة امجاده ، والأمجاد بالنسبة له هي العظيمة واجبار الآخرين على الركوع أمامه باستعمال القوة والقتل والفتك بالناس وحياكة الدسائس والمؤامرات .

واذا كان الانسان آخر حلقة في التطور فان ذلك معناه أن الغاية قد انتهت وأن حصيلة هذا الجهد الطويل الذي استغرق مليارات السنين كان للوصول الى الانسان الذي يحاول انهاء كل شيء الآن . ويتضح أن العقل ، الذي هو آخر مرحلة في التطور ، يتمرد الآن على سيده المادة التي تريد له عكس ذلك . وهو بذلك يعمل ضد الغاية المنشودة للمادة بعد أن استسلمت الحياة ، التي هي الحلقة الوسطى في سلم التطور ، لهذه الغاية .

نستنتج من ذلك أن تمخض التطور وولادته للانسان كان غلطة لم تكن المادة عالمة بنتيجتها ، وهذا بدوره يمثل تناقضاً مع عملية السعي نحو الأرقى . واذا كانت المادة تعلم فان هذا الانعطاف نحو الدمار غير واضح الأسباب ويتناقض مع الغاية الأولى ، ولا يمكن تفسيره على أنه تطور ، بل الأفضل وصفه بالانحراف عن التطور وعن الوصول الى الغاية النهائية . وفي الواقع فان الانسان يحاول الرجوع الى البداية ـ الى المادة الميتة .

واذا كانت المادة قد انعطفت عن مسار التطور هذه المرة ، فليس هناك ما يمنع من الاعتقاد بأنها قد تكون انحرفت عن التطور في أوقات أخرى ما دام الانحراف ممكناً . وفي هذه الحالة لن يبقى هناك مبرر للاعتقاد بالتطور ما دامت امكانية حدوث الانحرافات موجودة ، وبذلك ينهار مبدأ الاعتقاد بالتطور نحو الأرقى كلياً . وتوجد أمثلة كثيرة من هذه الانحرافات في الانسان منها الكره والساديّة .

وقد يبرر بعض الناس هذه الانحرافات بالقول أنها طفرات وراثية في

الاتجاه المعاكس . الا أن هذا بحد ذاته اعترافاً بضعف الفكرة بأكملها وبرهاناً ساطعاً على وجود اكثر من انحراف واحد عن مسار التطور ، خاصة اذا اعترفنا باحتمال حدوث الطفرات بالاتجاه المعاكس (وهو ما يعترفون به على أي حال) . وأخيراً نرى أنه كان من الواجب أن يحمل العقل البشري (لو كان فعلاً حصيلة التطور) في طياته ، وكجزء من تركيبه ، مبدأ التطور نحو الأرقى بصورة واعية (ولكن ليس على طريقة نيتشة والنازية) ، والذي كان سيسهل عملية التطور ويسرع بها الى الغاية المنشودة بطريق سليم . تُرى هل أخفقت المادة في وعي هذه الحقيقة بعد أن انجزت هذا العمل العظيم ؟

الكُرْه والساديّة :

يتحسس الانسان الكره الذي يظهر على شكل عداء مدمر وحقد لا مثيل له عند بعض الناس . ويشهد التاريخ بالحروب والدمار والقضاء على حضارات كاملة بسبب الكره والحقد بين الملوك والايديولوجيات المختلفة . ولعل احراق نيرون لروما عاصمة مملكته في ليلة سوداء بينما كان الناس نائمين من الأمثلة الصارخة لما يمكن لهذا الكره والحقد أن يفعل .

ويظهر الكره بين بني البشر بصور مختلفة ، وأبرز ظاهرة في عصرنا الحاضر للحقد هو التمييز العنصري بسبب اللون . فها هو الانسان الأبيض الذي يحمل راية التقدم التكنولوجي في أوج عظمتها حتى انه نزل على القمر برجليه، نراه، وخلافاً لما تصبوا اليه فكرة التطور نحو الأرقى ، مملوءاً الى اذنيه باحتقار الأجناس الأخرى لا لشيء إلا لأن الوان جلودهم تختلف عن لون جلده . ولا يمكن أن نعتبر ذلك من التطور في شيء . ولعل أبرز ورقة في يد الدول الكبرى لاشعال الحروب بين الناس في عصرنا هذا هو اثارة الأحقاد والضغائن على أساس القومية والعِرْقية . فيتطاحن الناس ويقتل بعضهم بعضاً وهو خلاف لمفهوم التطور . والمجتمع الانساني مملوء بالمآسي بسبب الحقد والكراهية ، فأين هذا من التطور نحو الأحسن ؟

والكره لا يمكنه أن يولد اي خير في الانسان . وهو ليس أحسن من أي شيء آخر ، ولا يمكن وصفه بشيء غير الشر . ولذا لا يمكن أن يكون قد تطور من شيء أسوأ منه ، وبهذا لا يمكن وصفه على انه تطور نحو الأحسن بأي مقياس من المقاييس العقلية . وعلى العكس من ذلك فانه بالتأكيد يمكن وصفه على انه انحراف عن مسار التطور لأنه لا يمكن أن ينتج الا الدمار . وكان على الانسان أن يحمل الحب ونزعة التآخي فقط اذا كان فعلاً قد تطور من شيء ادنى منه . ونحن لا نرى كيف أن اسلاف الانسان وأجداده (اذا كان هناك اسلاف) احتاجوا الى شيء كالكره ، لأن كلاً منهم (بمفهوم نظرية التطور) قد تطور من شيء آخر . واذا كان التطور سارياً خلال جميع المراحل فكيف احتاجت الكائنات الحية التي في تطور مستمر الى الحقد الذي لا يقود الا الى الدمار . وبطبيعة الحال فان الدمار هو عكس التطور والمفروض في الكائنات أنها لم تحتجه في أي مرحلة من مراحل تطورها .

اما الساديّة فانها مرض عقلي واسع الانتشار يتلذذ صاحبه بايذاء الآخرين أو قتلهم . ولا يمكن اعتبار الحصول على سعادة من الألم تطوراً لأن الألم يقود الى الموت وليس الى الحياة . وكان على التطور ، اذا أردنا أن نسميه هكذا ، أن لا ينتج انحرافات كهذه أو على الأقل يقضي عليها بحيث لا يبقى إلا الأصلح ، تمشياً مع مبدأ التطور .

وهذه الظواهر في الواقع يمكن تفسيرها بواسطة نظريات أخرى لتفسير الوجود والخليقة كما سنرى .

استنتاج :

لقد تم تمحيص وتحليل النظريات التي تزعم أن الانسان قد تطور من القرود ، فوصلنا الى الاستنتاج بأن هذه النظريات لم تعتمد على سند قوي أبداً ولم تتوفر الأدلة العلمية القطعية لاسنادها . بل أن الأدلة الحديثة تبين أن الانسان

قد ظهر فجأة على الأرض . ولا تستطيع نظريات التطور أن تعطي تفسيراً مقبولاً لقـابليات العقـل ووظـائفـه العـظيمـة ، ولا لأسبـاب فقـدان الشعـر من جسم الانسـان ، كما أنها لا تستـطيع تفسـير بعض الظواهـر التي تعتبر انحـرافات عن التطور مثل الكراهية والسادية .

ويبدو كذلك ان الانسان يتمرد ضد التـطور بواسـطة البحث عن وسائـل لتدمير الـذات . وأن نظريـة التطور غـير قادرة عـلى اعطاء تفسـير مقبول لأصـل الحياة والانسان . وليس هناك قاعدة فلسفية أو أدلة علمية كافية لتبريرها .



الفصل التاسع

الخلق :

ربما كان باستطاعة نظرية التطور ان يكتب لها النجاح لولا فشلها في اعطاء تفسير مقبول لاصل الانسان والذي أوصلها الى نهاية مسدودة . وفي الواقع فان النظرية لم تعط أي تفسير مُرْضٍ لاصل أيٍ من الأجناس ، أو لاصل الحياة نفسها . ولكنها فقط زعمت أن ما يقرب مما لا نهاية له من الصدف قد حدثت في آن واحد لانبثاق الحياة ، ثم أن اعداداً أكبر من ذلك من الصدف الأخرى استمرت بالوقوع لانتاج الكائنات الحية التي نعرفها اليوم . وعند التأمل في هذه الافتراضات نجدها شيئاً من الهذيان والجنون الحقيقي باسم العلم . كيف يمكن لهذا العدد الهائل من الصدف ان يحدث بهذه الطريقة العجيبة والمحكمة ؟ ان العلم لم يعرف نظرية واهية كهذه في أي فرع من فروعه . ولم يستعمل العلم مفهوم الصدفة لتفسير أي من نظرياته عدا التطور . وفي الواقع ، فان العلم تم تشييده على مفهوم العلة والسببية للأشياء واستحالة الصدفةوأن هناك سبب لكل حادثة ، وأن العلاقات بين الأشياء لا يمكن أن تكون قضية صدفة . لان القول بصدفة العلاقات والأسباب التي تربط بين الحوادث يجعل وضع القوانين

العلمية قضية مستحيلة ، ويقود الى رفض جميع نظريات المعرفة التي بُنيت على استحالة وقوع الصدفة .

لقد اعتمدت نظرية التطور على أدلة مادية فقط ، وهي العظام والمتحجرات ، ولم تأخذ بنظر الاعتبار أي من القضايا الميتافيزيقية ، حيث لم يفكر أحد ، أو يولي اهتماماً لشعور وأحاسيس الحيوانات والنباتات (والتي بينت البحوث العلمية الحديثة التي أجريت على النباتات أنها تمتلك شعوراً واحساساً وخصائص أخرى كالتمييز والتخاطر(*) ولكن عندما وصلت النظرية الى الانسان لم تستطع تجاهل مسألة الامكانيات العقلية التي يمتلكها ، وشكلت هذه القضية عقبة حقيقية أمام نظرية التطور التي وقفت عاجزة عندها . ويبدو ان التطور لم يأخذ هذه المسألة بنظر الاعتبار ، ولم يستطع التطوريون أن يجدوا أدلة لها . و (كودمان) يستشهد بالدكتور (ستيفن م .ستانلي) بقوله[1](ومن حيث لا نعلم ، يظهر ذقننا الحاد وحاجبنا الخفيف وجبهتنا البارزة في سجلات المتحجرات . وهذه السمات الخاصة لا يمكن التنبؤ بها اطلاقاً بموجب الأسس التي سبقتها) . ويستمر بالقول[2](ومن وجهة النظر الجسمية ، فان ذقنه الحاد ، وحاجبه الخفيف وجدران جمجمته الرقيقة وجبهته البارزة وجهازه الصوتي المتمكن من الكلام كلياً يظهر من حيث لا يُعلم) . وهذا جعله يؤكد أن[3](هذه النظريات لا تعطي تفسيراً ملائماً للظهور الفجائي للخصال الجسمية والعقلية في الانسان الحديث والتي تبدو متممة ومعززة لبعضها البعض وكأنها صُنعت هكذا بواسطة صانع) . وفي الواقع ، عند النظر الى أي كائن حي فانه

(*) التخاطر هو اتصال عقل بعقل آخر بطريقة ما خارجة عن نطاق العادي، وتسمى التلاباثي .

(١) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٨٣ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٣ .

ليس من العسير ملاحظة كيفية تكامل هذا الكائن الكلي بواسطة الصنع . فهذه الأنظمة العجيبة للنمل ، وبعض أنواع الطيور ، والنحل ، وكثير من الأجناس الأخرى اكبر دليل على ذلك . كيف تطورت هذه الأجناس لتساعد بعضها بعضاً بحيث أن كل فرد من المجموعة له دوره المحدد ، وهذه الأدوار تكمل بعضها بعضاً بحيث تتمكن المجموعة من العيش والبقاء وكأنها كائن حي واحد يمتلك روحاً واحدة وعقلاً واحداً ؟ ومع ذلك فان التطوريين لم يتطرقوا الى هذه المسائل . ولكن عندما اعترضتهم ظاهرة مساعدة الانسان لأخيه الضعيف أو المجروح لم يستطيعوا تجاهلها ، بالرغم من أن نفس السؤال كان يجب أن يطرح عن النمل والنحل وغيرها .

و (كودمان) يشير الى أن[1](الفجوة بين الانسان الحديث وأسلافه أساسية الى درجة كبيرة بحيث أن شيئاً أكثر من جريان الجينات العشوائي ومبدأ الانتقاء الطبيعي قد يكون له علاقة بالموضوع . كيف يمكن لخصائص الانسان المتعددة والمنسقة تنسيقاً عالياً أن تجتمع بصورة عشوائية ؟ ان الغرابة تفوق التصور) .

ويشير (كودمان) الى أننا اذا فرضنا ان الانسان قد تطور من مخلوقات أدنى ، فاننا سنجد ان الانسان الحديث كان عليه أن يتطور في أربع أماكن متفرقة على الأرض (بموجبالأدلة المتوفرة) : اوراسيا(*)وامريكا وافريقيا واستراليا . أي انه بموجب أدلة العظام التي تم اكتشافها يبدو ان الانسان الحديث قد تطور في نفس الوقت على أربع مناطق من الكرة الأرضية ، والذي معناه ان الانسان تطور من الانسان القديم الى الانسان الحديث أربع مرات . وهذا قاد (كودمان) الى أن يسأل[2](كيف استطاعت أربعة أجناس محلية من

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٢٦٨ .

(*) المنطقة الاسيوية القريبة من أوربا .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

الانسان القديم أن تتطور عشوائياً الى مستوى الانسان الحديث وبنفس الوقت تحافظ على الانسجام الجيني العالي الذي يمكن ملاحظته في الأجناس الرئيسية المصنفة على الأساس الجيولوجي للعالم ؟).

وعلى أي حال فان الانسان يختلف عن النحل والنمل من ناحية انه يمتلك قابليات أكثر مما يحتاجه للبقاء بكثير. ولذلك فان (تَرَنْسْ دكسون) و (مارتن لوكاس) يشيران الى[1] (ان حاجتنا وقابليتنا على تنظيم وترتيب ومعالجة العالم يوجهاننا الى انشاء الثقافة وعالم الرموز والمعاني الانسانية الفريدة ، والتي هي أكثر من احتياجاتنا لغرض البقاء) . وكورتن يؤكد[2] (ان وظائف عقولنا تتعدى كثيراً أي شيء معقول تتطلبه هذه العقول في البيئة التي تطورت فيها) .

ان الأسئلة كثيرة وعميقة ولا يمكن للمادية الضحلة أو نظرية لم يقم البرهان على صحتها، كالتطور التي وقفت مشلولة أمامها ، أن تقدم الأجوبة لها . لماذا كان الانسان الكائن الحي الوحيد الذي امتلك العقل ؟ ولماذا يمتلك قابليات بهذه الكثرة التي تفوق احتياجاته التي يتطلبها لغرض البقاء ؟ ولماذا وكيف ظهر فجأة على الأرض ؟ لقد استمر البحث في عدة حقول : الاحياء وعلم النفس والفيزياء والآثار وغيرها . ويلخص (كودمان) المأزق كما يلي[3] (ان المادية التقليدية تبدو ناقصة نقصاً جدياً كتفسير للمدى العظيم من الظواهر التي يظهر بعضها كمركبات أساسية للطبيعة الانسانية) . لذا لا بد من التوجه الى اللامادية للحصول على الأجوبة . انها الطريقة الوحيدة بعد الجهود الطويلة والمضنية التي عاناها الباحثون . فالمادية وحدها لا تكفي . ويبدو أن العلماء ، وبعد ركوب الطريق الوعرة ، وصلوا الى الاستنتاجات الواضحة . وهذه اشارة

(١) انظر المصدر ١٨ ، ص ١٦ .
(٢) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٣٧ .
(٣) انظر المصدر ١٥ ، ص ٢٦٧ .

الى البحوث العلمية المعقدة التي أجراها العلماء قرون للتوصل الى النظرية النسبية ، والتي بعدها عرف الانسان أن المادة تتحول الى طاقة . ولكن المادة كانت دائماً تتحول الى طاقة في جسم الانسان في كل لحظة ، وفي كل شيء فَعَله، إلا انه لم يكن يعلم. ولم يعلم الانسان أن كل حركة من حركاته كانت في الواقع تحويل المادة الى طاقة . فتحريكه ليده ، وتفوهه بكل كلمة يقولها ، وقهقته ، وبكاؤه ، وتفكيره المجرد ، كلها تحويل المادة الى طاقة . اي انه لم يعلم أنه هو نفسه (جسمه) ليس الا مفاعل يحول المادة الى طاقة باستمرار .

ان التطور كان ، ولا يزال ، هاجساً يستحوذ على العلماء ، ودافعاً قوياً ذي اتجاه واحد . وهم ماضون في هذا الاتجاه وكأنَّ على عيونهم غشاوة أو غمامة تمنعهم من رؤية الاتجاهات والاحتمالات الأخرى . وقد آن الأوان ، بعد الاكتشافات الحديثة ، أن يزيل هؤلاء الباحثون الغشاوة عن أعينهم ويأخذون بنظر الأعتبار الآراء الأخرى المطروحة والبعيدة عن فكرة التطور ، فقد يكون الجواب هناك ، وفي الواقع فان الجواب هناك .

ان مفهوم الروح بدأ يعود مرة اخرى الى المسرح . و (كودمان) يتكلم عن اكتشافات علمية جديدة عن الانسان وروحه ، فيقول[1](ان السَرْجون اكلز ، الحائز على جائزة نوبل في الطب والتشريح والسَرْ كارل بوبر ، فيلسوف العلم العالمي الأول ، يؤمنان بالنظام المزدوج للعقل والدماغ . فهما يقولان أن الانسان يمتلك روحاً أو (عقلاً) غير ملموس يسيطر على « حلقة الارتباط(*)الدماغ » مثلما يقود السائق السيارة أو كما يوجه المبرمج الحاسبة . . . ويرى اكلز مصدراً خارجياً ، وذكاءاً مبدعاً ، لأصل ازدواجيته هذه . ويوجين وايز ، الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء ، وعند تحليله لتعقيدات ميكانيكا الكَمْ

(١) انظر المصدر السابق، ص ٢٠ .

(*) يقصد أن الدماغ هو حلقة الوصل بين العقل والجسم .

يعتقد ان الانسان يمتلك عقلاً لا مادياً يستطيع أن يؤثر في المادة) . والأدلة الحديثة تؤكد ازدواجية وجود الانسان ، حيث يقول كودمان[1] (ان الفيزيائي البارز السرْ جيمس جينز ذهب الى أبعد من ذلك : « العقل »، كما كتب ، لا يبدو بعد الآن دخيلاً فجائياً الى عالم المادة ، فقد بدأنا نشك بأننا يجب علينا ، بالأحرى ، ان نصفه كخالق وحاكم لعالم المادة) . و (كودمان) يذكر ايضاً ان[2] (اكلز . . . يقفز قفزة ايمان ليفسر ظاهرة الانسان : اذا قلت ان وحدانية النفس الانسانية غير مُستَمَدة من الرمز الجيني ، وليست مُستَمَدة من الخبرات ، فمن أين هي مستَمَدة اذن : وجوابي هو : من الابداع الالهي . كل نفس عبارة عن خلق الهي) .

وفي الواقع فان (والاس) ، الذي عاصر (دارون) وكان زميله وأَحد مؤسسي علم التطور في الاحياء ، وقف عاجزاً أمام مسألة الانسان . وقد تصور ان هناك ذكاءاً خارقاً قاد تطور الانسان . ولما كان يؤمن بالتطور ، فلم يكن لديه طريق آخر للخروج من المأزق عدا التصريح بهذا الرأي الذي كانت غايته انقاذ فكرة التطور من الانهيار في مهدها . ولكن الى أي شيء يقودنا هذا الرأي ؟ أليس الى الخالق !! واذا كان الخالق موجوداً ، فلم التطور ؟ ان التطوريين ساروا على خطىٰ (دارون) ولم ينتبهوا الى كلمات (والاس) ، وبعد أكثر من قرن من الزمان رجعوا للبحث عن وثائقه التي خلفها من بعده وواراها الغبار .

و (كودمان) يذكر ان (اينشتاين) ، العالم الفيزيائي الذي وضع النظرية النسبية ونظرية القنبلة الذرية ، يقول[3] (ان اي فرد منهمك في متابعة العلم بصورة جدية يصبح مقتنعاً ان روحاً تتجلى في قوانين الكون . روحاً متفوقة على

---

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٢ .

روح الانسان تفوقاً كبيراً ، وواحدة علينا أن نشعر أمامها بالتواضع بقدراتنا البسيطة) .

وبالنسبة للعلماء والمفكرين في الغرب ، فان المأزق حقيقي . كيف يمكنهم أن يقبلوا فكرة الخالق بينما لا يستطيعون أن يقبلوا الانجيل ومفاهيمه المتناقضة ؟ لانه اذا كان الخالق موجوداً لماذا يناقض الانجيل العلم ؟ ولكن هناك حل للمشكلة لم يأخذه الغربيون بنظر الاعتبار لحد الآن ، وهو ان الخالق موجود والانجيل فيه خطأ وهناك كتاب الهي آخر لا يتناقض مع العلم ويفسر مسألة الخليقة بكل تفصيل ومعقولية . والغربيون يقبلون الشطرين الأول والثاني من هذا الحل ولكن ليس الشطر الثالث . والأسباب ليست من اختصاص هذا الكتاب لمناقشتها . وهذا الوضع قاد عقولهم للتفتق عن نظرية جديدة ، وهذه النظرية مبهمة اكثر من نظرية التطور ، وتسمى نظرية التدخل .

و (كودمان) يعطينا وصفاً يفي بالغرض لهذه النظرية بالقول[1] (ان نظرية التدخل تعطي الانسان أصلاً مزدوجاً . فهي تزعم تطور الحيوانات حتى الوصول الى الانسان القديم ، ثم يتبعها تدخل بواسطة ذكاء متفوق لتفسير ظهور الانسان الحديث ، ووحدانيته وازدواجيته الروحية . . . . ان نموذج التدخل يزعم ان ما خلقته هذه الروح المتفوقة كان صورة لنفسها ولكن ليس بالهيئة الجسمية بل بالقابليات العقلية . . . وبواسطة تكييف أفضل هيئة جسمية موجودة ، وهي الانسان القديم ، فانها خلقت سماتها الشخصية ، كلٌ من خلال طريقٍ الى الواقع غير المرئي الذي وُلدت منه . . . وقد يستعمل الانسان امكانياته الخلاقة أحياناً من خلال أحلامه وفنه ولحظاته العلمية الصافية والشامانية(*) لكي يدخل الى الواقع الذي تسكنه هذه الروح المتفوقة) . ويخبرنا

---

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٤ .

(*) دين بدائي من أديان شمال آسيا وأوربا يعتقد بوجود عالم محجوب ويؤمن بوجود الآلهة والشياطين وأرواح السلف .

(كـودمان) عن عـدة نظريـات عن ماهيّـة هذه الـروح المتدخلة . ومعـظم هذه النظريات أقرب الى الخيال من العلم . فاحداها تقول أنها روح أتت الى الأرض بواسطة سفينة فضائية من جرم آخـر . واخرى تقـول ان[1](المتدخـل عبارة عن أرواح من واقع آخر زارت الأرض لتجـرب خواص الأرض الاستثنـائية . وعـلى حد زعم هذه النظرية فان هذه الأرواح اتخذت لها مـركباً خـلال الناس القـدماء الموجودين للتمتع بالملذات الجسدية كالخمر والنساء والغناء . وبعـد ليال عـديدة من الصخب والعربدة الكثيـرة وجدت هـذه الأرواح نفسها محبـوسة في مـركبتها المادية . والتحرير الوحيد لها كان خـلال الموت ، ولكن لأنها أصبحت مـدمنة ، فـان كثيراً منهـا أصر على الـرجوع بـواسطة التنـاسخ(**)لـركبة واحـدة فقط ثم اخرى ، ثم اخرى . وبعـد ان أحست انه ليس هنـاك مفر بـالنسبة لهـا من هذه الحلقـة المفرغـة ، قررت بعض هـذه الأرواح أن تبـدأ بـالعمـل لتغيـير مضيِّفهـا الانساني لايجاد مركبات جسمية أفضل تستطيع من خلالها أن تتخلص في النهـاية من الانجذاب المغري للمـلاحقات الأرضيـة . وهذا قـد يفسر لماذا ان الانسـان الحديث ، ومع خصائصه العـالية ، يبـدو لا زال ممزقـاً بين الـواقعين) . ونحن نسأل : أي علمَ هذا ؟ وهل هو علم أم خيال أقرب الى الجنون في تفسير الحيـاة والعقل ، هذه الظواهر العظيمة ؟

ان هذه النظرية (وهي مستمدة من نظرية افلاطون في الـروح) تعاني من نقاط ضعف لا تحصى ، وتترك الكثير الذي بحاجة الى تفسـير . ويمكن للفرد أن يسـأل اسئلة كثيـرة ، من أين أتت هـذه الأرواح ؟ ولمـاذا تـوقفت عن المجيء ؟ وكيف تمكنت من تـطوير جسم الانسـان ؟ وكيف دخلت الى جسمـه ؟ ولمـاذا لا تستطيع الخروج حتى الموت ؟ فهي تستطيع أن تخرج كما دخلت !! وكيف تتكاثر

---

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٩ .

(**) يقصد تناسخ الأرواح ، أي احلالها في اجسام جديدة .

بعـدد تكـاثـر النـاس ؟ ومن خلقهـا في المقـام الأول ؟ ولمـاذا تغـريهـا الملذات والشهوات ؟ وهل كان الانسان القديم يعرف الخمر والنساء والموسيقى ، أم أن هذا تصور من الواقع الغربي معكوساً على الماضي ، وكأن الانسان الغربي يتصور العالم كله على أساس نفسه وملذاته ، وان الناس كلهم يعيشـون مثله ويفكرون بشهوانية مثله ؟ ان مشكلات الناس غير المؤمنين بالخالق عظيمة . فهم يصدقون خـرافات كهـذه ، ولكنهم لا يؤمنون بـالحقيقة المنـطقية الـوحيدة التي تحـل جميع المشـاكـل ، وهي ان الله هـو الخـالق . و (كـودمـان) يعبـر عن حيـرة العلماء وضلالهم بكل وضوح عندما يقول[1](واعتماداً على المعلومات الجديدة القادمة من عدة حقول علمية مختلفة ، فان نظرية التدخل الآن معقولة بقدر نـظرية التـطور لتفسـير أصل الانسـان الحديث وظهـوره المفـاجيء . وبسبب عـدم وجـود أدلـة مبـاشرة لأي من النـظريتين ، فـان الاعتقاد بـأي منهما يتـطلب مقداراً معينـاً من الايمان) . اذن ، وفي النهاية ، نصل الى الحقيقة التي أخفاهـا علماء التطور عـلى النـاس لأكثر من قـرن من الزمـان ، وهي أن المسـألـة لا عـلاقـة لهـا بـالعلم أو بالحقائق العلميـة ، وإنما هي مسـألة ايمـان بقضية معينـة بالـرغم من عدم تـوفر الأدلـة لتبرير هـذا الايمان . وفي هـذه الحالـة فانـه من الواضـح اننا لسنـا ملزمين بقبولها . وتحت هذه الظروف فاننا نسأل : ما هو الفرق بين الايمان بالتطور بهذه الطريقة ونـظرية الكنيسـة القائلة أن الله لا يمكن أن يعـرفه العقـل ، ولكنه نـور يُلقىٰ في القلب ؟ وبالنسبة لأولئك الذين تخلّوا عن الايمان بالله ، بمـاذا يؤمنون ؟ انهم يؤمنـون بنظريـة التـدخـل ويعتبـرونها معقـولـة !!! ولكن من خلق الـروح المتدخلة ؟ واذا كانت هذه الروح بالذكاء الخارق الذي يصفونه لماذا تعبث هكذا بدون غاية ؟ ولماذا تجعل الناس يقتل بعضهم بعضاً في الحـروب ؟ ولماذا ان هـذه الروح الفائقة الذكاء اذا بقيت بدون تعليم تصبـح جاهلة كـالحيوانـات وتنكص الى جهل تام تقريباً ؟ وما هو اختـلاف اسلوب ايمان العلماء بـالتطور عن اسلوب

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٢٨٠ .

ايمان الكنيسة بـالله ؟ كلاهمـا يؤمن بدون استخـدام الأدلة العقليـة . وهذا يبـين بـوضوح التخبط الفكـري الذي يعيشـه الانسـان الغـربي بـالـرغم من تقـدمـه التكنولوجي ، وأنها لحقيقة رهيبة لا يعلمها الآخرون ، خـاصة المسلمـون الذين يمتلكون أعظم فكـر على وجـه الأرض ومع ذلـك فانهم مبهـورون بهذا الانسـان الأبيض الجاهل ، الذي كان جاهلاً على مر التاريخ عـدا بأمـور الدس والخـداع والتآمر على الناس والرذيلة والجرائم الجماعية بحق البشرية .

ويستمر (كودمان) بالقول[1] (لقد بـدد العلم اكثر من قـرن من الزمـان متابعاً نظرية تطور الانسان ، وكلما تجمعت معلومات اكثر كلما أصبحت النـظرية أقل اقناعاً . ولا يمكن للفرد الا ان يتسـاءل : ماذا ستكـون النتيجة اذا تـواصل البحث الآن عن نـظرية التـدخل ؟) وجـوابنا عـلى ذلك هـو الآتي : أن العلماء يبذلون مزيداً من الوقت والجهود كما فعلوا مع نظرية التطور ثم ينتهون الى مأزق ونهاية مسدودة مشابهين لـذالكما اللذين انتهـوا بهما مـع التطور . ونحن نـرى أن المشكلة الـرئيسيـة التي تـواجـه العلماء اليـوم هي المعتقـدات غـير المتمـاسكـة لـلانجيل . ولكن اذا استـطعنـا أن نشـير الى حـل هـذه المعضـلات (بـالنسبـة للغرب) فان فكرة (الله الخالق) تصبح الفكرة الوحيدة المقبولة .

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ٢٨٠ .

الباب الثالث

وجود الروح والخالق



الفصل العاشر

الزمن والسؤال :

لقد رأينا في الفصول السابقة أن نظرية التطور لا تقف على قاعدة صلبة ، وأن الأدلة العلمية الحديثة تشير الى أن الحياة جاءت نتيجة للخليقة . وهنا فان القضية بالنسبة للمفكر الأوربي والمفكر المادي ترجع الى نفس المشكلة التي صادفها غيره قبل بضعة قرون ، والذين عندما لم يستطيعوا حلها تركوا فكرة الله والتجأوا الى فكرة التطور لعلهم يجدون الجواب هناك .

وتطرح الاسئلة القديمة نفسها مرة اخرى ، منها : من الذي خلق الله ، وهل يستطيع الله أن يميت نفسه ، وما معنى أن الله على كل شيء قدير ، وما هي الروح ، وكيف تعمل وغير ذلك من الاسئلة .

في الفصول القادمة ، سوف نحاول الدخول في عمق هذه الاسئلة ، وأسئلة أخرى، للاجابة عليها والانتهاء برسم صورة أوضح عن الحقائق التي تخص الروح ، والحياة بعد الموت ، والله الخالق للكون . وسنحاول الدخول في موضوع الزمن والمكان ومعناهما بصورة مختصرة في هذا الفصل في محاولة لتوضيح حقيقة أن الزمن ليس سوى قانوناً من قوانين كوننا ، ويستمد وجوده من وجود

المادة . وهذا سيفتح الطريق أمامنا للاجابة على الأسئلة التي طالما كانت مستعصية على كثير من المفكرين .

الزمان والمكان :

كثيراً ما نسمع ان (اينشتاين) اكتشف واحداً من قوانين الفيزياء المعقدة في هذا القرن ، وهذا القانون ينص على أن الزمن متغير ، وهو البعد الرابع . فماذا يعني ذلك ؟

في الواقع ان هذا الموضوع لا يفهمه سوى قليل من الناس المتبحرين في علم الفيزياء بسبب صعوبته وصعوبة تصوره . وسنتطرق هنا الى هذا الموضوع باختصار ، وبعيداً عن الرياضيات المعقدة ، في محاولة لتوضيح معنى الزمن وكيف يتغير .

الزمن عبارة عن ظاهرة يمكن أخذها بنظر الاعتبار من زاويتين . الأولى هي الزمن المقاس بواسطة المشاهد الساكن بالنسبة لحادثة ما ، أي المشاهد الذي يسير بنفس سرعة الحادثة واتجاهها ، فهو ساكن بالنسبة لها (والحادثة هي أي حدث مثل لقاء شخصين او اصطدام سيارتين أو انسان يقرأ أو حشرة تطير الخ والمشاهد هو الذي يشاهد ذلك) . ومثال على هذا النوع من الزمن اذا حدثت حادثة على الأرض وسجلنا وقت حدوثها والزمن الذي استغرقته الحادثة فيكون هذا الزمن مسجل من قبل المشاهد (الذي هو نحن) والذي يسير في نفس اتجاه وسرعة الحادثة ، فكلانا على الكرة الأرضية . الثانية هي الزمن المقاس من قبل المشاهد المتحرك بالنسبة للحادثة . فالحادثة اعلاه اذا سجلت من قبل مشاهد يسير بسرعة عالية ويمر قرب الكرة الأرضية ، فان وقت حدوثها والزمن الذي تستغرقه الحادثة يختلفان عن الزمن الذي يُسجَّل من قبل المشاهد الساكن بالنسبة للحادثة . ومثال ذلك اذا كنت تدخن سيجارة واستغرقت خمس دقائق في ساعتك لتدخينها بأكملها ، فان المشاهد المتحرك بالنسبة لك والذي يسير مبتعداً

عنك سوف يرى ان السيجارة استغرقت زمناً أطول (على سبيل المثال سبع دقائق ، الا أن هذا الزمن في الحقيقة يعتمد على سرعة المشاهد بالنسبة لك) في ساعته لكي تحترق بأكملها . وكلاكما صحيح وليس هناك خطأ في أي من الساعتين ، بل كلاهما صحيحتان . واذا عشت خمسين سنة ، فبالنسبة الى مشاهدنا هذا فان عمرك سبعون سنة ، أي أنك في رأيه عشت سبعين سنة وليس خمسين سنة ، وهو صحيح وأنت صحيح أيضاً لاعتقادك أنك عشت خمسين سنة وليس هناك خطأ ، فكيف يحدث ذلك ؟

ان الجواب على هذا السؤال ليس معقداً جداً ، ذلك ان الزمن يعتمد على سرعة الضوء . ولكن ماذا يعني ذلك ؟ في الواقع ان أسهل طريقة لفهم هذا الموضوع هي الآتية . ان المشاهد يسجل الحادثة عندما يراها ، أي عندما يصله الضوء . فاذا كان يبتعد عنك بسرعة كبيرة فان الضوء الصادر منك سوف يأخذ وقتاً أطول للوصول اليه كلما ابتعد ، وهكذا فانه لا يرى الحادثة التي تحدث عندك الا بعد فترة من الزمن ، وهذه الفترة تكبر كلما ابتعد عنك وذلك لأن الضوء يأخذ وقتاً أطول للوصول اليه ، أي انه لا يرى الحادثة في وقت حدوثها ولكنه يراها بعد فترة من الزمن تعتمد على مكانه الآني بالنسبة لك وسرعته التي يبتعد بها عنك . لذا فانه اذا سجل بداية تدخينك لسيجارتك عندما يمر قربك ، فانه سوف لن يراها في اللحظة التي تنتهي فيها لأنه في تلك اللحظة سيكون في مكان يختلف بالنسبة لك وفي حالة ابتعاد عنك ، وبسبب سرعته فان الضوء يستغرق زمناً أطول لكي يصله ، وفقط بعد ان يصله الضوء فانه سيرى ان السيجارة انتهت . وهنا فاننا نرى ان حادثة معينة استغرقت زمناً معيناً بالنسبة لمشاهد ، وزمناً آخر بالنسبة لمشاهد أخر . وبذلك فان الزمن قد تغير .

ولتوضيح تأثير الضوء على الزمن نذكر المثال التالي : نفرض أن هناك جرماً سماوياً يبعد عنا مسافة كبيرة جداً ، ولنفرض أنها تسعاً وأربعين سنة ضوئية . أي انه على مسافة بعيدة جداً بحيث ان الضوء الصادر منا يستغرق

تسعاً وأربعين سنة ضوئية لكي يصله ، وكذلك فان الضوء الصادر منه يستغرق تسعاً وأربعين سنة ضوئية لكي يصلنا . فاذا كان هناك شخص جالس في هذا الجرم وينظر الى الأرض بتلسكوب فانه لا يرى الحوادث التي تحدث على الأرض الا بعد تسع وأربعين سنة . ولذا فان هذا المشاهد اذا كان ينظر الينا فانه سيرى حرباً تدور على الأرض ، وهي الحرب العالمية الثانية . وليس هناك ما يدل له على أن هذه الحرب انتهت لأن الضوء الذي صدر عن الكرة الأرضية والذي يدل على أن الحرب قد انتهت لم يصله بعد . لذا فهو لم ير شيئاً منه بعد .

ولنتطرق الآن الى موضوع آخر يساء فهمه من قبل معظم الناس ، وهو المكان . فانت اذا كنت جالساً في الزاوية اليمنى من الغرفة فانك تشغل ذلك الحيز من الفضاء الموجود في الزاوية اليمنى من الغرفة . فاذا قمت وجلست في الزاوية اليسرى من الغرفة فانك قد غيرت الفضاء الذي يشغله جسمك ، أو هكذا يبدو لك لأن جدران الغرفة وزواياها والكراسي والدار والشوارع الخ كلها بنفس المكان الذي كانت فيه دائماً . ولكن الحقيقة هي أنها كلها في مكانها بالنسبة لك ، وبالنسبة لبعضها بعضاً ، إلا أنها كلها في حركة دائمية في الفضاء لأنها كلها على الأرض والأرض تدور في الفضاء . لذا فان الفراغ الذي يشغله الدار والشوارع الخ بتغير مستمر ، والذي معناه ان الفراغ الذي يشغله جسمك في تغير مستمر أيضاً ، وليس هناك سكون . وبالنسبة لك فان اعتقادك انك تتحكم في الفراغ الذي يشغله جسمك عندما تتحرك من احدى زوايا الغرفة الى زاوية اخرى ليس سوى وهماً وسوء ادراك للحقائق . فليس هناك من يستطيع التحكم بالفراغ الذي يشغله جسمه مثلما انه ليس هناك من يستطيع أن يسيطر على الزمن ، فكلاهما متغيران ويمران عبرنا دون سيطرة لنا عليهما . وقد بينت علوم الفيزياء الحديثة ان الزمان والمكان شيء واحد ومظهريهما المختلفين يعتمدان على المشاهد .

والسبب في اعتقادنا بأننا نستطيع أن نتحكم في الفراغ هو لأننا ساكنون

نسبة الى الكرة الأرضية ، وعندما نتحرك من زاوية الى اخرى ثم نتوقف فاننا نتوقف نسبة الى الكرة الأرضية والأشياء التي عليها .

ان اجسامنا تشغل فضاءاً معيناً في زمن معين . وكلاهما متغير باستمرار . فنحن وما حولنا عبارة عن موجودات تشغل مكاناً معيناً في وقت معين . أو بكلمة أخرى كل شيء عبارة عن حوادث تحدث في اماكن معينة في أوقات معينة . فوجود الشيء عبارة عن حدوثه في مكان معين في زمان معين . والمكان والزمان يختلفان بالنسبة للمشاهد اعتماداً على مكانه وزمن تسجيله للحادثة. اي اعتماداً على احداثيات المكان والزمان له . وهذا ما يسمى بنظرية الزمكان .

لذا لا يمكن تحديد شيء معين دون تعيين الوقت ايضاً من جانب المشاهد وتعيين الاحداثيات للمشاهد الذي يقيس مكان وزمن ذلك الشيء بالنسبة الى هذه الاحداثيات . فاختلاف المشاهد معناه اختلاف كل شيء . فنقول ان القمر في مكان كذا في وقت كذا بالنسبة لنا على الأرض ، ولا يمكن القول ان القمر في مكان كذا فقط . واذا قيل ذلك فانه مغالطة لا يقبلها الفيزيائيون وعلماء الفلك . فالمكان وحده غير كافٍ لتعيين حادثة معينة . وهذه الحقيقة موجودة حتى في حياتنا الاعتيادية ، فتقول كنتُ في مكان كذا في الساعة كذا ، ولا يمكنك القول كنتُ في مكان كذا فقط لان السامع يريد معرفة وقت وجودك في ذلك المكان .

ولتسهيل حساب تتابع الحوادث اتخذ الانسان بعض المقاييس لقياس الزمن هي الأيام والسنين والساعات الخ كما اتخذ مقاييساً لقياس الفراغ (الطول والعرض والارتفاع) هي الامتار والكيلومترات الخ . ولتثبيت الحوادث لدينا نعطيها احداثيات المكان والزمان ، وهي احداثيات بالنسبة لنا ولمحورنا لأن مشاهداً آخر يسير بسرعة اخرى سوف يعطي احداثيات زمان ومكان اخرى مختلفة لنفس الحوادث ، وكلانا على صواب . ويستطيع الانسان ان يتصور تغير المكان أو الفراغ ولكن تغير الزمن ، كأن يكون اسرع أو ابطأ ، فان تصوره

يصعب عليه بسبب تعوده على عدم مقدرته السيطرة على الزمن كما يسيطر على المكان . وسبب ذلك سرعتنا البطيئة بالنسبة لسرعة الضوء .

لغز التوأمان المتناقض :

نفرض أن توأمين يولدا ، وفي لحظة ولادتهما يترك احدهما على الأرض ويوضع الآخر في مركبة فضائية تتحرك بسرعة متسارعة (أي ذات تعجيل) قريبة من سرعة الضوء . وبعد سنة من زمننا ترجع المركبة الفضائية الى الأرض . فهل سيكون التوأمان بنفس العمر ؟ سؤال يبدو غريباً !! لأننا نتوقعهما أن يكونا بنفس العمر طبعاً ، ولكن الحقيقة ليست كذلك لأن احدهما سيكون أكبر عمراً من الآخر . فكيف يحدث ذلك ؟ الجواب على هذا السؤال معقد جداً ، ولكننا سندخل في محاولة مبسطة لشرح الموضوع وملابساته .

عندما تترك المركبة الفضائية الأرض فان الأرض لا تبقى في مكانها لأنها في حركة مستمرة في الفضاء . لذا فان ما عندنا هو الآتي : الأرض والمركبة الفضائية تلتقيان في المكان (أ)، ثم تفترقان ، ثم تلتقيان مرة أخرى في المكان (ب) . ولما كان الزمن يعتمد على المشاهد ، وكما ذكرنا سابقاً فانه ليس من الصحيح تعيين المكان فقط بل علينا أن نعين المكان والزمان ، ولذا يجب أن نقول أن الكرة الأرضية والمركبة الفضائية التقتا في المكان (أ) في زمن معين ، ثم مرة اخرى في المكان (ب) في زمن آخر . أي انهما التقتا في الحادثة (أ) ثم في الحادثة (ب) على محور الزمان ـ مكان (المسمى محور الزمكان) لاحظ ان الحادثة توصف بواسطة مكان وزمان .

نفرض الآن اننا نأخذ خطين (أو مسارين) بين نقطتين على الأرض (التي هي كروية) ، وعلى سبيل المثال القاهرة وطوكيو . وسؤالنا هو أي المسارين أقصر ؟ الجواب يمكن ايجاده بتقسيم كل مسار الى مقاطع متتابعة تتكون من خطوط مستقيمة قصيرة ، ثم نجمع أطوال جميع هذه المقاطع للحصول على

الطول الكلي للمسار . والمسار الذي يمتلك طولاً أقصر هو المسار الأقصر . ومثال التوأمين يمكن تحليله بطريقة مشابهة بواسطة تقسيم مسار الأرض في محاور الزمكان ومسار المركبة الفضائية في محاور الزمكان أيضاً الى أقسام متتابعة تتكون من مقاطع مستقيمة (لاحظ ان التقطيع ليس في الفراغ ولكن في محاور الزمكان ، فتخيل) ، ثم نستعمل « متري » الزمكان لحساب الزمن المستغرَق الكلي الذي يقترن مع كل من المسارين . وكما أن المسارين على الكرة يمتلكان أطوالاً مختلفة فان الحركات المختلفة بين حادثتين (تقعان على محاور الزمكان) تستغرق أوقاتاً مختلفة . وهذا معناه أن الكرة الأرضية والمركبة الفضائية تستغرقان زمنين مختلفين للتحرك من (أ) الى (ب). اي أن الأرض سوف تستغرق زمناً معيناً (نسبة الى قياساتها للزمن) للانتقال من (أ) الى (ب) ، بينما المركبة الفضائية تستغرق زمناً مختلفاً (نسبة الى قياساتها للزمن) للانتقال من (أ) الى (ب) . لذا فان التوأمين سيمتلكان عمرين مختلفين . وللتعرف على ذلك ندخل في الموضوع التالي :

يُعرَّف «متري»الزمكان بانه معادلة الزمكان للفترة بين حادثتين قريبتين. وتعرّف فترة الزمكان كما يلي : اذا كانت حادثتان قريبتان (اي أنهما حادثتان تحدثان قرب بعضهما بعضاً في الفراغ واحداهما تلي (تتبع) الأخرى بعد زمن قصير جداً) تفصل بينهما مسافة صغيرة جداً (م) في الفراغ ، واحداهما تحدث بعد الأخرى بزمن قصير جداً (ز) ، فان الفترة الزمكانية تعرف على أنها (أ^{٢} ـ ز^{٢}) حيث أ = $\frac{م}{س}$ ، س = سرعة الضوء . والفترة الزمكانية ليس لها دور في حياتنا الاعتيادية ولكنها مهمة عند التعامل مع الفيزياء النووية .

في الزمكان ، ليس هناك مفهوم مثل « بنفس الوقت » أي ان مفهوم التعاصر لا يوجد . وبدلاً من ذلك تستعمل مفاهيم مثل « شبه الزمان » Timelike» و « شبه المكان » Spacelike « والصفر (أو شبه الضوء)» Null (or Light like)

فالحوادث في الزمكان التي يمكن ربطها بعضها ببعض (اي أنها بامكانها أن تصل الى بعضها بعضاً) تسمى حوادث « شبه الزمان ». وهذا معناه انه باستطاعة مشاهد غير متسارع (أي لا يسير بتعجيل ، فأما أن يكون ساكناً أو متحركاً بسرعة ثابتة) ان يكون حاضراً في كلتا الحادثتين المتتاليتين (وفي قياساتنا العادية تسمى الحوادث غير المتعاصرة) .

والحوادث التي لا يمكن ربطها بعضها ببعض تسمى حوادث « شبه المكان ». وهذا معناه انه بالامكان ايجاد مشاهدٍ ما ليس باستطاعته أن يكون في كلتا الحادثتين المتتاليتين . (وفي قياساتنا الاعتيادية تسمى الحادثتان متعاصرتين) .

والحوادث التي يمكن ربطها بعضها ببعض بواسطة اشارة ضوئية (أي انه بالامكان ارسال إشارة ضوئية من احداهما الى الأخرى) تسمى حوادث « شبه الضوء ». وهذا معناه أن الفترة الزمكانية تساوي صفراً .

والتعاريف الأساسية صحيحة لأن هناك سرعة قصوى لا يستطيع الجسم المادي أن يصلها (وهي أقل من سرعة الضوء دائماً) .

التعريف الآخر المهم يسمى « الجيوديسي » وهو الخط الذي يمتلك أقل تحدب . لذا فان اقصر مسار بين نقطتين على الكرة هو الجيوديسي .

والآن نتطرق الى الموضوع المهم .

ان مسار الضوء في الزمكان يوصف بواسطة جيوديسي الصفر (أي جيوديسي شبه ـ الضوء) . والمشاهدون غير المتسارعين هم اولائك المشاهدين الذين يسيرون على جيوديسات شبه ـ الزمان على متري الزمكان (انظر تعريف المتري) . وهذا معناه أن اكثر الحركات استقامة بالنسبة لمشاهد في الزمكان هي الحركة غير ـ المتسارعة .

وفي الزمكان ، فان المسار الذي يمتلك أطول زمن بين حوادث مرتبطة

شبه ـ زمانية هو جيوديسي شبه ـ زمان . وهذا يوصف على أنه الكسل الزمكاني ، أو كسل الزمكان . أي ان الحوادث غير ـ المتسارعة تتحرك ببطء شديد . فهي تأخذ أسهل المسارات في الزمكان والتي تستغرق أطول الأوقات . من ذلك يتضح أن التوأم الذي يوضع في المركبة الفضائية سيكون أصغر سناً من التوأم الذي يترك على الأرض لأن الأرض ، وكأي جرم سماوي ، تتحرك بحركة غير متسارعة ، لذا فانها تستغرق وقتاً أطول للذهاب من (أ) الى (ب) .

عودة الى الزمن :

يتضح لنا مما جاء سابقاً ان الزمن متغير ، وبالامكان أن يكون طويلاً أو قصيراً اعتماداً على سرعة المشاهد . ونظرياً ، اذا تحركنا بسرعة أعلى من سرعة الضوء فاننا نستطيع أن نتحكم بالزمن . ولكن وجد انه ليس بامكان أي جسم مادي أن يصل الى سرعة الضوء مهما كان عِظَم القوة التي تدفعه . وهذا هو أحد قوانين كوننا . ولكن هذا القانون لا يسري داخل الأجرام السماوية المسمات « الثقوب السوداء ». فقوانين الفيزياء التي نعرفها لا تستطيع أن تصف لنا ما يحدث داخل هذه الأجرام .

ان الأوقات التي نقيسها تعتمد على سرع المشاهد والحادثة المقاسة والضوء . والضوء عبارة عن طاقة على شكل جسيمات صغيرة تسمى الفوتونات . وهذه الفوتونات تسير بسرعة هائلة (٣٠٠,٠٠٠ كم / الثانية) بحيث لا يوجد هناك جسيم آخر في كوننا يسير بهذه السرعة . فهذه السرعة هي حدود حركة المادة في كوننا . لذا فان هذا الحد هو أحد حدود المادة الموجودة في كوننا . وهذا الحد لا ينطبق على ما هو (لامادي) .

وتمتلك الفوتونات خواص المادة والموجات معاً . ويمكن النظر اليها على أنها جسيمات مادية تمتلك كتلة مكافئة معينة ، أو موجات بأطوال مكافئة معينة . وفي الوقت الحاضر فاننا نعرف انه بالامكان تحويل المادة الى طاقة

وبـالعكس ، وأن الهيئة المـادية للذرة هي في الحقيقـة عـدد كبـير من الجسيمـات الأصغـر التي تـظهـر وتختفي بـالتحـول من شكـل الى آخـر . كـذلـك فـان الالكترونات والبروتونات والنيوترونات لم تعد تعتبر أصغر مكونات الذرة . فكل واحد من هذه المكونات عبارة عن عالم بحد ذاته يتكون من مكونات أصغر وهي في تغير وتحول مستمـر ، وهذه المكـونات تـظهر وتختفي عـلى شكل حـوادث ولا يمكن تحسسها اكثر من ذلـك . ولا يزال البحث مستمـراً لمعرفـة المزيـد عن هذه الجسيمات . وقد تكون كل واحدة من هذه الجسيمات عالماً بحد ذاته ، اذ كيف يتم التحول فيها من شكل الى آخر !! وبامكاننـا أن نذهب أصغـر فأصغـر حتى نصل الى الوجود اللامادي ، وهو شيء لا يمكننـا تصوره بـطبيعة الحـال ، ولكن بامكاننا أن نفرض ، وبطمئنينة ، انه يشكل مكـونات الـطاقة . أي أننـا نتعمق أصغر فأصغر في الحجم والنوعية من المادة الى الطاقة الى اللامادة (وقد لا يكون هذا التصور صحيحاً ، فلا أحد يعرف ماهية الشيء اللامادي) .

وعنـدما نصـل الى عالم الجسيمـات الصغيرة والمكـونـات الأسـاسيـة فـان باستطاعتنـا أن نتكلم فقط عن حوادث تقـع في أماكن معينـة في أوقات معينـة . والمكان الذي لا تحـدث فيه الحـوادث في زمن معين يسمى الفـراغ . والفراغ لا يعني انه لا يوجد شيء (اي لا يعني العدم) لأن الفراغ يمتلك مكونـاته الخـاصة التي تجعله فراغاً وجزءاً من الوجـود (وليس عدمـاً) . والحادثـة عبارة عن تـأثير معين في مكان ووقت محددين . وهذا ينطبق على الفوتونـات بطبيعـة الحال ، أي على الضوء . لذا فان الضوء جزء من الوجود المادي لأنه ينشـأ في داخله وينبعث منه . لذا نستنتج انه لو لم يكن الوجود المادي موجوداً لما كانت هناك فوتـونات ، ولما كان هناك ضوء ، ولما كان هنـاك قياس للزمـان أو المكان ، ولمـا كان هنـاك شيء (لا زمان ولا مكان) .

ما هو الزمن اذن ؟

ليس من السهل الإجابة على هذا السؤال ولكننا بطبيعة الحال نستطيـع أن

نفرض انه نـوع من الوجـود ، وقانـون مخلوق ، ويتغير مقـداره مع تغـير سرعـة المشاهد . وكذلك فانه يعتمد على سرعة الضوء التي تعتبر ثـابتة بـالنسبة لجميـع المشـاهدين سـواءاً كانـوا متسارعـين أو غير متسـارعين . وقـد يبدو هـذا صعب التصور (وهو فعلاً كذلك) ولكن الفروق بين سرع المشاهدين المختلفين يعوض عنها باختلافهم في تحديد التعاصر (لحدوث الحوادث) بحيث أن سـرعة الضـوء تبدو دائماً نفسها بالنسبة لجميع المشاهدين مهما كانت كيفية حركتهم .

الزمن اذن ليس شيئاً ازلياً كما قد يظن بعض الناس . فعندما لم تكن المادة موجودة لم يكن الضوء موجوداً ولم يكن الزمن موجوداً أيضاً . والضوء عبـارة عن طاقة ، لـذا فانـه تأثـير معين في الـوجود . والـزمن عبارة عن متغـير يعتمد عـلى سرعتي الضوء والمشاهد . لـذا فان الـزمن ليس سوى تـأثيراً آخـر في عالم المـادة والطاقة . وبصورة أكثر أساسية فانه نوع من الوجود . وهو ليس شيئاً أزلياً . ولو فني الوجود وأصبح عدماً فان الزمان والمكان ينعدمان أيضاً . وقـد يكون تصـور انعدام المكان أكثر سهولة (لأننا نستطيع أن نتصـوره ينكمش الى نقطة صغيـرة) ولكن تصور انعدام الزمن أكثر صعوبة .

وتقول لنا النـظرية النسبيـة أن الزمـان والمكان ليسـا سوى شيئـاً واحداً ، وشعورنا بمقدار كل واحـد منهما يعتمـد على سـرعة حـركتنا بـالمقارنـة مع سـرعة الضوء . ولو تحركنا بسرعة أعلى من سرعة الضوء فـاننا سـوف نستطيـع أن نرى المـاضي والمستقبل . وسبب ذلـك أن المستقبل مستقبـل لأن الضوء لم يصلنـا منه بعد ولذا فليس باستطاعتنا معرفته بعد ، والماضي ماضي لأن الضوء منه كان قد وصلنا ولذا فـاننا علمنـاه . فاذا استـطعنا أن نتحـرك أسرع من الضـوء سيكون باستطاعتنا أن نذهب الى الامام (من ناحية الزمن) لكي نـرى الحوادث التي لا زالت لم تصلنا بعد لأننا لسنا مجبرين على انتظارها حتى تصلنا ، بل نحن نـذهب اليهـا . أي أننا نستـطيع أن نـرى المستقبـل نسبـة الى حـالتنـا . ولنـأخـذ مثـلاً حـادثتـين (أ) و (ب) (لاحظ أننـا هنـا نتكلم عـن الحـوادث في محـاور

الزمكان) . نفرض أن الحادثة (أ) تمتلك محاور زمكان وتحدث قبل الحادثة (ب) من ناحية الزمن . فاذا بقينا في الحادثة (ب) فان الحادثة (أ) ستكون المستقبل بالنسبة لنا لأننا يجب أن ننتظرها حتى تصلنا . ولكن اذا كان باستطاعتنا أن نتحرك بسرعة أعلى من سرعة الضوء سيكون بامكاننا الوصول اليها في لحظة حدوثها ، أي اننا سنستطيع رؤية المستقبل . ولما كانت الحوادث متتالية الواحدة بعد الأخرى من ناحية الزمن ، فاذا استطعنا أن نتحرك بالسرعة الكافية (في الزمكان) فاننا سوف نتمكن من رؤية الحوادث قبل أن تحدث ، وأثناء انتظارها في طابور الزمن (كما قد يمكننا أن نتصور) . وكذلك بامكاننا أن نرجع الى الوراء في الزمن لرؤية الحوادث الماضية لأنها مخزونة في طابور الزمن بعد حدوثها . وفي الواقع يمكننا أن نتصور أنفسنا والحوادث كما يلي من ناحية الزمن : أما أننا ساكنون والحوادث تمر علينا (أي ان الزمن يمر علينا وهو ما يحدث لنا في حياتنا الاعتيادية) وذلك عندما تكون سرعتنا أبطأ من سرعة الضوء ، أو أن الحوادث تنتظر (أو مخزونة) في طابور ونحن نمر عليها ذهاباً واياباً (من ناحية الزمن) وذلك عندما تكون سرعتنا أعلى من سرعة الضوء .

وكل هذا يحدث اذا كان الكون موجوداً (أو بكلمة أخرى اذا كان الوجود الذي نعرفه موجوداً) . فاذا لم يكن كوننا موجوداً فان الزمن سوف لن يكون موجوداً ايضاً . فالزمن لم يكن موجوداً قبل وجود الكون . وأي شيء موجود قبل انبثاق الكون ، أي قبل انبثاق الزمن لا يخضع لعامل الزمن . ونحن نستعمل كلمة قبل لا لتعني التسلسل في الحوادث لأن ذلك يتضمن زمناً . ولكن المقصود أن أي شيء موجود في عالم خارج عالم الزمن فانه لا يخضع لعامل الزمن . كذلك أن أي شيء موجود في عالم خارج عالمنا وكوننا (أي انه خارج الكون بلا مكان) فانه لا يخضع لقوانينه من ناحية التكوين أو الفراغ ، لأن الفراغ نوع من الوجود الذي يخص عالمنا وما هو موجود خارج هذا الكون لا يخضع له ، أي ليس هناك وجوب بأن يكون على هيئة معينة تشغل فراغاً يشبه الفراغ الموجود في

عالمنا . وعندما نقول خارج هذا الكون فاننا لا نعني أنـه خارج هـذا الكون من نـاحية الـوجود المـادي أو الفراغي أو الحجمي أو الجسمي ، فهـذا التعبير سببه قصور اللغة التي يستعملها الانسان والتي كان قد طورها للتعبير عن حاجاته التي حوله ، ولكننـا نقصد أنـه نوع من الـوجود ليس ضـرورياً أن يحتـاج لأن يشغل حيـزاً ، لأن الحيز من صفـات هذا الكـون ، وذلك الشيء مـوجود بـدون هـذا الكون (وهو المقصود بتعبير لا مكان) ، لذا فهو لا يحتاج أن يتصف بصفـاته أو يخضع لقوانينه ما دام وجوده غير محتاج للكون وفراغه وزمانه . فهو نوع آخر من الـوجود الـذي لا يخضع للزمن ولا للفـراغ لأنه ليس بحـاجة اليهـما مـا دام انـه موجود سواءاً كان كوننا موجوداً أم لا . اي انه موجود سواءاً كان الزمن والفراغ موجودين أم لم يكونا موجودين . ولذا فهو أيضاً لا يخضع لقوانين الكون الأخرى ولا يتأثر بتأثيراتها . فلا تؤثر فيه الحـرارة ولا الجاذبيـة ولا الأشعة ولا الـطاقة ولا أي شيء لأن هذه الأشياء كلها من كوننا ووجدت بوجوده .

والآنْ يمكننا أن نلخص ما جاء ذكره بالنقاط التالية :

ـ الزمان والمكان جزء من وجودنا وكوننا وهما متغيران .

ـ هنـاك نوع واحـد من الوجـود الذي يـظهر عـلى شكل زمـان ومكـان . والزمان والمكان ليسا سوى وجهين من وجـوه هذا الـوجود . وقـد بينت النظريـة النسبية أن الزمان والمكان هما شيء واحد في الحقيقة، ويسمى وحدة ـ الزمكان . وعندما نلاحظ الوجود فان هذه الوحـدة تنقسم ، ويدرك المشـاهدون المختلفـون كميات مختلفة من أجزاء هذه الوحدة (على شكل زمان ومكان) وهـذا معناه أن سرعة حركة المشاهد لها أثرهـا في كيفية ادراك وتحسس الـواقع وكميـات الزمـان والمكان .

ـ اي شيء موجود بدون الحاجة الى عالمنا لا يحتاج الى زمـان ، ومكان ولا يؤثران عليه . ولذا فانه خالد من وجهة نظرنا .

السؤال :

يمتلك الانسان عقلاً مفكراً ، وهذا العقل فضولي الطبع وفيه رغبة جامحة لمعرفة ما يحيط به وما يراه حوله . وتنقسم المعرفة التي يحصل عليها العقل الى نوعين بصورة عامة . المعرفة الأولية أو الأساسية ، وهي المعرفة التي يتلقاها الانسان خلال أحاسيسه كتحسس الحرارة وشم الروائح الخ . والمعرفة الثانوية ، وهي المعرفة التي يركّبها العقل باستعمال المعارف الأولية . ويولد العقل مفاهيم جديدة تقع خارج عالم الأحاسيس بالرغم من أنها قد تكون مستقاة من المعاني التي تجلبها اليه هذه الأحاسيس . وكمثال على ذلك ، اذا سخنا الماء الى (١٠٠) درجة مئوية فان الماء سيغلي . وقد نتحسس هاتين الظاهرتين (التسخين والغليان) بتكرار كثير ولكن أحاسيسنا لن تستطيع معرفة أن التسخين هو سبب الغليان ، وإنما العقل هو الذي يستنتج ذلك . ولكي يحصل على هذه العلاقة السببية فان العقل يجب أن يسأل فيما اذا كانت هناك علاقة بين التسخين والغليان أولاً . فيسأل : لماذا تتبع هاتان الظاهرتان احداهما الأخرى في كل مرة ؟ أو قد يسأل : هل هناك علاقة بين الظاهرتين ؟ وما نريد توضيحه هنا هو أنه بمعزل عن المعلومات الأولية التي نحصل عليها بواسطة حواسنا فان جميع المعلومات الاخرى يركبها العقل بواسطة الاسئلة . وقد يقول البعض ان العقل سيعرف أن سبب الغليان هو التسخين لانه سيرى ان الظاهرتين تتبع احداهما الأخرى . والجواب على ذلك هو أن العقل في هذه الحالة سيتمكن من رؤية ظاهرتين منفصلتين تتبع احداهما الأخرى ، ولكنه لا يتمكن من استنتاج ان احداهما ستسبب الأخرى دائماً . لذا فانه سوف لن يستنتج أن الغليان سيتبع التسخين دائماً . ولكنه يستطيع استنتاج ذلك بعد أن يسأل نفسه : لماذا يتبع الغليان التسخين ؟ ما هي العلاقة بينهما ؟ وقد لا يسأل العقل هذه الأسئلة جهرة ، ولكنه يسألها بصمت أو بمفهوم ادراكي .

فالعقل يسأل ولذا نقول انه فضولي ، ثم يجمع المعلومات الأولية أو

السابقة ويربط بينها للحصول على جواب السؤال . وبهذه الطريقة بنىٰ الانسان نظرية المعرفة ووصل الى ما وصل اليه من العلوم والتكنولوجية . والحديث الذي يظهر وكأنه ليس جواباً على سؤال هو في الحقيقة جواب على سؤال ضمني . فنقول أن عمراً يخبر زيداً بموضوع كذا بالرغم من أن زيداً لم يسأل عمراً عن الموضوع . ولكن عمراً يخبر زيداً بموضوع كذا بالرغم من أن زيداً لم يسأل عمراً عن الموضوع . ولكن عمراً يخبر زيداً لكي يكون الموضوع معلوماً عند زيد فيما لو أراد زيد أن يعرف ، أي فيما لو سأل ، لأن رغبته او احتياجه لمعرفة الموضوع هو السؤال . ووضع معرفة الموضوع عند زيد عبارة عن خزن المعلومات في ذهنه لكي يكون بامكانه استخراجها والاستفادة منها عند الحاجة أو الرغبة ، أي عند السؤال .

لذا يتضح أن معظم، ان لم تكن كل، المعرفة الثانوية يتم الحصول عليها فقط بعد طلبها ، أي السؤال عنها ، ثم معرفة الجواب على السؤال . والجواب قد يكون كلمة واحدة أو كتاباً كاملاً من الشرح والتفصيل . فالسؤال هو الرغبة في الحصول على المعرفة والجواب هو الحصول على المعرفة المبتغاة .

انواع الجواب :

للحصول على المعلومات المعقدة التي نتعامل معها في حياتنا الاعتيادية ، هناك ثلاثة أنواع من الأجوبة الممكنة ، ونوع الجواب المطلوب يعتمد على نوع السؤال الذي يُطرح . وهذه الأنواع هي :

١ ـ الجواب المباشر ، أي اثبات الشيء المطلوب مباشرة ، أو معرفة المجهول بصورة مباشرة ، كأن تسأل شخصاً عن اسمه فيخبرك .

٢ ـ اثبات صحة أو خطأ العكس أو النقيض وعندها نحصل على النتيجة أو الجواب لسؤالنا بأنه خطأ أو صحيح تبعاً لصحة أو خطأ العكس أو النقيض . مثال ذلك انك اذا أردت أن تبرهن أن زوايا المثلث تساوي ١٨٠ درجة فانك

تفرض أنها ليست ١٨٠ درجة ، وهو العكس ، فتصل الى نتيجة خاطئة لا يمكن تصحيحها الا بفرض أنها ١٨٠ درجة .

والمنطق يجمع بين (١) و(٢) اعلاه لأنه سلسلة من الاحتمالات وكل احتمال سؤال وجواب . كما أن عملية الاستقراء التي يقوم بها الذهن وعملية قبول الاحتمالات أو رفضها عبارة عن سلسلة من الأسئلة والأجوبة .

٣ ـ النوع الثالث من الجواب هو اثبات أن السؤال خطأ ، أو ان فيه خطأ منطقياً أو ضمنياً كأن يحمل نقيضه فيه أو يحمل في طياته افتراضات غير مقبولة أو غير مسلَّم بها ، أو افتراضات تعارض جوهر وتعريف الموضوع المسؤول عنه . ولذا فليس هناك جواب على سؤال كهذا لأنه ليس هناك سؤال . وذلك لأننا عندما نسأل سؤالاً ونتوخى جواباً يجب أن يكون هذا السؤال سؤالاً مقبولاً ومنطقياً ولا يتعارض مع التعريف للموضوع الذي تحت البحث ، والا فانه ليس سؤالاً لانه سوف ينافي قاعدة طلب المعرفة ويصبح تبذيراً للوقت والجهود ويصبح عبثاً وهذا مرفوض .

فالجواب تفسير لشيء مبهم يطرح في السؤال ، واذا لم يكن هناك سؤال فليس هناك جواب . ومثال ذلك اننا اذا عرّفنا البقرة بأنها حيوان لا يتكلم ، ثم سأل سائل هل البقرة الفلانية تتكلم اللغة العربية ، فليس هناك جواب على هذا السؤال ، لأن السؤال خطأ منطقي بموجب التعريف ويحمل في طياته افتراض أن هناك احتمالاً بأن البقرة تتكلم وهو ما يعارض التعريف حيث أن البقرة لا تتكلم أصلاً . ولو تصورنا أننا نضع المعلومات التي تخص تعريف البقرة في حاسبة الكترونية ، وضمن هذه المعلومات نضع أن البقرة حيوان لا يتكلم ، فماذا سيكون جواب الحاسبة للسؤال السابق ؟ لا بد وانه سيكون جملة موضوعة في برامج الحاسبة مثل « السؤال غير منطقي »، لأنها سوف لن تجد ما تجيب به على السؤال . واذا ادعى السائل بأنه لا يتضمن في ذهنه هذه الفرضية متعمداً ، فنقول أن السؤال يحمل هذه الفرضية سواءاً عرف السائل ذلك أم لم يعرف ،

وان حمل السؤال لهذه الفرضية الضمنية يجعله في قائمـة الأخطاء المنـطقية التي لا يمكن قبـولها من قبـل العقل السليم . ومثـاله كمثـال السؤال بأي سـرعـة تـطير السلحفاة في حين أن السلحفاة لا تطير أصلاً فأي سـرعة يمكن تـوقعها كجـواب لهذا السؤال ؟ أما اذا قال قائل ولكن الجواب على هذا السؤال هـو أن السلحفاة لا تطير ، فنقول ان هـذا الجواب ليس جـواباً للسؤال أعـلاه . وانما هـو جواب للسؤال التالي : هل ان السلحفاة تطير؟ عندئذ يكـون الجواب أن السلحفـاة لا تطير . أما السؤال بأي سرعة تطير السلحفاة فانـه خطأ منـطقي بموجب تعـريف السلحفاة .

هذا التفصيل لانواع السؤال والجواب يفيـدنا في الفصـل القادم في اثبـات عدم منطقية الاسئلة التي تطرح بخصوص كينونة الله تعالى .



الفصل الحادي عشر

الصفات الالهية :

كانت مسألة الله والروح ، ولا زالت ، موضوعاً طال الجدال فيه بين المدارس الفكرية المختلفة . وهذا الجدال سببه سوء الفهم لبعض المسائل المتعلقة بمفاهيم الوجود العميقة . والنقطة الأساسية في الاختلاف هي العلاقة بين الروح والمادة .

في هذا الفصل سوف نحاول توضيح هذه المسائل ، خاصة واننا الآن نعرف أن الزمن متغير ، وأنه مجرد جزء آخر من عالمنا .

تعريف الله تعالى :

عندما نتكلم عن تعريف الله تعالى لا يمكننا أن نُعرّف ماهيته ، فهذا شيء لا يمكن لأي شيء أن يصل اليه سواه . وما نستطيع أن نتكلم عنه هو صفات الله وكونه خالق كل شيء والمالك لهذا الكون . فنقول أنه خلق كل شيء وانه مطلق الكمال ، وبدون نقص أياً كان نوع هذا النقص ، وانه لا يحتاج الى أي شيء لأن من يحتاج الى شيء خارجي ليس الهاً ذلك لأن الحاجة هي السعي نحو

تعويض خسارة أو شيء مفقود ، والخسارة نقص ، ولكن الله كامل . ويوصف الله تعالى بصفات عديدة مثل العظمة والعدالة والجمال والرحمة والعلم . . الخ وبالقول انه مصدر الخير ، وليس فيه شر لانه ليس بحاجة الى الشر حيث انه خلق كل شيء وقادر على أن يفعل كل شيء ، وهو موجود بدون الأشياء كلها . وهو الخالق الوحيد ، وكل الأشياء الأخرى مخلوقة .

ولكن هناك من يعترض على القول ان صفات الجمال والعظمة والعدالة والرحمة . . . الخ كلها موجودة في الانسان وهو الذي ينسبها الى الله . وهنا يمكننا القول بثلاثة أشياء . الأول ، ان الانسان لا يمكنه أن يصف الله باستعمال مفاهيم لا يعرفها (هو نفسه) . الثاني ، ان الانسان لا يستطيع استعمال أوصاف لا توجد في عالمه لوصف الله تعالى لانه لا يعي هذه المفاهيم ولا يمكن للآخرين أن يفهموها . الثالث ، بما أن الله خلق الانسان على درجة كافية من الذكاء فانه بالامكان ايداع مفاهيم هذه الصفات عنده لكي يستطيع أن يتعرف على الخالق ، وبخلاف ذلك فان الانسان لن يكون قادراً على التعرف على خالقه . وعلى أي حال ، قد يمتلك الله صفاتاً أخرى لا نعرفها لأننا لسنا بحاجة لمعرفتها ، وليس مهماً أن نعرفها لانه ليس من المتوقع أن نعرف كل شيء وليس هناك ما يدعو الى ذلك . وحتى لو عرفناها فاننا سوف لن نفهمها لأن مفاهيم كتلك لا توجد في عالمنا أو في تصوراتنا . ولتوضيح النقطة الأخيرة نضرب مثلاً بسيطاً هو محاولة شرح النظرية النسبية لشخص امي لا يمتلك المعرفة أو الخلفية العلمية التي تؤهله لفهمها . وعلى أي حال ، يمكننا هنا التأكيد على أن صفات الله تعالى التي ذكرناها هي بعض صفاته لأنها لا تناقض ما خلق من الأشياء . وهو الذي وضع بعضها فيما خلق . ولما كان الانسان مخلوقاً واعياً وذكياً فقد استطاع أن يدركها .

هل ان الله مخلوق ؟

من أهم الأسئلة التي تطرح دائماً هو السؤال التالي : اذا كان الله قد خلق

كـل شيء فمن خلق الله ؟ و (برتـراند رسـل) فيلسوف الانكليـز وفخرهم هـو الآخر سأل هـذا السؤال الذي سـأله العـاقل والجـاهل من قـدامى الوثنيـين من قبله . ولما كان الجواب لهذا السؤال مستحيلاً فان المـاديين يتخـذون ذلك تبـريراً معقولاً للاستنتاج الذي ينتهون اليه بأن الله ليس موجـوداً . ولكن تبريـرهم هذا ليس معقولاً أبداً لانه في حالـة استحالـة معرفـة الجواب لهـذا السؤال فان ذلـك بحـد ذاته ليس بـرهانـاً على عـدم وجود الله . وكـل ما يعنيـه هو أننـا لا نعرف الجواب . وعدم معرفة الجواب لأي سؤال كان لا يقود الى استنتاج شيء آخـر . بالاضافة الى ذلك أن الايمان بعدم وجود الله يجب أن يكون نتيجـة لبرهـان عدم وجوده ، وليس فقد عدم المقدرة على برهان وجوده .

ونحن هنا سوف نحاول أن نبحث في تعقيدات هـذا السؤال التي لا يعيها المـاديون بـالرغم من ادعـائهم العلمية . ولكي نفعـل ذلـك نـرجـع الى أنـواع الأجـوبة الممكنـة لـلاسئلة التي تـطرح ، والتي ذكـرنـاهـا في الفصـل السـابق . فالجواب المباشر غير ممكناً لهذا السؤال لاننا لا نعرف كنـه الله تعالى وليس هنـاك من طريق للرجوع بالزمن الى ما قبل خلق الكون لنتعرف على ما كان يحدث قبل خلق الزمان والمكان (ان كان هناك زمان قبل زمننا) ، ولا نستطيع الخـروج من هذا الكون لنرى ما يوجد خارجه (ان كان هناك ما يشبه المكان الذي نعرفه) . النوع الثاني من الجواب هو فرض العكس او النقيض وايجاد حل له ثم استنتـاج الجـواب لسؤالنا . وواضـح أن هذه الحـالة لا تنـطبق على سؤالنـا . بقي النـوع الثـالث من الاجابـة وهو امكـانية أن تكـون هناك افتـراضـات في السؤال تجعله سؤالاً غير منطقياً أو تجعله يحمل تناقضاً .

نـرجع الى تعـريف الله تعالى، حيث قلنـا انه خلق كـل شيء بما في ذلـك المكان والزمان والمادة والطاقة والحياة التي نعرفها على الأرض (وربما حياة أخـرى في مكان آخر) الخ . وعليه فهو لا يخضع لقوانينها لانـه موجـود بدونها لانـه هو الذي أوجدهـا . اذن ان الله لا يخضع للزمـان والمكان . وعنـد تمحيص السؤال

المطروح نستطيع ملاحظة وجود تسلسل زمني متضمَّن فيه ويتضمن أن الله خاضع للزمن . فالسؤال من الذي خلق الله يتضمن أن هناك شيئاً آخر كان موجوداً قبل وجود الله وذلك الشيء هو الذي أوجد الله في فترة زمنية لاحقة . كما أن السؤال يتضمن أن الزمن يسري ليس فقط على الله بل على خالقه الذي نريد معرفته حيث انه لم يكن قد خلق الله في الفترة الزمنية قبل خلقه له . لذا فهو يعيش تحت قانون الزمن الذي يسري عليه أيضاً . والسؤال في الواقع يفرض أن الزمن قانون مطلق وأزلي وليس قانوناً مخلوقاً ، وان الزمن موجود قبل وجود أي شيء وان كل شيء يخضع له . وهذا ليس صحيحاً كما رأينا (في الفصل السابق) ، فالزمن ليس سوى قانوناً واحداً من قوانين عالمنا ومجرد وجه من وجوهه ، وهو عبارة عن تأثير يعتمد على سرعة المشاهد وسرعة الضوء ، ويمكن أن يكون صفراً (نظرياً) ، أي ينعدم ، وكما انه لا يوجد شيء بدون وجود عالمنا ، لا حجر ولا أرض ولا شمس ولا قمر ، ليس هناك زمن .

فالسؤال اذن يتضمن افتراضات خاطئة تجعله خطأ لا يمكن قبوله وليس له جواباً لانه ليس سؤالاً . وهو يشبه السؤال عن سرعة طيران السلحفاة . والماديون عليهم أن يبرهنوا أن الزمن قانون أزلي قبل طرح السؤال . وهم يؤمنون بالعلمية ولكنهم بعيدون كل البعد عنها . والأسوأ من ذلك أنهم غافلون عن ذلك تماماً . فهم لا يعلمون ، ولا يعلمون أنهم لا يعلمون . ولعل الحق أن نذكر في هذا المكان الآية الكريمة في قوله تعالى ﴿[1]**واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء الا أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾.

خلود الله :

اذا كان الله لا يخضع للزمن فهو خالد . وهو الأول قبل كل شيء والآخر بعد فناء كل شيء . وفناء كل شيء معناه فناء الكون وما فيه والله موجد الكون

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٣ .

وما فيه ، فهو موجود بدونه . والقول أن الله موجود قبل كل شيء وبعد فناء كل شيء قول نسبي (بالنسبة لنا) لأننا لا نفهم قياس الأمور الا بالزمن . والزمن مخلوق كما نحن مخلوقون ويفنىٰ كما نفنىٰ وفناؤه لا يؤثر على وجود الله ، وليس لوجود الله علاقة بالزمن سوى انه خالقه وسيده . فالله تعالى خالد .

الله عالم الغيب :

اذا تحرك مشاهد بسرعة أسرع من سرعة الضوء فانه (نظرياً) يستطيع أن يرى المستقبل والماضي . ولما كان الله هو الذي خلق الضوء والزمن فانه يستطيع أن يرى (أو بتعبير أدق يعلم) ويقدّر ما سيحدث مستقبلاً بالنسبة للزمن . ولذا فهو يعلم المستقبل وليس هناك ما هو عجيب في ذلك بل ان تصور هذا الموضوع سهل . (لاحظ ما قلنا في الفصل السابق عن اختزان الحوادث في متتاليات زمنية) .

وكلمة «نظرياً» التي استعملناها هنا تنطبق على حالتنا نحن الخاضعون لقوانين هذا الكون لأن أجسامنا تتكون من المادة . ولكنه ليس نظرياً بالنسبة لشيء لا مادي . وكما رأينا سابقاً فان سرعة الضوء هي الحد الأعلى لسرعة حركة الجسيمات المادية ، أو بتعبير أعم المادة ، ولكنها ليست الحدود لما هو لا مادي . فليس من الضروري أن تكون هناك أي حدود لسرعة حركة الأشياء اللامادية ، أو الأشياء التي تتكون من نوع آخر من الوجود الذي لا يخضع لقوانين كوننا الفيزيائية . وقد لا تكون هناك ضرورة للحركة لما هو لا مادي لأنه لا يحتاج أن يشغل فراغاً معيناً ثم يتحرك فيه ليشغل فراغاً آخر . فالموضوع بالنسبة له قد يأخذ أشكالاً وادراكات من نوع آخر لا نألفه نحن البشر على الأرض .

الله والموت :

هل ان الله ينام ؟ وهل يستطيع الله أن يميت نفسه ؟

كثيراً ما يسأل الناس اسئلة كهذه ويفكرون في هذه المواضيع ، خاصة

الماديون منهم . ويتأثر الكثيرون بها ، خاصة النشأ الجديد من الأجيال الطرية . ولذا فان الدخول في هذه المواضيع ، وان كان شائكاً لا يخلو من فوائد في توضيح بعض المسائل المهمة والرد على الالحاد .

وبالنسبة للسؤال الأول نستطيع القول انه وبموجب تعريف الله على انه خالق الأشياء كلها وانه ليس بحاجة الى شيء ، فانه لا يحتاج الى النوم . وهذا الجواب يكفي الآن ، وسوف نتطرق الى هذا الموضوع من وجهة نظر أخرى قريباً . وقبل الخوض في موضوع الموت لا بد من التعرف على بعض المفاهيم المهمة المتعلقة به لتوضيح الفرضيات التي تتضمنها هذه الأسئلة .

وهذه المفاهيم هي :

- تعريف الكائن الحي بموجب مفهومنا البشري .
- ماهية الموت .
- ماذا يحصل للكائن الحي عند الموت .

وبعد توضيح هذه المفاهيم نستطيع أن نحدد فيما اذا كان الله بحاجة الى النوم أو انه خاضع للموت . فاذا كان الله لا يخضع لقانون الموت فان الاسئلة أعلاه تصبح لا معنى لها سوى انها جمل لغوية لا تحمل أي أهمية فكرية .

ان الكائن الحي هو الكائن الذي يتحرك ويتنفس ويتغذىٰ وينمو ويتكاثر الخ . والموت ظاهرة تصيب الكائن الحي فيفقد قابليته على الحركة والتنفس والتغذي والنمو والتكاثر الخ وتفقد خلاياه قابلية الدفاع عن نفسها ضد الأحياء المجهرية والكائنات الحية الأخرى فيتفسخ الجسم ويتناثر ويرجع الى مكوناته المادية الأولية . هذه ظواهر مادية لا جدال فيها .

ولكن الكائن الحي ليس فقط مادة . فالمادة وحدها لا تتحرك أو تتغذىٰ أو تتكاثر . ولذا فانه يتكون من مادة ومحرك لتلك المادة . وهذا المحرك هو الفرق بين الحياة والمادة . والكائن الحي يفقد ذلك المحرك عند الموت . فما هو هذا

المحرك ؟ وماذا يحدث له عند الموت ؟

ان المسألة التي يجب توضيحها هي أن هذا المحرك كان موجوداً في الجسم الحي ، وبعد الموت لم يعد موجوداً فيه ، أو بتعبير آخر ان له سلطاناً وتأثيراً على المادة التي نسميها الجسم وبعد الموت يفقد سلطانه هذا .

ويقول بعض الناس انه ليس سوى تنظيماً معيناً للخلايا والحوامض الامينية والبروتينات والـ DNA فيها . وعندما يفقد الكائن الحي هذا التنظيم يتوقف عن الحركة ويموت . ولكن هذا ليس تفسيراً للموت ، بل هو وصف لما يحدث عند الموت . وتجدر الاشارة هنا الى ان هذا التنظيم موجود في جميع الخلايا الحية ، وعند الموت تفقد جميع خلايا الجسم هذا التنظيم مرة واحدة بحيث لا تجد خلية واحدة في الجسم الميت باقية على ذلك التنظيم ، بل لو فحصت جميع الخلايا لوجدت ان التنظيم قد دُمِّر. والذي يلاحظ هنا أن عملية تدمير هذا التنظيم عملية منظمة وتسري على جميع الكائنات الحية بنفس الطريقة والمقدار . فما هو سبب هذا التنظيم ؟ ومن الذي يحافظ عليه طالما الكائن الحي حياً ؟ ثم ما هو سبب تدميره عند الموت ؟

ان الكلام عن هذا التنظيم وسبب وجوده وسبب تدميره لا يختلف عن سبب الحركة في الكائن الحي وسبب توقفها عندما يموت الكائن الحي ، وعن سبب عدم تفسخ جسم الكائن الحي وسبب تفسخه بعد الموت . الا أن الفرق هو أن هذا التنظيم لا يمكننا ملاحظته بالعين المجردة ، ولكن توقف الكائن الحي عن الحركة وتفسخه يمكن ملاحظتها بالعين المجردة . لذا يتصور بعض الناس ان هناك فرقاً بين تلك الظواهر ، وأن وجود تنظيم الخلية وحوامضها وبروتينها والـ DNA الخ أو عدم وجود هذا التنظيم هو سبب الحياة أو الموت . ولكن الحقيقة أن الحياة هي سبب ذلك التنظيم ، وأن هذا التنظيم والحركة والنمو والتكاثر الخ كلها من ظواهر الموت ، وان تنظيم الحوامض الامينية في الخلايا أو تدميره ليس سبباً في الحياة أو الموت ، ولكنه أحد ظواهر الحياة والموت ، والفرق

بينهما بالضبط كوجود الحركة أو عـدم وجودهـا في الكائن عنـد الحياة أو المـوت . وهذه ظواهر مادية بأجمعها . نرجع الى سؤالنا مرة اخرى ، ما هو المنظم وما هـو المحافظ على ذلك التنظيم ؟ وماذا يحدث له عند الموت ؟ شيء واحد أكيـد يمكن قوله هنا وهو أن المنظم يفقد سلطانه على تنظيم الحوامض الامينيـة عند المـوت . نستنتج اذاً ان للموت ظاهرتين تبعاً لما تقدم . الظاهرة الأولى ، بموجب التعريف المادي ، هي توقف الجسم عن الحركة والتكـاثر والنمـو الخ . والـظاهرة الثـانية هي فقدان محرك المادة لسيطرته على تلك المادة .

ولكن أين هذا المحرك ؟ هـل هو في داخـل الجسم أم في خارجـه ؟ هناك احتمالان . الأول ان محرك المادة موجود داخل الجسم عندما يكـون الكائن حيـاً وعند الموت يفقد الجسم هذا المحرك . عندئذ نسأل الاسئلة التالية : أين يذهب هـذا المحرك ؟ هـل يبقى في عالمنـا هذا (الـذي يتكون من فـراغ وزمن) أم انه ينتقل الى عالم آخر ؟ (لاحظ أننا هنا استعملنا مصـطلح ينتقل بـدلاً من يرتحـل لان الإرتحال يتضمن حركة ويتطلب زمـاناً ومكـاناً لاننـا نستعمله لتوضيـح تغيير المواضع ، والذي ربما ليس ما يحدث عند الموت . فالزمان والفراغ محـدودان الى الوجود المادي . ومصطلح الانتقال قد يصف ما يحدث بصورة أفضل لانه انتقال نوعي خلال برزخ) . وعلى أي حال فان السؤال الذي يتبع هـو : ما هـو ذلك العالم ؟ وهل يحتوي على فـراغ وزمان مثـل عالمنـا أم أنه وجـود من نوع آخـر لا يحتاج الى المكان والزمان ؟

ويمكن القـول هنا انـه لما كـان تأثـير المحرك يسـري في عـالمنـا من خـلال الجسم ، فـان ترك الجسم يجعله غـير مؤثر بـالطريقـة التي نتحسسها . وبمـا أنـه ليست هناك أدلة على أن تأثيراً كهذا يسري خلال مادة اخرى (أي خلال جسم آخـر) لاننا لا نـرى الناس تُبعث من المـوت بأجسـاد أخرى ، لـذا بامكـاننا أن نفرض وبطمأنينة ، ان المحرك يبقى معلقاً بشكل من الأشكال ، واذا فرضنا انه يبقى في عالمنا فان ذلك يعني انه سيشغل حيزاً . ولما كانت الحالـة ليست كذلـك

لاننا نفرض انه لا مادي ، لذا فانه بالامكـان أن نفرض انـه ينتقل الى عـالم آخر من الوجود . وهذا الوجود الآخر هو نوع من الوجود ليس بـالضرورة أن يكـون منفصلاً عن عالمنـا ، ولكنه درجـة اخرى من الـوجود. ولا يستـطيع المحـرك أن ينتقل اليه طالما انه مرتبط بالجسم (أي بالعالم المادي) . ولكن عندما ينقطع هذا الارتباط بواسطة الموت يصبح باستطاعته الانتقال الى العالم الآخر . وقد يستطيع أن ينتقل مرة اخرى الى عالمنا تحت ظروف خاصة . وبكلمـة أخرى فـان المحرك (الروح) بامكانه أن ينتقل الى / ومن العالم الآخـر تحت ظروف خـاصة . ومـا يفصلنـا عن ذلك العـالم هو حـاجز نـوعي لا تستطيـع أجسامنـا (أي المادة) أن تخترقه لاننا لسنا مخولين أو مؤهلين لتجربة كهذه ، ولكن المحرك مؤهل لها .

وليكن مـا قلناه هنـا كافيـاً الآن ، وسوف نـرجع اليـه عنـدمـا نتكلم عن العلاقة بين الروح والمادة حيث أننا سنوضح هذا الموضوع بالتفصيل هناك .

الاحتمـال الثاني ان محـرك المادة لا يـوجد داخـل الجسم الحي ولكنه شيء خارجي موجود خارج جسم الكائن الحي وبطريقة ما يؤثر على جسمه (أو بتعبير آخر على هـذه الكتلة من المادة التي نسميهـا الجسم) فيحركـه ويسبب فيه النمـو والتكاثر الخ . وهنا فان هناك شيء أكيد وهو ان ارتباط المحرك بـالجسم في هذه الحالة ، والوسط الذي يسري خلاله تأثير هذا المحـرك على الجسم ليسـا ارتباطـاً مادياً ولا وسطاً مادياً ، والا لرأينـاهما وللمسنـاهما . لـذا يجب أن يكونـا ارتباطـاً لا مادياً ووسطاً لا مادياً . وهنا نسأل السؤال التالي : أين يـوجد هـذا المحرك في هذه الحالة ؟ هل هـو في عالمنـا أم في عالم آخـر ؟ وماذا يحـدث له ولتـأثيره عنـد الموت ؟ وهل هناك محرك واحد يحرك كـل الكائنـات الحية أم هنـاك محرك واحـد لكل كائن حي ؟ وفي الواقع فان الجواب عـلى هذه الاسئلة ليس سهـلاً . ولكن ما يمكن التأكيد عليه هو أن الارتباط بين الجسم ومحركه ينقطع عند الموت . ومـا يمكن التأكيد عليه أيضاً هـو أن لكل كـائن حي محركـه ، وذلك بسبب اختـلاف رغبـات الكائنـات الحية وتعـارض متطلبـاتها التي تـدفعهـا لقتـل بعضهـا بعضـاً

للحصول على الغذاء أو غيره ، ووتدمير بعضها بعضاً . ولعل ذلك أوضح ما يكون عند الانسان حيث نجد الناس مختلفين في آرائهم الى حد التناقض في كثير من الأحيان ، ويتصارعون حتى الموت وبعضهم يتلذذ في قتل الآخرين أو انزال الآلام بهم . فلو كان المحرك واحداً لجميع الكائنات الحية لَسَيَّرها بطريقة أفضل للجميع دون اللجوء الى الدمار والقتل والآلام ، لان هذه الآلام تصيب ذلك المحرك نفسه وليس من المعقول أن يسبب المحرك تعاسة نفسه وآلامها لعدم ضرورة ذلك . كذلك عندما يتلذذ جسم بانزال الآلام بجسم آخر يحدث التناقض لان المحرك (اذا كان واحداً لجميع الأجسام) سيشعر باللذة والألم بنفس الوقت ، أي انه سيكون سعيداً وتعيساً في الوقت ذاته ، وهذا معناه وجود المتناقضين في شيء واحد ووقت واحد وهو مستحيل لان البديهيات العقلية تقر بمبدأ عدم التناقض .

ومهما كانت الحالة فان المحرك شيء لا مادي وذلك لعدم امكاننا رؤيته أو لمسه ، ولكن بالامكان رؤية تأثيره الذي هو الحياة . ولعله من المناسب هنا أن نذكر أن هناك أنواعاً كثيرة من الحياة على الأرض . وعادة فانها تصنف الى فيروسات ونباتات وحيوانات وبشر . وبعضها يتكاثر بالانشطار وبعضها يتكاثر بالبذور وبعضها يتكاثر بالبيوض وبعضها بالولادة . ويتكاثر بعضها بأشكال أخرى مثل أقلام النباتات والبراعم الخ . وبعضها يموت اذا قطع جزء مهم منه ولكن بعضها لا يموت حتى لو قطع معظمه . وهذه الأنواع كلها موجودة على الأرض وليس هناك ما يدعونا للاعتقاد أن الأرض هي الكوكب الوحيد الذي توجد فيه حياة .

وبعد أن قلنا كل هذا نرجع الى سؤالنا : هل يستطيع الله أن يميت نفسه ؟ وللإجابة عليه ، نقول : ان السؤال يحمل فرضيات كثيرة يجب تمحيصها أولاً والتأكد من صحتها أو عدم صحتها .

الأول : السؤال يتكلم عن الموت ، وقد رأينا أن للموت ظاهرتين .

الأولى توقف الجسم عن الحركة والنمو والتكاثر الخ . فان كان هذا هـو المقصود في السؤال فـانه يتضمن أن لله جسـماً ماديـاً . وهذا مـرفوض لان الله هـو الذي خلق المـادة ولا يمكن ان يخضـع لقـوانينهـا كـما رأينـا . الثـانيـة فقـدان المحـرك (الروح) وتأثيره على الجسم ، وهذا أيضاً يتضمن أن الله جسم مادي وفيه روح وهو مرفوض لنفس السبب السابق .

الثـاني : ان الكلام عن مـوت الله يتضمن افتراض احتمـال خضـوع الله لقانون الموت . ولما كان هذا القانون من قوانين كـوننا ، ولمـا كان الله هـو الذي خلق الكون ولا يخضع لقوانينه ، لذا فالسؤال يتضمن افتراضاً خاطئاً ، واذاً فانه مرفوض أيضاً .

الثالث : ان الكلام عن موت الله تعالى يتضمن افتـراضاً هـو أن حياة الله تعالى مشابهة لحياتنا على الأرض لأن الموت هو نقيض حيـاتنا . ولمـا كانت حيـاة الله ونوع وجوده لا يشبه وجودنا بموجب تعريف الله الذي مـر سابقـاً . لذا فـان السؤال يتضمن افتراضاً خاطئاً ، واذاً فهو مرفوض أيضاً .

الرابع : ان الكلام عن موت الله يتضمن أن الله حي وبالامكان ان يموت بعد فترة زمنية معينة . وهذا تسلسل زمني ، والذي معناه أن الله يخضع للزمن ، وهو مرفوض ايضاً لأن الزمن أحد قوانين الكون وليس شيئاً ازلياً كما مر سابقاً .

يتضـح اذن ، ان السؤال : هـل يستـطيـع الله أن يميت نفســه ، يحمـل افتراضات خاطئة ويعتبرها بديهيات مسلّم بها مما يجعله سؤالاً خاطئاً . لذا فليس هناك جواب . ومَثَله كَمَثَل السؤال : هل يستطيع الحجـر أن يلد . فالسؤال عن موت الله ليس سوى جمل لغوية لا معنى حقيقي لها في عالم الوجود . فتفكر كيف يلحد الجاهلون .

اما مسألة نوم الله تعـالى، فانـه من الواضـح ان حاجـة المخلوقات للنـوم سببها اعياء الجسم والله لا جسم له فهو ليس بحاجة الى النوم .

ان المشكلة تكمن في صعوبة محاولة تطبيق القوانين التي خلقها الله تعالى عليه وهي محاولة خاطئة بطبيعة الحال ، ولذا فانها لا تلتقي مع المنطق على أي ارضية كانت لانها تقع خارج عالم المنطق الذي خلقه الخالق الذي خلق كل شيء . وبطبيعة الحال فان اتباع أي طريق يقع خارج الطريق الصحيح فانه ضلال وتيه ولا يمكن أن ينتهي بنتيجة حقيقية ، أو معقولة .

خلود الانسان في الجنة أو النار :

اذا أخرج الله تعالى الانسان من تأثير سلطان الزمن الذي هو ليس سوى قانوناً من قوانين كوننا ، فانه سوف يكون خالداً ، وليس ذلك مستحيل على الذي خلق الانسان والزمن معاً .

ان الله جعل الزمن يحكم الانسان في هذا الكون وهذه الحياة وجعل الانسان خاضعاً له ، وبالامكان أن يخرج الله الانسان من تأثير هذا القانون فيصبح الانسان خالداً . هذا على فرض فناء الزمن يوماً ما . ونحن لا نقول أن هذا ما يفعله الله جل وعلا ، فانه هو وحده يعلم ما يفعل ، ولا نقول أن هذا هو فعلاً ما سيحصل . ولكننا نقول بامكانية وقوعه وعدم تعارض امكانية هذا الوقوع مع المنطق .

قِدَم العالم والعلم القديم :

الفلسفات الاسلامية التي سادت العالم الاسلامي ، وخاصة في فترة حكم العباسيين ، افترقت في الاتجاهات الفلسفية لتفسير قِدَم علم الله وربطه بالزمن وسموه العلم القديم ، ومفاده هل أن الله يعلم بالكون وجزئياته قبل خلقه كما يعلمها بعد خلق الكون ؟ أم ان الكون الحاضر يختلف عن ما كان في علم الله قبل خلقه ؟ والملاحظ أن الحديث في موضوع كهذا يفترض أن الله خاضع للزمن ، ويفترض أن الزمن موجود قبل خلق الكون . لذا فهو مرفوض من أساسه ، فليس هناك قديم وجديد (أو حديث) بالنسبة لله . ان القِدَم زمن

مقاس بالنسبة لنا ولا علاقة له بوجود الله وكينونته وعلمه . ولقد كتب ابن رشد مقالته في فصل المقال عن موضوع قِدَم العلم هذا مدافعاً عن الفلاسفة ورداً على علماء عصره الذين اتهموا الفلسفة بالكفر مفنداً آراءهم مما يدل على تأثير المسألة وانشغال أصحاب الفكر فيها في ذلك الوقت . وبالرغم من أن ابن رشد دافع دفاعاً جيداً ، إلا أنه لم ينتبه الى أن الله لا يخضع للزمن وليس هناك علم قديم أو حديث . وليس هناك زمن قبل خلق الكون لان الزمن جزء من كوننا هنا ، وأن القول بِقِدَم الله يتضمن سريان الزمن على الله ، وهو غير ممكن .

مسألة خلق القرآن :

مسألة أخرى شغلت المسلمين وهي مسألة خلق القرآن ، وهل أن القرآن ازلي في علم الله أم انه خُلق لحاجة البشر اليه ولم يعلم الله به من قبل ؟

ان هذه المسألة ، ومسألة العلم القديم ، سببتا حروباً ومذابح بين المسلمين وكانوا كلهم في خطأ جسيم حيث افترضوا أن الله خاضع للزمن مثلما هم خاضعون له ، فساووا بينهم وبين خالقهم من هذه الناحية ، وهذا كفر ، لقد كفروا دون أن يشعروا بذلك ، وتقاتلوا وكفّر بعضهم بعضاً ، وراحوا يفسرون القرآن بما تشتهي أنفسهم وبما تصوروه صحيحاً . لقد اتبعوا الظن ولا يغني الظن من الحق شيئاً . ولو أنهم انتبهوا لما هو مقصود في قوله تعالى :[1]﴿ **وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ لما سمحوا لأنفسهم أن يخوضوا في موضوع كهذا . فصدق قول رسول الله (ص) حين قال : تنقسم امتي الى ثلاث وسبعين فرقة ، كلها هلكى ، الا واحدة . وهذه الواحدة هي التي قال فيها الله تعالى[2] ﴿ **ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون** ﴾ .

---

(١) سورة الحج ، الآية ٤٧ .

(٢) سورة المائدة، الآية ٥٦ .

من هـذا نـرى أن أصحـاب الفكـر والفلسفـة يخـوضـون في امـور كثيـرة لاعتقـادهـم صحتها بسبب قلة المعلومـات المتوفـرة لديهم . ونـرى أيضاً خـطورة وجسامة أخطائهم والنتائج المرتتبة على ذلك .

الخلاصة :

يتكون الكون من مكان وزمان وحـوادث متواصلة الحـدوث . وبما ان الله هو الذي خلق الكون فلا يخضع لقوانينه . فهو لا مادي ولا يشغل حيزاً وفراغـاً معيناً ولا يخضع للزمن . لذا فهو خالد وسـرمدي ولا بـداية لـه ولا نهاية ، لان البداية والنهاية ، مسائل نسبية زمنية . وليس له شبيه ولذا قال جل مـن قـال : ولمن يكن له كفؤاً احد .

واذا كـان الله لا يخضـع للزمن وهـو الـذي خلق الـزمن ، فهـو يعلم مـا سيحدث في المستقبل لان المستقبل مستقبل بالنسبة لنـا زمنياً وليس بـالنسبة لله . والله حي لا يمـوت لأن الموت يتضمن زمنـاً . كما أن خلود الانسـان في الجنـة أو النار أمر ممكن وذلك باخـراج الانسان من سلطان الـزمن . وليست هناك أهميـة فكـريـة للكـلام عن قِـدَم العلم والعلم القـديم ، فليس هنـاك علم قـديم أو حديث . والكلام عن قِدَم القرآن أو إحداثه كـالـدوران فـي الحلقـة المفرغـة فليس هنـاك قرآن قـديم أو حديث . ولا يمكن القـول بأن الله قـديم لأن ذلـك يتضمن سـريان الـزمن على الله جـل وعـلى الا اذا كـان المقصـود انـه لا يخضـع للزمن .

من مآثر الامام علي بن أبي طالب في هذا الخصوص :

لا بد لنا قبـل الانتهاء من هـذا البحث أن نتطرق الى بعض أقـوال الامام عـلي بن أبي طالب ، المـأثـورة في هـذا الصـدد ، والتي كـانت ولا زالت الهـامـاً لا متناهياً للعلم في أبعد آفاقه وللفلسفة الالهية في اعلى مراحلها ، فقـال عن الله تعالى :

(فارق الأشياء لا على اختلاف الأماكن ، وتمكن منها لا على الممازجة ، وعلمها لا بأداة لا يكون الا بها ، وليس بينه وبين معلومه علم غيره . ان قيل : كان ، فعلى تأويل ازلية الوجود ، وان قيل : لم يزل ، فعلى تأويل نفي العدم) .

وقال : (لا تصحبه الأوقات ، ولا تردفه الأدوات ، سبق الأوقات كونه ، والعدم وجوده والابتداء أزله) .

وقال : (لا يجري عليه السكون والحركة ، وكيف يجري عليه ما هو أجراه ، ويعود فيه ما هو أبداه ، ويحدث فيه ما هو أحدثه) .

الى أن قال : (وان الله سبحانه وتعالى يعود بعد فناء الدنيا وحده ، لا شيء معه ، كما كان قبل ابتدائها ، كذلك يكون بعد فنائها ، بلا وقت ، ولا مكان ، ولا حين ، ولا زمان ، عدمت عند ذلك الآجال والأوقات ، وزالت السنون والساعات ، فلا شيء الا الواحد القهار ، الذي اليه مرجع جميع الأمور) .

۞



الفصل الثاني عشر

الروح :

قلنا سابقاً ان المادة عندما تتحـول الى كائن حي فـانها تمتلك شيئاً جـديداً وهو الحياة ، وقـد سميناهـا المحرك ، أو الـروح . والسؤال الذي سـوف نحاول الاجابة عليه في هذا البحث هو : هل هناك روح تختلف في كينونتها عن المادة ؟ أي هـل ان الكـائن الحي يتكـون من شيء واحـد، وهـو المـادة فقط كـما يـزعم الماديون ، أم من شيئين ، هما المادة والروح ؟

وهذا السؤال يأخذنا الى مشكلة الفلسفة التي استمرت على مر العصـور ، والى معترك الصراع بين المدارس الفكرية حول ما اذا كـانت هنالـك روح أم أن الوجود بـأكمله مادة فقط . وفي الـواقع ظهـرت ثلاث مـدارس فكريـة على مـر العصور . المدرسة الأولـى تعتقـد بوجود المادة وحدهـا وليس هناك روح وهي المدرسة المادية . المدرسة الثانية تعتقد بوجـود الروح فقط وتـزعم انه ليس هنـاك مـادة ، وان ما يسمى المـادة هو تصـورنا عن الـوجود فقط وهـذه هي المـدرسـة المثالية . المدرسة الثالثة تؤمن بوجود المادة والروح معـاً وتقع المـدرسة الاسـلامية ضمن هذه المدرسة . والفكر السائد في عصرنا الحاضر ، وخاصة في أوربا ، هو

الفكر المادي بعد أن تم التخلي عن المسيحية . ونحن نود أن نشير هنا الى أنه اذا كانت المسيحية لها مشكلاتها التي جعلت الفلاسفة والمفكرين يتخلون عنها فان هذا لا يعني أن الحل الآخر الوحيد هو المادية . ذلك لأننا اذا صححنا المشاكل التي تعاني منها المسيحية بواسطة فكرة أخرى أو مفهوم آخر فاننا نستطيع أن ندعي ثنائية الوجود (أي المادة والروح) مرة اخرى دون أي مشكلة أو أي تناقض . ويتضح أن مشكلة الفلاسفة الأوربيين المعاصرين ، والذين يولد معظمهم على التعاليم المسيحية ، هي أنهم عندما تخلوا عن المسيحية لم يأخذوا الأديان الأخرى بنظر الاعتبار والتمحيص . حيث أنهم اعتبروا المسيحية أقدس الأديان الموجودة ، ولما أصبحت غير مقبولة لديهم ، أصبحت بقية الأديان غير مقبولة ايضاً ، وبذلك رفضوا فكرة الله ، ثم بدأوا يفلسفون أصل فكرة الله ومن أين أتت فخرجوا بالنتيجة السحرية التي تقول أن الانسان هو الذي خلق فكرة الله . وهو قصور واضح في التفكير لأن الفلاسفة يجب أن يبحثوا عن الحقيقة أينما كانت ، وعليهم ان يمحصوا كل الأفكار المطروحة وكل الأديان . واذا تخلوا عن فكرة ما عليهم اعطاء التبريرات المنطقية الكافية . ولكي تتضح تفاهة الفلاسفة الماديين أنظر ماذا يقول الفيلسوف الانكليزي (برتراند رسل) عن الاسلام فهو يقول ([1]والسكان(*)، ولكي يتخلصوا من الجزية تركوا المسيحية بكثرة للدخول في الاسلام) .

وبطبيعة الحال فان (رسل) يكذب ويفتري على الاسلام ، فالجزية في الحقيقة هي مقدار ضئيل من المال تُفرض على الذمي لقاء اعفائه من الخدمة العسكرية ولقاء كثير من الضرائب التي يدفعها المسلمون لقاء توفير الامن والخدمات وتسقط عن الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة والفقراء، وهذا

---

(١) انظر المصدر ٢٨ ، ص ٤١٤ .

(*) يقصد أهل الكتاب الذي أصبحوا تحت السيطرة الاسلامية بعد الفتوحات .

المقدار البسيط لم يكن واجباً الا على الرجل الذي يستطيع الحرب ، فاذا أعطاها تدرأ عنه واجبه . فهل يُعقل ان انساناً يغير دينه ويذهب الى الحرب لكي لا يدفع هذا الثمن البخس ؟ وهل يُعقل أن يكون هذا الثمن باهظاً كما يدعي (رسل)خاصة وان المسلم يدفع اكثر منها على شكل زكاة ؟ وبطبيعة الحال فان (رسل) لم يكن يبحث عن الحقيقة كما يجب على الفلاسفة ،بل أقصى ما كان يبحث عنه هو ايجاد ما يسند ادعاءه المادي . ويا ليته كان يجد الوقائع التي تسند ادعاءه فعلاً بدلاً من الأكاذيب التي يحشو بها عقول قومه . والفلاسفة الأوربيون الذين كانوا يؤمنون بوجود الخالق كانت تجابههم صعوبات كبيرة لانهم لم يستطيعوا أن يبرروا معتقدات الكنيسة التي كانت تشكل المشكلة ، فقد كانوا محدودين بحدودها التي لعب الانسان بها كثيراً .

وهناك مشكلة اخرى يمكن ملاحظتها في تفكير الفلاسفة ، خاصة الاوربيين منهم ، تلك انهم تستحوذ عليهم فكرة محاولة تفسير الوجود على أنه يتكون من شيء واحد ، أما المادة وأما الروح . و (فرويد) أيضاً حاول أن يفسر سلوك الانسان على أنه مرتبط بشيء واحد وهو الجنس . وهذه الفكرة يمكن ملاحظتها على تفكير الكثير من المفكرين . ويبدو الآن أن فكرة المادة قد تبخرت واتضح أن المادة ليست سوى وجهاً من وجوده هذا الوجود ، وهو الوجه المحسوس من العالم . وهناك وجهان لهذا الوجود هما المادة والعقل ، أو ما نطلق عليه الجسم والروح بالنسبة للانسان . والسؤال الآن هل أن المادة هي تصورات العقل عن الوجود ؟ أم ان العقل نفسه ليس سوى المادة آخذة طابعاً آخر ؟ أم أنهما شيئان متميزان يتكونان من نوع آخر أكثر أساسية من الوجود ؟ هذا ما سنحاول أن نتعرف عليه في ما يلي .

ان نكران وجود الله يتزامن معه نكران وجود الروح دائماً . ذلك لأنه اذا اعترفنا بوجود الروح فان ذلك يقودنا الى الاعتراف بما وراء المادة والذي يقودنا على الاعتراف بوجود الله . وبالرغم من أن المفروض في الفلاسفة أن يبحثوا عن

الحقيقة ، ولا شيء سوى الحقيقة ، فانهم ليسوا كذلك ، الا القليل ، القليل جداً ، منهم . والملاحظ أنهم كبقية الناس (ولكنهم أكثر ذكاءاً) يحملون فكرة معينة ويحاولون جمع الأسباب لتبرير هذه الفكرة . وبطبيعة الحال فانهم يختلفون في درجة تحيزهم الى الفكرة التي يحملونها مسبقاً .

وبالنسبة لموضوعنا ، العقل والمادة ، فان احدى الأفكار تقول أن العقل والمادة هما شيء واحد ولكن الاختلاف بينهما درجة . وهذا المفهوم تشير اليه الاكتشافات الجديدة في علم الفيزياء والآراء الحديثة في علم النفس . ولكن الاكتشافات العلمية وبعض الآراء غير الواثقة في علم النفس أدت الى نوع من التشويش وعدم الوضوح .

(برتراند رسل) يقول ([1]يجب القول ان التمييز القديم بين الروح والجسم قد تبخر بسبب ان المادة فقدت صلابتها ، وبسبب أن العقل فقد روحيته) . ونحن نقول أن المادة قد تكون فقدت صلابتها لانها خاضعة للتجربة العلمية ، ولكن من الصعوبة وصف العقل على أنه فقد روحيته لانه غير خاضع للتجربة العلمية المادية على طريقة علوم الفيزياء (لاحظ أننا هنا نتكلم عن العقل وليس الدماغ) . من هذا يتضح أن أي رأي يطرح في هذا الخصوص ليس سوى ظناً ، وانه محدود الى حامله . لانه ليس هناك من سبيل أو طريقة أمام العلم يستطيع أن يبرهن فيها أن الروح ليست موجودة . ولكن (رسل) يؤكد مرة اخرى بالقول ([2]ليس هناك دليل على وجود أي فرق أساسي بين مكونات عالم الفيزياء والنفس . ونحن نعرف عن كليهما أقل مما كان يُعتقد سابقاً ، ولكننا نعرف ما فيه الكفاية لكي نكون متأكدين من أنه لا الروح ولا الجسم باستطاعتهما أن يجدا مكاناً في العلم الحديث . فالفيزيائيون اختزلوا

(١) انظر المصدر ٢٥ ـ ص ١٣٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٣٤ و١٣٩ .

الذرة الى سلسلة من الحوادث . ولأسباب جيدة مساوية ، يجد علماء النفس أن العقل لا يمتلك هوية الشيء الواحد المستمر ، بل سلسلة من الوقائع مرتبطة بعضها مع بعض بواسطة علاقات وثيقة معينة) . ونحن نقول انه قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة للمادة ولكن ليس بالنسبة للعقل . وقصور الرؤيا سببه قصور التمييز . فالحوادث التي تكوّن المادة ليست حوادث عشوائية ولكنها حوادث منتظمة ومرتبطة بطرق وأساليب خاصة تؤدي الى تكوين الأجزاء المختلفة من الكون (أو الظواهر كما قد تسمى) ، أي أنظمة الكون . وليس هناك دليل على أن العقل مشابه لذلك أيضاً . وحتى لو فرضنا جدلاً أن ما يقوله (رسل) صحيح فالسؤال الذي يطرح نفسه هو ما هي هذه العلاقات الوثيقة ؟ وما هو الشيء الذي يحافظ عليها مرتبطة بعضها ببعض بهذا النظام العجيب ؟ وما هو السر وراءها الذي يحافظ عليها من الانعدام ؟ و (رسل) يستمر بالقول (^[1]ولا يستطيع حتى المتوقد ايماناً بالروحية أن يدعي معرفة الأدلة على بقاء الروح[*]بقدر ما يستطيع أن يتقدم به المؤرخون للبرهنة على أن السَحَرَة يبايعون الشيطان جسدياً) . وانه لواضح أن ما يريده (رسل) هو أن نموت ثم نرجع لنخبره بالجواب ، وهو ما طلبه الناس من الأنبياء . و (رسل) بطبيعة الحال يعلم أنه يطلب المستحيل ، ويتصوره سنداً قوياً لنظريته . ولكن ليس كذلك !!! فالاكتشافات الحديثة بينت عكسه وهو ما يشير اليه (كودمان) عندما يقول ان (^[2]اكلز . . . الحائز على جائزة نوبل ، تحدى رأي المائة سنة للماديين علناً بالقول أن الانسان يتكون من كلا الشيئين ، نظام فيزيائي وروح غير ملموسة ، مرتبطين بواسطة حاسبة متطورة جداً أو وسيلة اتصال متبادل وثيق ـ وهو الدماغ . وهو قد توقع التعقيدات التي تتضمنها البحوث الأكثر حداثة على

(١) انظر المصدر السابق ـ ص ١٣٧ .

(*) اي بقاءها بعد الموت .

(٢) انظر المصدر ١٠ ـ ص ٢٦٤ .

خبرات قرب ـ الموت عندما أكد في الستينات من هذا القرن أن روح الانسان تبقى ما بعد موت الدماغ الفيزيائي) . و (رسل) يعطي أسبابه بالقول ([1]ان الصعوبة بالنسبة للعلم تنبع من حقيقة انه لا يبدو ان هناك كينونة كالروح أو النفس) . وانه لمن العجيب بالنسبة لرجل مثل (رسل) ان يشذ بهذا المقدار لكي يعطي سبباً كهذا ، ولكن من يبدأ بداية خاطئة ، ومن يحاول الوصول الى هدف خاطيء ، لا بد وأن يطرح سخافات متعثرة كهذه . وخلافاً لرأي (رسل) اننا نعتقد أن الصعوبة أمام العلم هي ليست عدم وجود شيء كالروح ولكن لأن العلم وأدواته محدودة الى العالم المادي وليس بامكانها الوصول الى ما وراء ذلك لتحسس أي شيء هناك . والعلم ، على كل حال ، لم يَدَّعِ الوصول الى حدوده القصوى بعد ، فالبحوث ما زالت مستمرة وفي تقدم وهناك الكثير الذي ما زال لم يكتشف . و (رسل) يحاول أن يرسم صورة للعلم وكأنه قهر كل شيء ووصل الى الروح فاكتشف انها غير موجودة . وهذا بعيد كل البعد عن واقع العلم . و (رسل) يُظهر لنا نقصاً رهيباً في المعلومات ، وقد يكون متعمداً ، عندما يؤكد على أن ([2]الروح ، وكما ظهرت لأول مرة في الفكر الاغريقي ، كانت تمتلك أصلاً دينياً بالرغم من أنه ليس مسيحياً . . . . والفيثاغوريون اثّروا على افلاطون ، وأفلاطون أثر على آباء الكنيسة . . . وبهذه الطريقة فان معتقد الروح على أنها شيء متميز عن الجسم أصبح جزءاً من المعتقد المسيحي) . أليس هذا غريباً !! فهل يقصد (رسل) ان مفهوم الروح لم يكن موجوداً قبل الفيثاغوريين وأفلاطون ؟ وماذا عن الأنبياء والأديان التي كانت موجودة في الشرق الأوسط كأرض الرافدين والجزيرة العربية ؟ ان ما يقوله (رسل) يدحضه التاريخ ، فمفهوم الروح كان موجوداً في الشرق قبل أن يظهر الاغريق على مسرح الأحداث ، والمسيحية لم تكن بحاجة الى افلاطون ليعلمها

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ـ ص ١٣٨ .

(٢) انظر المصدر ٢٥ ـ ص ١١١ .

فكرة الروح حيث كانت هذه الفكرة احدى المفاهيم الذاتية لها منذ البداية كما هي الحال مع بقية الأديان السماوية . ونحن لا نفهم من أين أتى (رسل) بهذا الرأي وكيف توصل الى هذا الاستنتاج الساخر ، ومن الواضح انه لم يؤمن بالحياة بعد الموت كما صرح هو بذلك في مناسبات عديدة ، ولذا فانه ، وكنتيجة طبيعية ، لم يؤمن بالروح ، وقد يكون العكس . ومهما يكن السبب فان ذلك ليس مهماً . ولكننا نعتقد انه تخلى عن المسيحية، ولذا فان الباقي يتبع .

ولتفسير الوجود فان (رسل) يطرح نظريته التالية (١)ان الشيء الذي يتركب منه عالمنا الذي ندركه ، في اعتقادي ، ليس العقل وليس المادة ولكنه شيء آخر اكثر بساطة من كليهما . فكلا العقل والمادة يبدوان متركبين(*)، والشيء الذي يتألفان منه يقع بينهما بمعنى ، وفوقهما بمعنى ، كأنه السلف الأعلى) . اذن بالنسبة (لرسل) هناك شيء ثالث أساسي . ولكن هل أن هذا الشيء مادي أو لا مادي ؟ و (رسل) يسهب في الكلام عن حوادث فيزيائية وعقلية والفروق بينهما ، ويصل الى كيفية تكوين الصور في العقل ، والتي يصعب شرحها مادياً ، فيقول (٢)ان المشكلة الحيوية هي علة الصور . وقد رأينا أنها خاضعة الى أسباب تتعلق بالذاكرة ، وهذه الأسباب التي تتعلق بالذاكرة قد يمكن اختزالها الى أسباب فيزيائية في الخلايا العصبية . وهذا هو السؤال الذي يدعو الى أن يتحول تفكيرنا باتجاه ما قد يطلق عليه المادية . وأَحَد معاني المادية هو الرأي القائل أن جميع الظواهر العقلية معتمدة سببياً على الظواهر الفيزيائية في المفهوم المعرف أعلاه للتبعية السببية . وسواءاً كانت هذه هي الحالة أم لا ، فانني لا أتظاهر بأنني أعرف . والسؤال يبدو لي انه نفس السؤال ما اذا

(١) انظر المصدر السابق ـ ص ١٠ .
(*) اي انهما يتكونان من شيء آخر على شكل تركيب .
(٢) انظر المصدر ٣٣، ص ٣٠٣ .

كانت العلة التي تتعلق بالذاكرة هي النهائية ، والتي درسناها دون اتخاذ القرار . ولكنني اعتقد أن معظم الأدلة تشير الى الجواب المادي على أنه الاكثر احتمالاً) .
ويبدو أن الصعوبة تنشأ من محاولة نسب علة الصور الى الظواهر المادية ، والتي هي سؤال يستعصي حله بالنسبة (لرسل) ، ولذا فانه يتركه دون حل . ونحن نتساءل اذا كانت هذه هي الحالة فما هو الذي يدعوه الى القول بأنها مادية ؟ واذا كانت هناك أدلة ، كما يقول ، لماذا لا يستطيع اتخاذ القرار بصددها ؟ ان التناقض واضح في تفكيره ، وعجزه عن اتخاذ القرار لا يليق بالفيلسوف . فاما أنه يترك القضية بدون ابداء رأيه ، أو انه يسند رأيه بأدلة مقبولة اذا كانت مادية . ولكن ما يحدث هنا هو أن (رسل) لا يستطيع أن يقرر على الجواب ولكنه بنفس الوقت يزيح رأيه نحو المادية بدون أي دليل أو تبرير منطقي .
والسبب الوحيد الذي نراه لهذا الموقف المتذبذب هو تحيزه ضد وجود الروح ، لأن الاعتراف بوجود الروح يقوده الى الاعتراف بوجود الله وبالنسبة له فان هذا معناه الرجوع الى المسيحية ومعتقداتها التي تشكل تناقضاً لا يمكنه أن يتحمله . ولذا فانه في الواقع مُحاصَر ، ولا يمكنه الا ان يبقى كذلك . ولكنها زاوية ليست مريحة تماماً لكي يضع نفسه فيها . وهو لم يبحث عن حل لتناقضات المسيحية بواسطة مذهب آخر قد يعطيه الأجوبة لحل الغموض والالتباسات التي واجهها هناك . ولكنه ، ولكي يفر من هذا الموقف ، فانه يحاول المحاولة التالية ، وهي طلب أقل ما يقال عنه انه غير مقبول من مفكر . فهو يقول ([1]ان الصوفي نفسه قد يكون متأكداً انه يعرف ولا يحتاج الى اختبارات علمية ، ولكن اولئك الذين يطلب منهم أن يقبلوا بيّنته سوف يخضعونها الى نفس نوع الاختبارات العلمية كتلك التي تطبق على الرجال الذين يقولون انهم ذهبوا الى القطب الشمالي) . فهو يطلب أدلة علمية ، وبطبيعة الحال أن الأدلة العلمية تتضمن تحسساً . والتحسس يتضمن المادية . وهو طبعاً يعرف ما يطلبه جيداً ، ونحن نرى انه

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ـ ص ١٧٨ .

يطلب المستحيل لان ما وراء الطبيعة ، وبالتعـريف ، ليس شيئاً مـادياً ولا يمكن اخـضـاعــه للتـحسس المـادي . وهــذا يــذكـرنـا بمـا كـان يُـطلب مـن الأنبياء ـ المعجزات . وقد قال تعالى ﴿[1] **يسألـك أهل الكتـاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة**) . والأنبياء أتوا بالمعجزات ، ولكن ليس لأناس مثـل (رسل) الـذي يجب أن يقتنع بشيء أقل من المعجزة المـادية الـواضحة . وأنـه لواضـح أن (رسل) طلب واحـدة . وهذا يذكرنا بما أراد (كاكارين) عندما قال لم أرَ الله . وهذا يبين أن الانســان لم يتغير كثيراً خلال العصور كما قد يـظن بعض الناس بـالرغم من التقـدم العلمي المعاصر . وقد قال تعالى[2]﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلاً** ﴾ .

اما بالنسبة للصور فقد بين الفلاسفة الاسلاميون أنها لا مادية . وحجتهم في ذلـك هي كالآتي . دعنـا نأخـذ حالـة النظر الى دار بنـظر الاعتبار . مـا هي الصورة التي تدركها عقولنـا عن الدار ؟ والجـواب يقع ضمن أحـد الاحتمالات الثلاثة التـالية التي تختلف عليهـا المدارس الفكـرية . الأول أن الـدار نفسه هـو الصورة الموجودة في ادراكاتنـا ، وهذا بـطبيعة الحـال مستحيل لاننـا أحيانـاً نرى أشياء غير موجودة (حيث يخيل لنا وجودها) ، ولأن مـا عندنـا من الشيء المرئي هو الاشعة الضوئية المنعكسة منه فقط . الاحتمال الثاني أن الصورة المدركَـة هي نتـاج مادي يـوجد في خـلايا الادراك في الـدمـاغ . وهـذا غـير ممكن أيضـاً لان الصورة المدرَكة بحجمها الكبير ، وأبعادهـا من الطول والعـرض والارتفاع ، لا يمكن أن توجد في مادة الخلايا العصبية الصغيرة الحجم . وبطبيعة الحال فـاننا لا ننكـر أن هناك تـأثيراً مـا يحدث في الخـلايا العصبيـة لانتاج الصـورة ولكن هذه الصورة الماديـة في خلايـا المخ ليست الصـورة التي يدركهـا العقل لانها لا تمتلك

---

(١) سورة النساء ـ الآية ١٥٣ .

(٢) سورة الاحزاب ـ الآية ٦٢ .

الابعاد التي تمتلكها الصورة المدركة . وكما أننا لا نستطيع أن نضع صورة للدار تمتلك نفس ابعاد الدار على قطعة صغيرة من الورق فاننا لا نستطيع أن نضع صورة عقلية للدار على منطقة صغيرة في الدماغ ، حيث ان طبع صورة كبيرة على ما هو أصغر مستحيل ، لاحظ ان العقل يدرك الأبعاد الكبيرة للدار ، وكذلك أبعاد الأجزاء الكبيرة والأجزاء الصغيرة ، من خلال الصورة التي يدركها ، وبالطبع فانه يدرك ان حجم الدار أكبر من حجم الدماغ . وهذه كانت الصعوبة التي واجهها (رسل) .

الاحتمال الثالث الذي بقي هو أن الصورة المدرَكة للدار لا مادية وتوجد خارج المادة . وهذا هو المقصود بالمفهوم القائل ان الادراك لا مادي بطبيعته . وهذا المفهوم يسنده الثبات . والمقصود بالثبات أن الصورة التي يدركها العقل ثابتة ولا تتغير بتغير الصورة المنعكسة للدار على خلايا الدماغ . كما هي الحال عند النظر الى الدار من مسافة بعيدة . فبالرغم من أن الصورة المنعكسة عن الدار أصغر في هذه الحالة ، فان العقل يدرك نفس الصورة الأصلية حتى لو فرضنا ان ذلك يتطلب خبرة سابقة . فان الحقيقة تبقى نفسها ، وهي ان الصورة المدرَكة تبقى ثابتة بينما الصورة المنعكسة تتغير بتغير المسافة بينها وبين الدار ، والتي تؤكد الطبيعة اللامادية للصورة المدرَكة. وبذلك فان مشكلة (رسل) التي كان عاجزاً عن اتخاذ القرار بصددها قد تم حلها .

و (رسل) يعود ليقع في تناقض مع تحيزه الأول نحو المادية ، فيقول[1](وأنا اعتقد ، وعلى كل حال ، وعلى أساس نظرية المادة . . . . ان تفسيراً علمياً نهائياً لما يحدث في العالم ، اذا كان من الممكن التحقق منه ، سيشابه علم النفس أكثر من الفيزياء فيما وجدناه من فرق حاسم بينهما) . وبهذا الرأي يتضح تردد (رسل) وتذبذبه في اتخاذ القرار النهائي لتفسير طبيعة

---

(١) انظر المصدر ٣٣ ـ ص ٣٠٥ .

الوجود . وفي هذا الرأي الأخير له يمكن تحسس التناقض مع نظريته في « الشيء الثالث » الذي تتكون منه المادة والعقل . وذلك لانه اذا كان الشيء النهائي يشبه علم النفس وليس الفيزياء ، والذي معناه العقل وليس المادة ، فلا يبقى هناك مبرر للشيء الثالث الذي يطرحه (رسل) كنظرية ، والشيء النهائي هو العقل وليس المادة . ولذا فان (رسل) يشير الى (1)ان خطأ فلسفة المادة هو الذي سبب كثيراً من الصعوبات في فلسفة العقل . . . . والعقل عبارة عن درجة ، متمثلاً بصورة رئيسية في عدد وتعقيد العادات . . . . . وكل القضايا المسلّم بها ، في كلا الفيزياء وعلم النفس ، خاضعة الى قوانين العلية النفسية ، ولكن قوانين العلية الفيزيائية ، وعلى الأقل في الفيزياء التقليدية ، يمكن صياغتها بلغة المادة فقط والتي هي ليست معلومات مسلّم بها سواءاً كانت مُستَدَل عليها أو مركبة . وفي هذا الخصوص فان علم النفس هو أقرب الى ما يوجد فعلياً) .

ان التذبذب بين ما اذا كان الشيء النهائي هو المادة أو العقل واضح عند (رسل) . وبالرغم من انه يقترب من الوصول الى حقيقة الشيء النهائي الا أن نظرية المادية تحجب صورة الواقع النهائية عنه ، وهو في الواقع لا يوضح ما اذا كان الشيء النهائي مادة أم عقل . فتارة يقول أن العقل درجة من المادة ولكنه يرجع ليقول أن علم النفس هو أقرب الى ما يوجد في الواقع . وفكرة محاولة البرهنة على أن الوجود يتكون في النهاية من شيء واحد لا زالت تستحوذ على تفكير (رسل) . وبسبب ذلك . وبسبب تصوره ان العقل والمادة ليسا سوى تركيبين منفصلين ، فانه يعتقد انه اذا مات الانسان فان التركيبين يتحطمان ، ولذا فانه من غير الممكن اعادة اجتماعهما مرة اخرى . ولكنه لا يتكلم أبداً عن كيفية اجتماعهما في المرة الأولى . وقد يكون ذلك بسبب ايمانه بأن الحياة انبثقت

(1) انظر المصدر السابق ـ ص ٣٠٧ و٣٠٨ .

في المادة بطريقة الصدفة كما تزعم نظريات التطور ، فهو يقول ([1])اذا كنا نريد أن نؤمن ببقاء الشخصية بعد الموت ، يجب علينا أن نفترض وجود استمرارية للذاكرة أو على الأقل العادات ، لانه بدون ذلك لن يكون هناك سبب لافتراض أن نفس الشخص مستمر في الوجود . . . . والعادات والذاكرة كلاهما ناتجتان عن تأثيرات معينة على الجسم ، خاصة الدماغ . . . والتأثيرات على الجسم التي تولد العادات والذاكرة تنمحي بالموت والتفسخ ، وانه لمن الصعب رؤية كيف يمكن انتقالها ، عدا حدوث المعجزة ، الى جسم جديد كالذي يُفتَرَض اننا نقطنه في الحياة الآخرة . . . . ان استمرارية الشخص طيلة حياة جسمه ، اذا كانت تعتمد، مثل ما اؤكد ، على تكوين العادات فانها يجب أن تعتمد أيضاً على استمرارية جسمه . . . . فالشخصية هي قضية تنظيم بصورة أساسية ، حيث أن حوادث معينة تجتمع مع بعضها بواسطة علاقات معينة لتكوين الشخص . والاجتماع يُنجَز بواسطة قوانين العلية ـ تلك التي لها علاقة بتكوين العادات ، والتي تتضمن الذاكرة ـ وقوانين العلية المعينة تعتمد على الجسم . فاذا كان هذا صحيحاً ـ وهناك أسس علمية قوية للاعتقاد بأنها كذلك ـ فان توقع بقاء الشخصية بعد تحطيم الدماغ هو مثل توقع بقاء نادي للكركت[*]عندما يموت كل اعضاؤه) . ان ما يتضمنه هذا الكلام مهم للغاية لان ما يريد (رسل) ان يراه هو بقاء الروح في عالمنا هذا بعد الموت كبقائها عندما تكون داخل الجسم . وهذا يفترض ، كحقيقة مسلم بها ، ان الوجود المادي هو الوجود الوحيد ، والذي في الواقع يجب على (رسل) ان يبرهنه بدلاً من اعتباره حقيقة . ولنرجع الى نظرية « الشيء الثالث » التي يقترحها . فاذا كانت الظواهر التي تكوّن العقل مختلفة عن الظواهر التي تكوّن الجسم فلماذا يفترض تحطيمها هي الأخرى عند تحطيم ظواهر الجسم ؟ اننا نستطيع أن

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ـ ص ١٤١ ـ ١٤٣ .

(*) لعبة تتطلب فريقين للقيام بها .

نقترض بقاءها وليس هنالك اشكال .

ان هـذه النظريـة (نظريـة الشيء الثـالث) عـلى اي حـال لا تفسر كيف يحدث بناء العقل . وان الشيء الذي تقـود اليه هـذه النظريـة هو الآتي : بعـد الشيء الأساسي الثالث تأتي المادة وفقط (قبـل خلق الحياة) . وانـه لمن الصعب تصـور كيفية بنـاء العقل والمـادة (من خـلال هـذه النـظريـة) في وقت لاحق . والشيء الذي لم ينتبه اليه (رسل) هـو أن العقل يتحكم بـالمادة بحيث أن المـادة تتجمـع لانشاء نـظام معقد (هـو الجسم) . وبكلمة اخـرى، ان الظواهـر التي تسمى العقل تتحكم بالظواهر التي تسمى المادة بحيث ان العقل يقود المادة كـما يقود السائق السيارة . واذن عندنا هنا نوعان من الظواهر المنـظمة ، احـداهما ، وهي المـادة ، سلبيـة أو المستعبـدة ، والثـانيـة ، وهي العقـل ، فعـالـة ، أو المسيطرة . ويتضح أن هناك نظاماً تسلسلياً من نـاحية المـراتب . ولكن الغريب فيهـا ان ما كـان موجـوداً أولاً هو المسيـطَر عليه ، ثم ولـد المسيـطر من المسيـطر عليه . وهذا لانه ، وبموجب النـظرية ، مـا كان مـوجوداً أولاً هـو الشيء الثالث والذي كان على شكل مادة فقط (لان الحياة لم تكن موجودة في البداية) . ومنـه يتبع أن الوجود بأكمله كان على شكـل مادة أولاً لانـه من الصعب تصور وجـود المادة وجزء من الشيء الثالث على شكل شيء ثالث نقي ، والذي أصبح العقـل بعدئذ . والصعوبة الأخرى هي أن هناك عقولاً جديدة تخلق عند الولادة . فأمـا أن المـادة تتحول الى عقـل ، وفي هذه الحـالة تصبـح نظريـة الشيء الثـالث غـير ضرورية ، أو ان هناك جزءاً من الشيء الثالث النقي ما زال موجوداً ، وبطـريقة ما ، وبأسلوب معقد ومتطور جداً ، يتحول الى العقل ويتحد بـالمادة بحيث انهما يبدوان وكأنهما وجهان لشيء واحد . وفي هذه الحالة فانهما ينفصلان عند الموت ، واذاً ما هو الشيء الذي يمنع اتحـادهما مـرة اخرى تحت ظـروف مشابهـة للظروف التي أدت الى اتحـادهما أولاً ؟ أليس بـالامكـان تصـور الانبعـاث والنشـور بهـذه الـطريقة ؟ فلمـاذا يصعب عـلى (رسـل) تصـور اتحـاد الـروح (أو مـا يسميـه

العادات والذاكرة) مرة اخرى بالجسم في الحياة الآخرة بعد تحطيم الجسم لأول مرة عند الموت . من هنا نستطيع أن ندرك فشل (رسل) في تفسير الوجود ، ذلك الفشل الذي جعله متذبذباً في آرائه بين المادة والعقل .

وعلى أي حال ، فان نظرية (رسل) ليست اكثر من نظرية الفلاسفة الالهيين الأوربيين مصاغة باسلوب آخر . فأولئك قالوا بوجود الروح والجسم كوحدتين منفصلتين ، و (رسل) ، الذي انتقد هذه النظرية انتقاداً لاذعاً وساخراً ، لم يفعل اكثر من قول النظرية نفسها بطريقة اخرى . فبدلاً من وصف الجسم على انه مادة وصفه بالظواهر الأساسية للمادة ، كذلك الروح سماها العقل ووصفها بظواهر أساسية أخرى تختلف عن الظواهر الأساسية المكونة للمادة ، واعتبرهما تركيبين مختلفين مستمدين من شيء ثالث . وبذلك انتهى الى القول بثنائية الوجود دون أن يعي ذلك .

الصعوبة الأخرى للنظرية هي صعوبة تفسير كيفية اتحاد روح الحيمن مع روح البويضة في ضوء النظرية لتكوين روحاً واحدة في الانسان الجديد (وهذه الصعوبة نفسها تواجهها النظرية في الحيوان والنبات أيضاً) . وقد واجه الفلاسفة الالهيون الأوربيون نفس الصعوبة . ولحلها قالوا أن الروح تدخل الجسم في مرحلة لاحقة . و (رسل) لم يحاول أن يتطرق الى هذا الموضوع الشائك . وبدلاً من ذلك اختار أن لا يدخل في الموضوع وأن يتجاهله كلياً ، عدا انتقاده للفلاسفة الالهيين دون تقديم الحل .

وهناك صعوبة اخرى للنظرية أيضاً ، تلك هي انها لا تفسر كيف ينضج العقل ، وهذا النضج يمكن النظر اليه كنمو في عالم الوجود . فكيف تنمو الأفكار والذاكرة وقوة الادراك والتمييز والارادة والوعي من الشيء الثالث بينما الانسان يُدخِل المادة فقط الى جسمه على شكل غذاء ؟ فالنمو الجسمي يمكن فهمه لان الغذاء مادة تضاف الى مادة ، ولكن كيف ينمو العقل اذا كان مستَمدّاً

من ظواهر مختلفة حيث ان الانسان لا يأكل هذه الظواهر ولا يستنشقها ؟ واذا قلنا أن العقل يأخذ احتياجاته من المادة وينمو ، فليس هناك حاجة الى الشيء الثالث اذن . وفي هذه الحالة ، وكما هو واضح ، نرجع الى المادية التي برهنا على عدم كفايتها لتفسير الوجود .

وقد يكون من المفيد أن نذكر هنا أن العقل هو نمط متطور من التركيب ، أو الوجود لانه يتحكم في المادة . لذا فانه يمتلك خصائص لا تمتلكها المادة حيث أن المادة وحدها لا تسلك ولا تتغير بنفس الطريقة التي تسلك أو تتغير فيها عندما يحكمها العقل . وهذا يقودنا ضد المادية أيضاً ، لانه اذا كان العقل نوعاً من المادة لماذا اذن محدوديته الى أجزاء معينة من المادة الموجودة (التي تصبح حية) بدلاً من المادة بأجمعها؟ ولماذا لا تتغير المادة الميتة الى عقل (أو حياة) الا تحت ظروف خاصة تتطلب تدخل عقول اخرى (بواسطة الانجاب) ؟

و (رسل) يزعم في نظريته هذه انه لا يوجد محرك يحرك الجسم ، وليس هناك روح ، ويدعي ان ما يوجد ليس اكثر من ظواهر مربوطة بواسطة علاقات وثيقة . فهو يقول ([1]ان الحقائق الأولية التي يمكن ملاحظتها لا تمتلك ثنائية كهذه ، ولا تعطي سبباً لاعتبار أي من الأشياء أو الأشخاص أي شيء عدا كونها مجموعة من الظواهر) . وهنا فانه لا يميز بين الظواهر التي تكوّن المادة والظواهر التي تكوّن العقل . ولا نعلم ماذا حدث للشيء الثالث وثنائية ظواهر ـ العقل وظواهر ـ المادة التي يطرحها هو نفسه . وما نريد توضيحه هنا هو انه لا شك اننا عندما ننزل الى الأساسيات فان الوجود يظهر على شكل مجموعة من الظواهر ، ولكن هذه الظواهر ليست عشوائية ، بل أنها منظمة ومقيدة باتباع اتجاهات ومسالك معينة لبناء المادة والعقل والوجود الذي نتحسسه سواءً في داخلنا أو خارجنا . وهذه الظواهر يؤثر بعضها على بعض باسلوب مصمم وليس

---

(١) انظر المصدر السابق ـ ص ١٢١ .

عشـوائياً . واحسن مثـال على ذلـك هو الفـرق الواضـح بين العـلاقات المكـونة للحجر والعلاقات المكونة للشجر ، أو بصـورة أفضل العـلاقات المكـونة للمـادة والعلاقات المكونة للعقل ، وهما نوعان متميزان من الوجـود . فالفـرق واضح ، ذلك ان احدهما يتحكم في الآخر بـاسلوب معين والـذي نسميه الارادة والـرغبة عندما نهبط في عالم الوجود الى مستوى احساساتنا وادراكاتنـا . ويقول (رسـل) (⁽¹⁾ان جزء العقيدة هذه الذي يخص الحياة الحاضـرة زائف بكل تـأكيد ، حيث أن مادة الجسم تتغير باستمرار بواسطة عملية التغذيـة وطرح الفضـلات . وحتى لو لم تكن كذلك ، فان الذرات لا تعتبر الآن عـلى أنها تمتلك وجوداً مستمـراً في علم الفيزياء ، وليس هنالك معنى للقول : ان هذه هي نفس الـذرة كتلك التي كانت موجودة قبل بضعة دقائق . واستمرارية جسم الانسان ليست سوى مظهراً وسلوكـاً ، وليست من المـادة) . وهـذا الاستنتـاج ينم عن قصـور شـديـد في الادراك والتفسير . لا شك فيه أن الذرة تتغـير ، حيث أن مكوناتها تـدور حول النواة فيها ، وتتحول من نوع الى آخر ضمنها ، ولكن الذرة نفسها ، وباعتبارها وحدة معينة ، لا تتغير أو تتحول الى وحدة من نوع آخر ولا تتحطم أو تتغـير الى شيء آخر ، والا لاقتضى تغيرها أن تتغير مكونات وخصـائص الجسم . فصحيح ان هناك حركة ضمن الذرة ولكنها ليست فعل انعدام . وعلى أي حال ، ليست هنـاك أدلـة عـلى أن التحـولات من نـوع الى آخـر للجسيمـات (ذات الحجـوم المتناهية في الصغـر) المكونـة للذرة تفصل بينهـا فترات زمنيـة (مهما كـانت هذه الفتـرات صغيرة) بحيث تـوجد هنـاك فترة زمنيـة خلالهـا لا يوجـد شيء (أي خلالها يحدث العدم) . فالتحولات تحدث بشكل مشـابه لسلخ قشـرة البرتقـالة حيث تخلع القشرة وبنفس الوقت يظهر اللب ، وليس هنـاك فترة زمنيـة خلالهـا تكـون القشرة قـد أزيلت وليس هناك لب تحتهـا . لذا فـان استنتـاج (رسـل) القائل انه ليست هناك استمرارية في الوجود ، وأن ذرة اليـوم ليست نفس الذرة

---

(١) انظر المصدر ٢٧ ، ص ٧٠ .

التي كانت موجودة امس ، ليس استنتاجاً صحيحاً . أما عن مادة الجسم الفعلية فانه من الواضح أنها تتغير وتتبدل خلال حياة الانسان ، وليس هناك سبب أو حاجة ، تدعو الى فرضها ثابتة لاننا نرى ذلك عندما تزداد أجسامنا وزناً ، أو تفقد وزناً ، و (رسل) يخلط بين استمرارية وجود الجسم مع مادة الجسم الفعلية الموجودة فيه . فالمادة تتغير ، ولكن الجسم (وهو الصورة) يبقى نفسه . وعلى كل حال ، فان هذا مثالاً رائعاً على امكانية بعث الانسان بمادة مختلفة ولكن بنفس الجسم ، ولا تدعي الأديان السماوية اكثر من ذلك ، فهي لم تزعم أن مادة الجسم نفسها تبقى . ويتضح أن (رسل) يدحض افتراضاً يطرحه بنفسه ولكنه يدعي أن الأديان تزعمه . وسوف نرى في نهاية هذا الفصل كيف ان الفيلسوف الاسلامي الكبير صدر المتألهين الشيرازي شرح هذا الموضوع قبل بضعة قرون شرحاً يخلب لب الحكماء ولكن (رسل) غافل عنه .

ويستمر (رسل) برسم نفس التشابه بالنسبة للعقل كما رسمه للمادة فيقول [(1)] ان الاستمرارية الذهنية للشخص عبارة عن استمرارية للعادات والذاكرة : كان هناك شخص ما أمس استطيع أنا أن اتذكر شعوره ، وذلك الشخص أنا اعتبره نفسي البارحة ، ولكن في الحقيقة ، أن نفسي البارحة لم تكن سوى وقائع ذهنية معينة يتم تذكرها الآن ، ويُنظر اليها كجزء من الشخص الذي يتذكرها الآن . وكل ما يكوّن الشخص هو سلسلة من الخبرات مربوطة بواسطة الذاكرة وبواسطة تشابهات معينة من النوع الذي نسميه العادات) . وهنا فان (رسل) يفترض أن هذه الوقائع مفصولة بعضها عن بعض بواسطة الزمن (بطريقة تشابه زعمه في تغيرات الذرة) . ولذا فانها بالنسبة له سلسلة مربوطة بواسطة الذاكرة . ولكن السؤال هنا هو : ما هي الذاكرة ؟ وعندما نرجع الى نظريته في تفسير الوجود نجد أنها لا بد وأن تكون عبارة عن سلسلة

(١) انظر المصدر السابق ـ ص ٧٠ .

من الوقائع أيضاً . وفي هذه الحالة نحن نسأل ، ما هو الشيء الذي يربط هذه الوقائع مع بعضها لتكوين الذاكرة لكي تتمكن هذه الذاكرة من ربط سلسلة الوقائع التي تكوّن الشخص ؟ فان لم تكن مربوطة بشيء ، فان ذلك معناه ان السلسلة ستكون متقطعة ، وبذلك ينقطع الشخص لانه ليس هناك جسر يربط الوقائع المكونة له . واذا كانت مربوطة بشيء يجلعها مستمرة فليس هناك ما يمنع افتراض أن الوقائع التي تكوّن الشخص هي الأخرى مستمرة أيضاً ، وبنفس الوقت مربوطة الى الذاكرة بصورة ما (وعلى سبيل المثال بصورة شعاعية) كما هي الحال في ربط الذاكرة الى وحدة المعالجة المركزية في الحاسبات الالكترونية الحديثة . وبذلك فان التشابه الذي افترضه (رسل) بين الوقائع المكونة للعقل والوقائع المكونة للمادة (بعد افتراض الأخيرة منقطة بدون أي دليل منطقي) لسنا مجبرين على الأخذ به .

المسألة الثانية في هذا الموضوع هي ان الانقطاع بين الوقائع يفترض أحد الاحتمالين التاليين . الأول أن تتحول الواقعة الواحدة من نوع من الوجود الى نوع آخر من الوجود ثم ترجع الى النوع الأول . وفي هذه الحالة ليس هناك تقطع في الوجود ، واذن فالأنا مستمرة بالوجود وليس كما يزعم (رسل) . الثاني أن تتحول الواقعة من الوجود الى العدم ثم الى الوجود مرة اخرى . أي انه يفترض حدوث العدم بين وجودين ، وهو مرفوض أصلاً . فالوجود لا يتحول الى عدم ، واذا انعدم الوجود فان رجوعه مستحيل . وواضح ان هذه مسألة لم تخطر على بال (رسل) اطلاقاً . لاحظ كذلك ان القول بأن الوجود يتحول الى العدم ثم الى الوجود مرة اخرى معناه القول بأن المتناقضين يتبادلان (لان العدم هو نقيض الوجود) وهو مستحيل بديهياً .

ان نظرية الوقائع المنفصلة ، التي تكوّن سلسلة ، لا تفسر الوجود . ونحن نعتقد ان المادة قد يمكن تفسيرها بواسطة سلسلة من الوقائع غير المتقطعة وغير المنفصلة بواسطة التحولات أو عمليات التغير والتبدل . وقد بين العلم أن

هـذه التغيرات تحـدث بشكل دوري حيث يتحـول الجسيم من نوع الى آخـر ثم آخـر وآخـر ثم يـرجـع الى نفس نـوع الجسيم الأول وهكـذا . والعقـل لا يمكن تفسيره بهذا الاسلوب لأنه نوع من الـوجود يختلف عن المـادة . وبالنسبـة لقول (رسل) « ان نفسي البارحة لم تكن سوى وقائع ذهنيـة معينة يتم تذكرها الآن» لا تفسـر اي شيء ، وبـالتأكيـد لا تعني أن هناك انقـطاع في الاستمـراريـة وان « أنا البارحة » ماتت (والذي تتضمنه العبارة اعلاه) ، لأن السؤال الذي يطرح نفسه هو : من هو « الأنا الحاضر » الذي يتذكر ؟ ومن أين أتى ؟

ان هذا الأسلوب في التفكير قاد (رسل) الى القول انه عندما يمـوت الفرد فـان الشيء المكون لـه يتحطم بـأكمله . فهو يقـول (1)لذا اذا كنـا سنعتقـد ان الشخص يبقى بعد الموت فـانه يجب علينـا أن نعتقد أن الـذاكرة والعـادات التي تكوّن الشخص ستستمر بالعرض بنوع جديد من الوقائع . ولا أحد يستطيع أن يبـرهن ان ذلك لن يحـدث . ولكنه من السهـل أن نـرى أن ذلـك غـير محتمـل جداً . فذاكرتنا وعاداتنا مقيدة بتركيب الدماغ بطريقة مشابهة جداً لارتباط النهـر الى حوضه ، حيث الماء في النهر يتغير دائماً ولكنه يجري بنفس المجـرى لأن المطر السابق حفر قناة . وبأسلوب مشابه ، فان الحوادث السـابقة قـد حفرت قنـاة في الـدماغ ، وأفكـارنا تجـري في هذه القنـاة . وهذا هـو سبب الذاكـرة والعـادات الذهنية . ولكن الدماغ كتركيب يذوب عند الموت ، ولذا فان المتوقع ان تـذوب الذاكرة هي الأخرى أيضاً . وليس هناك من سبب للاعتقـاد بعكس ذلك بقـدر ما هناك سبب لتوقع أن يبقى النهر في مجراه القديم بعد أن تتمخض هـزة ارضية عن جبل في المكان الـذي كان فيـه الوادي) . و (رسـل) هنا ، وبعـد أن قال بعـدم استمراريـة الروح (وأنها عبـارة عن وقائـع متقطعـة) وبدلاً منهـا تـوجـد الذاكرة والعادات ، يذهب الى القول أن هذه العادات لا تبقى بعد تحطيم خلايا

(1) انظر المصدر ٢٧ ، ص ٧٠ .

الـدماغ وذوبـانها عند المـوت . وهنا فانـه يتكلـم عن بقاء الصـور والادراكـات ضمن عالمنا الحاضر . وليس هناك من أحـد يشك في ذلـك ، ولكنه تـوصل الى استنتاجه هذا على افتراض أن كل شيء في الوجود مـادي ، وهو ليس كـذلك . لانه اذا كانت الروح لا مادية ، وهي كذلك واذا كانت مستمرة الوجـود ، وهي كذلك كما برهنا ، فان الشخص سيبقىٰ بعد الموت . وعـلى أي حال ، فـان مثال النهـر الذي ضـربه لنـا مرفـوض لان الدمـاغ ليس قناة أو ممـراً كحوض النهـر ، والعقل ليس فقط افكاراً تجري خلال الـدماغ كـما يجري النهـر خلال حـوضه . فـالعقل مهنـدس تصميم وبناء وهـو يشيّد الأفكـار بطريقـة ينظم فيهـا الظواهـر المبعثـرة التي تكوّن الأفكـار بأسلوب منـظم خاص بحيث تصبـح هذه الـظواهـر مـربوطـة بعضها الى بعض بـواسطة عـلاقـات خـاصـة ، لـذا فـان العقـل يبني الأفكار ، مستعملاً الدماغ كآلة . والأفكار لا توجـد بنفسها ، وإنمـا التي توجـد هي الظواهر التي تعتبر اللبنات الاساسية لها . ولو كانت منتظمة أصلاً كأفكار لما كانت هناك حاجة للعقل لكي يفكر . والبناية لا تـوجد لان الـطابوق مـوجود ، ولكنها توجد بعد ترتيب الطابوق على شكل نظام خاص . وكذلك الأفكار فانها لا توجد لأن الظواهر التي تشكل لبناتها الأساسية موجودة ، ولكن بعد أن يـربط العقل هذه اللبنات بواسطة علاقات خاصة ، عندئذ تصبح أفكاراً . ولذا فـاذا ذابت الآلـة (أي الدمـاغ) فان البنّـاء يستطيـع أن يركّب الأفكـار بواسـطة آلـة اخرى (لاحظ ان الذاكرة والعادات هي جـزء من الأفكار) . ولـذا فان البقـاء بعد الموت والبعث مرة اخرى ممكنان .

والبـرهان عـلى أن العقل مهنـدس بناء يكمن في مـلاحظة انـه ليس هناك شخصان متشابهان في كل شيء حتى ولو تمت تربيتهم تحت نفس الظروف . فان كـل واحد منهـما ستكون لـه شخصيته المميـزة ، وحتى التوأمـان المتشابهـان فانهما مختلفان في شخصيتيهما .

ونظرية (رسل) تقر بوجود الروح بالرغم من انكاره لهـا . فهو نكـر بقاء

الروح بعد الموت بالرغم من أن انفصالها عن الجسد لا يتضمن رجوعها الأكيد الى الشيء الثالث الأساسي الذي تقول به نظريته ، أي التحطيم . لذا فان احتمال بقاءها بعد الموت لا يمكن نفيه . لاحظ ان مادة الجسم لا ترجع الى الشيء الثالث بعد الموت ولكنها تبقى كمادة ، وكذلك يمكن تصور الروح .

ان فكرة الروح والجسد المنفصلين عن بعضهما لها مساويء كثيرة . دعنا نسمي الظواهر التي تركّب العقل ظواهر العقل ، والظواهر التي تركّب المادة ظواهر المادة . فاذا كانت ظواهر العقل تتحكم بظواهر المادة ، وهي كذلك ، فان ظواهر العقل أعلى من ظواهر المادة في مرتبة الوجود . ويتبع ذلك انه لما كانت ظواهر العقل مُستمدَّة من الشيء الثالث فهناك احتمالان . الأول ان الشيء الثالث أرقى من ظواهر العقل في مرتبة الوجود ، أي انه اكثر ذكاءاً . وطبعاً فان النظرية لا تفسر التعقيدات التي تتبع ذلك ، فهذه النتيجة معناها أن الشيء الثالث الأساسي ليس أساسياً جداً كما يزعم (رسل) لانه يمتلك ذكاءاً ، والذي بدوره يدحض النظرية نفسها . الاحتمال الثاني أن هناك نوع من الوجود اكثر تطوراً من الشيء الثالث الأساسي يصوغ الشيء الثالث الأساسي الى عقل والى مادة بواسطة تراكيب خاصة . وكلا الاحتمالين يتضمنان وجود نوع من الوجود أعلى مرتبة من العقل . وهذه النتيجة ليست مفرحة كثيراً (لرسل) ، وهي بالتأكيد ليست النتيجة التي كان يود أن ينتهي اليها . ونظرية الروح والجسد المنفصلين التي زعمها (رسل) والذين من قبله ، بأي شكل كان ، تجعل من الصعب تصور كيفية تأثير احدهما على الآخر ، ذلك التأثير الوثيق الذي نراه في الانسان . فاذا مرض الانسان أو تألم تتأثر نفسيته ، واذا تأثرت نفسيته تتوعك صحته . ولعل اصعب ما يواجه العلم الحديث هو هذا التأثير المتبادل والارتباط الوثيق بين الروح والجسد ، أو كما يسميها بعض الناس العقل والجسد .

وقد أدرك الفيلسوف الاسلامي الكبير صدر المتألهين الشيرازي حل المشكلة . وهو في هذا المضمار يعتبر الفيلسوف الحق وحكيم الحكماء لعصور كثيرة . ونظريته تقول أن العقل والمادة نوعان مختلفان من الوجود ، ولكن ليس بنفس المفهوم الذي حمله (رسل) او الفلاسفة الأوربيون من قبله . فالمادة تتحرك في حركتها الجوهرية للارتقاء نحو الكمال في عالم الوجود (وهذه الحركة ليست حركة فيزيائية أو جسمية ، ولكنها حركة نوعية تحولية ، أي محاولة الارتقاء في مرتبة الوجود) تتحرك نحو الكمال للاقتراب من الكمال اكثر فاكثر ، وتستمر بالارتقاء حتى تفقد ماديتها تحت ظروف معينة وتتحول الى وجود لا مادي . ولذا فليس هناك حد فاصل بين العقل والمادة كما يتصور بعض الناس ، ولكنها درجتان من الوجود تربط بينهما الحركة الجوهرية . والروح ، وان كانت لا مادية ، ولكنها تمتلك علاقة مادية لانها المرحلة العليا لكمال المادة في حركتها الجوهرية . فالمادة عندما تمتلك الكمال تتحول الى روح . وبهذا الادراك لمفهوم الروح والمادة فان العلاقة بين المادة والعقل وتأثير احدهما في الآخر يمكن فهمه بدون أي صعوبة . ذلك لأن العقل ليس شيئاً منفصلاً عن المادة ولكنه صورة مادية بعد الارتقاء الى عالم الكمال من خلال الحركة الجوهرية . والفرق بين العقل والمادة يمكن تصوره كالفرق بين درجة الحرارة العالية ودرجة الحرارة الأقل منها بدرجة واحدة . وهذا لا يعني أن العقل هو من نتاج المادة ولكنه نتاج حركتها الجوهرية نحو الكمال . والحركة الجوهرية لا تنبع من المادة نفسها لأن الحركة هي خروج الشيء من القوة الى الفعل تدريجياً . والقوة لا تصنع الفعل ، وكذلك فان الممكن لا يصنع الواقع . ولذا فان الحركة الجوهرية لها سببها خارج نطاق المادة المتحركة . والعقل (او الروح) هو نتيجة هذه الحركة ، والحركة هي الجسر الذي يربط بين المادة والروح . لذا فان الحركة بالضرورة تنتج من علة خارجية ، والعقل (او الروح) هو محرك المادة والذي نسميه النفس . والعقل شيء حي (بموجب تعريف الحياة على أنها الادراك والوعي وقابلية الحكم) . أما المادة فانها ميتة (بموجب تعريف الموت على انه

فقدان الادراك والوعي وقابلية الحكم) . لاحظ ان الحيوانات والنباتات حية ، ولكن بدرجة أقل من الادراك والوعي وقابلية الحكم من الانسان . لذا فانها تمتلك الأرواح أيضاً ، ولكن بدرجة أقل (لأن الوعي قليل أو منعدم) . والعلة الخارجية هي الله الخالق لكل شيء ؟ وضمن هذا التفسير لا يوجد تناقض ، سواء بين المادة والعقل ، أو مع الاكتشافات العلمية مهما تقدمت في المستقبل . وهذه النظرية تفسر كيفية اتحاد الحيمن والبويضة لتكوين الانسان . لانه اذا كانت الروح وحدة منفصلة عن المادة تصبح الحالة مستحيلة التفسير ، وقد يكون هذا السبب هو الذي دعا بعض الفلاسفة ، مثل القديس اكويناس ، الى القول بأن الروح لا تنتقل مع الحيمن ولكنها تُخلق كشيء جديد مع كل انسان . ذلك لان القول بأن الروح تنتقل مع الحيمن يجعل السؤال التالي يطرح نفسه : وماذا عن الروح في البويضة ؟ فاذا قيل انها تمتلك روحاً أيضاً ، فالسؤال يصبح : كيف تتحول الروحان الى روح واحدة في شخص واحد اذن ؟ واذا قيل انها لا تمتلك روحاً ، فالسؤال يصبح : اذا كانت ميتة كيف تتحول وتصبح حية ؟ لذا فان اسلم السبل بالنسبة له هو القول بأن الروح تُخلق من جديد في كل انسان . وهذا الرأي جعل (رسل) يُعلِّق بكل سخرية بالقول [1]«عندما يولد الانسان خارج نطاق الزواج ، يبدو ان ذلك يجعل الله شريكاً في الزنا) . ولو أن (رسل) كان قد رأى تفسير صدر المتألهين للروح وعلاقتها بالمادة لامسك عن هذا التعليق الذي لا يليق بالحكماء . ونحن لا نعلم ، أليس المفروض فيه كفيلسوف أن يطلع على فلسفة صدر المتألهين لعله يتعلم شيئاً من الحكمة الحقيقية التي يفتقدها الانسان الأبيض ؟ .

ويبدو أن نظرية صدر المتألهين هي النظرية الوحيدة التي تفسر كيفية اندماج الحيمن بالبويضة لكي يصبحان روحاً واحدة في النهاية . وعندما يبدأ المخلوق

---

(١) انظر المصدر ٢٨ ، ص ٤٤٩ .

الجديد بالنمو (بعد الاخصاب) فانه ينمو جسدياً ويصبح اكثر تعقيداً . وكذلك روحه تنمو ولكن ليس حجمياً ، فليس هناك حجم لان الـروح شيء لا مادي ، ولكنها تنمو من ناحية انها تصبح اكثر تطوراً في مستوى الـوجود (وهـو ما يـطلق عليه النضج) . والمادة في تركيبها العضوي الجديد والمعقد تصبح تحت الـظروف الملائمة لكي تتـطور الروح التي في داخلهـا في مراتب الارتقـاء (خلال حـركتها الجوهرية) اكثر فاكثر نحو الكمال في عالم الوجود . وبطبيعـة الحال فـان الروح لا تصل الى الكمال المطلق لأن الكمال المطلق من صفات الخالق تعالى، ولكنهـا تصـل الى مراتب أرقى بكثـير من مرتبـة المادة . والـروح في الانسـان تصـل الى مراتب أرقى من الروح في النبـاتات والحيـوانات ، الى أن تصـل المستوى الـذي تمتلك فيه الوعي .

والمـادة تمتلك الروح بـالقوة ، ولكن هـذه القـوة لا تخـرج الى الفعـل من نفسها . لذا فان المادة لا تتطور الى كائن حي بنفسهـا مطلقـاً . ولكن عند تـوفر الـظروف الملائمـة ، وهي الترتيب العضـوي للمادة ووجـود الحيـاة ، أو بكلمـة أخرى وجود الروح والحركة الجوهرية التي تربط المادة بالروح ، فان القوة تخـرج الى الفعل ، وتتكامل المادة حتى تفقـد ماديتهـا وتتحول الى الـروح . وهذا يفسر كيفية نمو العقل ونضوجه عند نمو الجسم . وتستمر الـروح (أو العقل) بـالتطور والنمو تحت هذه الظروف بالضبط كما يتطور الجسم وينمو . لذا فان وجود الحياة المسبق ضروري لتطور المادة نحو الكمال لكي تبلغ مراحل الروح . وهذه الحياة المسبقة هي التي تقرر الحدود التي يقف عندها تكامل المادة ، سواءاً تصبح روحاً نباتية ، أو حيوانية أو انسانية . لذا فان أرواح النبات والحيوان والانسـان تختلف بعضهـا عن بعض ، ولكن بـدرجـة ، أي بمستـوى ، وليس بـالـطبيعـة (بنفس الطريقة التي تكـوّن المواد العضـوية المختلفـة الأحياء المختلفـة) . وروح النبات هي الأدنى بـين مستـويـات الأرواح . وروح الحيـوان أكـثر تكـامـلاً من روح النبـات . وروح الانسان أكـثر تكاملاً من روح الحيوان . وعـلى اي حـال فـان

درجة التكامل لا بد وأن تحملها الروح المسبقة كما تحمل الجينات المعلومات التي تحدد الخصائص والصفات الجسمية للكائن الحي . وبطريقة مشابهة فان الروح تمتلك مستويات مختلفة وكل روح تحمل مستواها الخاص بها .

يتضح اذن أن وجود الحياة المسبق ضروري لخلق الحياة الجديدة واستمراريتها وتحديد مستواها في مراتب الوجود . وهذا معناه أن وجود الروح شرط أساسي لانتاج الأرواح الجديدة من المادة (أي استخراج الفعل من القوة) . لذا نستنتج ان الحياة الاولى لا بد وأنها خلقت بواسطة عقل اكثر رقياً وتطوراً .

ان الروح والمادة عبارة عن وجهان لنفس الوجود . احدهما سلبي (وهو المادة) والآخر فعال (وهو الروح) . وكلاهما عبارة عن حلقتين في سلسلة الوجود المتصل . والوجود يجب أن يكون متصلاً ولا يُعقل ان يوجد عدم يفصل بين مستويات الوجود المختلفة (اذا كانت هناك عدة وجودات مختلفة) .

وهذه النظرية تعطي تفسيراً أفضل لكيفية اتحاد روحي الحيمن والبويضة حيث انهما يتحدان طبيعياً وتلقائياً عندما تتحد المادتان المكونتان للحيمن والبويضة . وكذلك تعطي تفسيراً أفضل لكيفية نمو العقل ونضوجه حيث انه يتغذىٰ على المادة التي تدخل الى الجسم على شكل غذاء ، ويستخرج منها الظواهر التي تشكل لبناته الأساسية . (لاحظ ان العقل الواعي هو أعلى مراحل الروح . ولذا فان الروح ، وان كانت موجودة في مراحل الجنين الأولى ، الا أن العقل الواعي يبدأ بالنشوء بعد تكوين الآلة التي من خلالها يفعل ، وهو الدماغ) . وبذلك فان الغموض الذي يكتنف كيفية اجتذاب هذه الظواهر الى العقل قد تم اجلاؤه ، بعكس نظرية (رسل) . فالعقل ينمو بموجب هذه النظرية بواسطة نظام متطور مسيطر عليه باحكام ، وفيه فان الذاكرة والعادات ليست الا فروعاً ولواحق (أو اجزاء مساعدة) . وهذا يفسر ظاهرتي الحياة

والعقل أفضل من تفسير (رسل) الذي يحوّل العقل الى شيء ليس اكثر من ظواهر عارية ليست ذات أهمية تذكر . والنظرية تجعل من السهل تصور كيفية الحفاظ على الحياة في الفيروسات والحبوب والبيوض لفترات زمنية طويلة . وكيفية تأثير الروح والجسم في بعضهما بعضاً طالما انهما ليسا سوى درجتين مختلفتين لنفس الوجود مربوطتين باحكام ، وهذا الاحكام يمثل الوجود المتصل للموجودات . وهي النظرية الوحيدة التي تفسر كيفية نشوء الحياة في الخلايا الحية الجديدة حيث ان هذه الحياة الجديدة استنساخ وليس انتقال من خلايا حية أخرى لأن الخلية الأم لا تموت عند تكوين الخلية الجديدة داخل الجسم الحي .

وأخيراً ، فانه من خلال هذه النظرية التي تربط المادة بالعقل بطريقة رائعة ، نستطيع أن ندرك كيف يمكن للعقل أن يكامل نفسه تحت ظروف معينة ويصل الى المراحل التي يذوب فيها في ذات الخالق ويصبح متصلاً به بعد أن يرتقي الى مراحل الكمال (أو المراحل القريبة من الكمال) . وهذا يحدث للأنبياء والمعصومين فقط . وهذه أعلى مراحل الكمال في عالم الوجود ، ولاتحدث بصورة عشوائية ، أو لا واعية ، ولكنها تحدث بصورة واعية ، أي ان التكامل يحدث للروح بالفعل الواعي المتجرد عن الماديات الواطئة ونكران الذات الكلي ، لأن هذا التكامل يخص أعلى أنواع الوجود في الانسان وهو العقل الواعي .

ولكي يكامل ذاته الى حدود أبعد، فان وجودنا يرتبط بالمستويات الأخرى من الوجود (الممكن وجودها) بطريقة تشبه الجريان ، وفي النهاية فانها ترتبط بذات الله الذي هو وحيد من نوعه ، وهو النهاية . انه كل شيء ولذا لا يوجد شيء اسمه العدم لان ذلك يناقض الوجود المطلق لله تعالى. وولادة الكائنات الحية الجديدة هو تحويل ظواهر الوجود من نوع الى آخر، والتي تبدو لنا (بسبب محدوديتنا وجهلنا) انها أشياء جديدة لم تكن موجودة من قبل .

بقي هنا أن نذكر شيئاً يخص الآية الكريمة ﴿[1]ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلاً) ، فيقول بعض المفسرين انه لا سبيل لمعرفة الروح بدليل الآية الكريمة ولذا فان البحث فيها مسألة عقيمة ولا يجوز الدخول فيها . ولكننا نرى ان الآية تصرح بأن الروح من أمر الله فقط وهذا شيء لا يختلف عليه أحد، فكل الأشياء من أمر الله بضمنها الروح . ونحن لا نعلم كنه الروح بطبيعة الحال الا ان ذلك لا يمنع من محاولة اثبات وجودها بالطرق العقلية ومعرفة علاقتها بالمادة ، رداً على ما يزعمه الماديون الذين لا يقبلون بمنطق القرآن لانهم لا يعترفون بكونه كتاباً مقدساً، بشرط ان لا يتعارض منطقنا مع محكم التنزيل .

وبالنسبة للكلام عن تبدل المادة مع بقاء الجسم يقول صدر المتألهين في الجزء الثاني من كتاب الاسفار « فالفاعل الذي هو فوق المادة والغاية التي هي فوق المادة سببان بعيدان للموجودات المادية . ولو كان هذان السببان البعيدان كافيين لايجاد الموجودات المادية لكانت هذه الموجودات المادية باقية دوماً ولا تنالها يد الفناء والعدم ، ولكانت محتوية منذ البداية على الكمالات اللائقة بها ، ولأمسى أولها عين آخرها ، ولكن هذين السببين البعيدين غير كافيين وإنما هناك سببان قريبان يؤثران ايضاً وهما المادة والصورة ، فمن جهة الصور بحكم التضاد وتقبل الكيفيات الأولية الفساد ، وكل مادة لها قابلية الصور المتضادة ، ولهذا فان أي موجود يملك نوعين متضادين من القابلية لونين متضادين من الاقتضاء ، احدهما من ناحية الصورة والثاني من جهة المادة . فالصورة تقتضي أن يكون الموجود باقياً ومحافظاً على وضعه ، أما المادة فتقتضي أن تتغير حالته وتوجد فيه صورة أخرى مضادة للصورة الأولى . ولما كان من المستحيل تحقق هذين الاستحقاقين والاقتضاءين المتضادين في شيء واحد فلهذا لا يمكن أن تكون المادة

(١) سورة الاسراء، الآية ٨٥ .

محتوية على صور متضادة في آن واحد ، والعطاء الالهي يوجب تكميل مادة هذا العالم الذي هو أسفل العوالم بواسطة الصور ، ولذا قدرت الحكمة الالهية أن تكون الحركة دورية والزمان غير منقطع والمادة متغيرة بحيث تتغير الصور على امتداد الزمان ويتبدل موقعها ، وتحكم الضرورة أن تكون لكل صورة مدة معينة تختص بها فتستوفي كل صورة حصتها من الوجود .

ولما كانت المادة مشتركة فكل صورة لها حق في الصور الأخرى بحيث يناسب أن تعاد الى صاحبها ، فالعدل يوجب أن تعطىٰ مادة هذه الصور لتلك ومادة تلك لهذه ، وعلى هذا الترتيب تنتقل المادة خلال الصور يداً بيد ، ولهذا السبب يقتضي العدل ورعاية الاستحقاق أن يقوم نظام العالم على بقاء الأنواع لا الأفراد . يا له من فهم عميق ورائع لمعنى الوجود !! ويمكننا أن نفهم معنى كلام هذا الحكيم الذي بلغ ذرة الحكمة ومنتهاها على مستوى الفلاسفة بواسطة مثال الشجرة والحيوان والانسان . فالمادة تنتقل من الأرض الى الشجرة ثم الى الحيوان ثم الى الانسان ثم الى الأرض مرة اخرى . وهنا فان المادة تنتقل بين الصور ، والصور هي الشجرة والحيوان والانسان . فكل صورة توجد لفترة معينة من الزمن ثم تختفي ، ولا تستطيع نفس المادة أن توجد ضمن أكثر من صورة واحدة بنفس الوقت . لذا فان التناقض قد يحدث بين الصور ، ولكن ليس ضمن المادة . قارن هذا المفهوم الحكيم مع ما قاله (برتراند رسل) بصدد عدم رجوع الجسم بعد الموت لأن مكونات الجسم تتغير ثم انظر كيف ان (رسل) فاته ادراك الفرق بين المادة والصور .

عودة الى التطور :

اذا كان العقل والمادة يتكونان من نوعين من الظواهر المختلفة ، فان القول بأن هناك تطوراً ، وليس خليقة ، معناه القول أن الظواهر المكونة للعقل في خلق مستمر وان العلاقات التي تربط بينها تُمسي اكثر تطوراً باستمرار أيضاً ولأسباب

مجهولة . وهـذا التطور معقـد جداً ويـدفع بـاتجاه الأحسن فـالأحسن . وبكلمة اخرى ، هناك بناء مستمر لأنـظمة اكـثر تطوراً . واذا كـانت هذه الأنـظمة غـير مخطط لها فان معنى ذلك ان ما كان موجوداً في البداية ليس سوى ظواهر من نوع ما ، وهذه الظواهر بدأت ترتبط ببعضها بعضاً بطريقة الصـدفة المحضـة لتكوين المادة ثم الحياة ثم العقل ، والعملية لا زالت مستمرة . وبذلك فان هـذا التطور هـو نتيجة للعشـوائيـة العميـاء . ولكننـا قـد نتسـاءل : من أين أتت الـظواهـر الأساسية الأولى التي كـونت الوجـود في المراحـل اللاحقـة ؟ ومن أين أتى مفهوم العشوائية ؟ ونحن نستطيع أن نحدد ثلاثة أشياء كان يجب أن توجد في البداية . الأول هي الظواهر ، والثاني العشوائية والثالث القـابلية والاستعداد الذاتيـين لهذه الظواهر لكي ترتبط لتكوين الأنظمة . ولـو كان أحد هذه الأشياء مفقوداً لما كان باستطاعة المادة الأساسية للوجود أن تصنع العالم ، الا اذا فرضنا عدم وجـود أي شيء في عالم الوجود على الاطلاق ، والذي كنـا قد بـرهنا عكسـه حيث يجب أن يكـون هناك شيء مـا في الوجـود ولا يمكن أن نكون نحن عـدماً ، لأننـا اذا كنا عدماً سوف لن يكون بامكاننا معرفة الوجود والتكلم عنه ، ولا حتى العدم . ولما كنـا ندرك الـوجود فـلا بد وأننـا مـوجـودون لان ادراك الـوجـود من خصـائص الموجود .

وعـلى أي حال يتضـح أن الأشياء الثـلاثة الأسـاسية ، ولسبب مجهـول ، أنتجت نظاماً متطوراً الى الدرجة التي صُنع فيها العالم الذي نعرفه . ولكن كيف ولماذا ظهر مفهوم النظام الى عالم الوجود ؟ اننا تعلمنا أن نفهم العشوائية على أنها عكس النظام وهذا ما يعنيه التعبير نفسه . ولذا لا بد وأن يكون هناك نـوع آخر من الوجود ما فوق الظواهر الذاتية واستعدادها للارتباط ، وهذا النوع من الوجود اكثر تطوراً من هذه الأنواع الثلاثة من الموجودات بالضرورة ، وهو الذي شكلها باسلوب معـين ، مستخرجـاً الفعل من القـوة ، والواقـع من الممكن ، لتكوين الكـون .

والسبب في ذلك هو أن القوة وحدها لا تصنع الفعل ، والممكن وحده لا يصنـع الواقع .

الفصل الثالث عشر

العدل الإلهي

الخير والشر

إن فكرة الخير والشر فكرة قديمة طالما تمسك بها الماديون في معركتهم ضد معتقدات الكنيسة الأوربية التي لم تستطع أن تدافع عن نفسها ضد إتهاماتهم بسبب نظرتها الخاطئة لهذه القضية . ويتركز الحوار حول ماهية الخير والشر وهل أنهما مفهومان مطلقان أم نسبيان . والماديون الذين لا يؤمنون بوجود خالق للكون ينسبون الشر الى الخالق الذي تدعيه الكنيسة ، بالقول أنه إذا كان الشر موجوداً في المخلوقات ، وإذا كان الله قد خلق هذه المخلوقات ، فمن أين أتاها الشر ؟ لا بد وأنه من الله . وهذا ما عبر عنه (برتراند رسل) بالقول[1] (أن الموجود الذي يمتلك القدرة المطلقة والذي خلق عالماً يحتوي على الشر ليس بسبب الخطايا فلا بد وأن يكون هو نفسه شريراً جزئياً) . وهذا رأي في منتهى السذاجة التي لا تليق بمفكر أو فيلسوف لهذه المسألة الهامة . ثم يستطرد

---

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص١٩٤ .

(رسل) فيقول[1] (قـد يمكن فهم أن الشر الذي سببـه الذنب عـلى أنه نتيجـة لإرادتنـا الحرة ، ولكن مشكلة وجـود الشر في عالم مـا قبل الإنسـان تبقى بـدون فهم) ، وهـذه إشارة واضحـة على إعتبـار الشر مطلقـاً ، ولكنه لم يحـرك نفسـه للتحقق من كـون مطلقيـة الشر صحيحـة أم لا . وبـدلا من ذلـك فـإنـه يـردد الإعتقاد القائل أن فِكرة الله فكـرة إختلقها البشر ، ثم يتعـامل مـع هذه الفكـرة بإستخفاف لا يليق بالحكماء متناسياً السجل التاريخي للأنبياء وحججهم وتفـانيهم في سبيـل هذه الفكـرة . وأنــه لمــن العجيب أن يعتبـر هؤلاء النـاس الأنبيـاء وفكرة الله زائفة لمجرد أنه قـد تبين أن بعض معتقـدات الكنيسة خـاطئة ، والتي يرددها (رسل) ويؤكد عليها في أكثر من مناسبة . وبطبيعة الحـال فإنـه لم يرغب (ولعله لم يـع) أن يعتبر سبب الخـطأ هو تـدخل الإنسـان في صياغـة معتقدات الكنيسة ، أولئك الرجال الـذين لعبوا (وبـاعترافـه كما رأينـا في الفصل الأول) دوراً مهماً في قولَبَة الدين المسيحي على مر التـاريخ ، بـدلاً من التمسك بتعـاليم الله والمسيح نفسه . ولعله كان مؤمناً بالمادية ولذا فإن غاية ما كان يبحث عنه هو البرهنة على أن الكنيسة خطأ ، وقد يكون إعتبر المسيحيـة على أنها دين المجتمـع الأوربي المتقدم في عصرنـا هذا ، لـذا فإنـه من غير الممكن أو المعقـول أن تكون الأديان الأخرى أفضل منها لأنها معتقد الإنسان المتحضر . وبعد البرهنة على أن المعتقـدات المسيحية تتخللهـا التناقضـات فلماذا يضيـع وقته بـالنظر الى الأديـان الأخرى الأقل تحضراً . وكل أفكاره كانت مصـوّبة بـإتجـاه واحـد وهـو أن الله ليس مـوجوداً . وبسبب إعتقـاده هذا فـإنه يـربط الأديان الأفضـل بالمجتمعـات المتحضرة ، وهذا قد يكون صحيحاً إذا كان الدين هو الحـاكم والمنتج للمجتمـع الأفضـل ؛ إلا أن الحـالــة ليست هكـذا بـالنسبـة لأوربـا التي تقـدمت فيهـا الإكتشافات العلمية بعد أن تخلت عن الدين وقيوده . كما أن التاريـخ يشهـد لنا بأن الدين كفكرة إصلاحية ظهرت دائـماً في المجتمعات المحـرومة والمضـطهدة ،

(١) نفس المصدر، ص١٩٤ .

وليس في المجتمعات المتحضرة . وهذا صحيح بصورة خاصة مع المسيحية التي أتت الى أوربا من الشرق الأوسط الذي كان مستعمراً من قبل الرومان في ذلك الوقت .

وبعد أن توصل (رسل) الى إستنتاجه للشر الذي رأيناه ، يستمر ، عازيا كل شيء الى إختلاق الإنسان ، بالقول[1] (ولذا فطالما بقينا متجردين عن التحيز ، فقد نكون مقتنعين بالقول إن كلا أفعال الخير والشر عبارة عن وهم . . . . فالخير والشر ، وحتى الخير العلوي الذي يجده التصوف في كل مكان ، هي أنعكاسات لعواطفنا على الأشياء الأخرى ، وليست جزءاً من مواد الأشياء كما هي بنفسها . ولذا فإنه عند التأمل المتجرد والمتحرر من كل الرواسب مع النفس ، سوف لن يكون الحكم على الأشياء لا بالخير ولا بالشر) . أي أنه ليس هنالك خير بحد ذاته أو شر بحد ذاته ، ولكنهما نسبيان . ولكن إذا كانت هذه هي الحالة فمن أين أتت أفكار الصحة العدالة والجمال ؟ أن ميل الإنسان نحو الصحة والعدالة والجمال ميل فطري ، وكذلك رفض الشر والقبح . فالصحة والعدالة والجمال تؤثر بصورة متشابهة على طيب راحتنا النفسية والفكرية ، وكذلك فإن الخطأ والشر والقبح تؤثر بصورة متشابهة ضد راحتنا النفسية والفكرية ونحن لا نتكلم هنا عن ما هو الصحيح أو العادل أو الجميل ولا عن ما هو الخطأ أو القبيح ، ولكننا نتكلم عن مفاهيم هذه الأفكار . ونحن نعتقد أن الجميع متفقون على وجود هذه المفاهيم . وقد نختلف عن الأشياء التي يمكن إعتبارها عادلة والأشياء التي نعتبرها غير عادلة ولكننا نتفق على وجود العدالة كمفهوم بحد ذاته . وأهمية هذه المفاهيم بالنسبة لبحثنا يأتي من كون إرتباط الصحة والخير بالعدالة والجمال وإرتباط الشر بالخطأ والظلم والقبح . وما يدعيه (رسل) يوصله الى القول بأنه ليس بإمكاننا ، فيما لو حررنا أنفسنا من

---

(١) نفس المصدر السابق ص٢٧ .

رواسب الماضي الفكرية ، إن نعطي أي حكم من أي نوع لأننا سوف لن نعرف ماهية العدالة والظلم بسبب عدم وجودها بحد ذاتها على حد قوله . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو إذا كانت هذه هي الحالة فعلاً فمن أين إكتسبنا قابلية التحكيم وكيف ظهرت هذه المفاهيم الى عالم الوجود ؟ فاما أن تكون هذه القابلية قد تطورت فينا من الداخل ، وهذا معناه أنه يوجد صح وخطأ مما دعانا الى التمييز بينهما . أو أن القابلية قد منحت إلينا من الخارج والتي تعني أن الله موجود . وفي كلا الحالتين فإن النتيجة هي أن كلا الخير والشر موجودان . وفي الواقع فإن الأعراف لم تقم إلا على أساس هذين المفهومين .

إذن ، وخلافاً لإعتقاد (رسل) ، فإن الخير والشر موجودان ، وما نحتاجه هو توضيح الغبار الذي يشوه الأفكار الصحيحة حولهما . وأصل هذا التشويش هو إعتبار كلاهما مطلقين ، والذي يؤدي الى التناقض الذي جعل (رسل) يرفضهما ، وجعله يذهب بعيداً الى القول بأنه ليس هناك شيء نبيل وشيء فاسد ، فهو يقول[1] (أنه عند إدراك أن الشرور الأساسية سببها إمبراطورية المادة العمياء، وأنها التأثير الكلي الضروري للقوىٰ التي لا تملك الوعي والتي هي لهذا السبب ليست نبيلة وليست فاسدة فان مفهوم الظلم يصبح سخيفاً . . . أنه من الواضح أن بعض الأشياء حسنة وبعضها رديء ونحن لا نمتلك الواسطة التي تمكننا من معرفة فيما إذا كان الحسن هو السائد أو الرديء هو السائد) . وهذا الرأي مستمد من نظرته المادية الى الوجود . والواقع أن الكون واسع جداً بالنسبة لنا ، ونحن والحالة هذه لا يمكننا أن نعد الأشياء الحسنة والأشياء الرديئة لكي نعرف أيهما السائد ، ولذا فإن (رسل) ينتهي الى إستنتاجه . ونحن هنا نتكلم عن مفاهيم الخير والشر وليس فيما إذا كانت الأشياء النبيلة سائدة أو الأشياء الفاسدة سائدة . وعلى كل حال نحن نعتقد أننا نستطيع

(١) انظر المصدر ٣٠ ـ ص٦٨ .

إدراك أي من المفهومين يأتي أولاً ، وأيهما مطلق ، وعليه فإننا نستطيع أن ندرك أيهما السائدة .

دعنا أولاً أن نعرف ما هو الشر .

الشر هو أي شيء مناقض للخير . والخير يمكن تعريفه بأنه العدالة ، وهي إعطاء كل ذي حق حقه سواءاً كان خصلة أو صورة أو ملكية أو شيئاً آخر ، وسواءاً كان الإنسان، أو الحيوان أو أي مخلوق آخر ، حياً أو ميتاً ، حتى الأشياء الصغيرة والتي نعتبرها تافهة ، أي إن العدالة هي وضع الشيء في موضعه . وخلافاً لإستنتاج (رسل) بأن الله شرير جزئياً (تعالى عن ذلك) فإننا نقول إذا كان الله خلق كل شيء فإنه ليس بحاجة لشيء لأنه موجود سواءاً كان الخلق موجوداً أم لم لا . ولذا فإنه ليس بحاجة الى الشر .

ولإتمام الفائدة من هذا البحث سوف نتطرق الى موضوع العدل الإلهي من ناحيتين فقط وهو ما يهمنا هنا ، علما أن هناك نواحي أخرى بيّنها الفلاسفة الإسلاميون بالتفصيل (ولكننا لسنا هنا بصدد ذكرها) . الناحية الأولى هي أنه إذا كان الشر هو سلب الحق من صاحبه ، وإذا كان الله خلق كل شيء فهو المالك لكل شيء ، لذا فان مفهوم الظلم بين الله وخلقه غير وارد لأنه إذا سلب الله المخلوقات أشياءها سيكون الله قد أخذ ما يملك وما يعود إليه وما هو حقه . الثاني إن الظلم سيقع إذا لم تأخذ الأشياء من الوجود ما تستحق . والذي يحدث فقط إذا أوقف الله فيض الوجود بحيث أنه لا يصل الأشياء ما تستحق ، والذي يجعلها ناقصة أو معدومة الوجود ، والذي لا يتفق مع مطلقية الله . والأشياء تختلف من وجهة نظر إكتساب نوعية الوجود الذي تستحقه ، ومن ناحية أن كل شيء يمتلك حقاً معينا وقابلية معينة لإكتساب ما يستحقه من الوجود . ولما كان الله مطلق الوجود فإنه لا يوقف فيض الوجود الى الأشياء . والأشياء لا تمتلك حقاً أكثر لإكتساب الوجود مما جُبِلت عليه بموجب خلقها ، ولذا فإنها لا تمتلك حقاً تجاه الخالق أكثر مما تُعطى . ولما كان هو الخالق فإن

الأشياء لا تمتلك حقاً تجاهه يجعل إعطاءها الحق وكأنه دَيْن على الخالق أو واجب عليه . وعدالة الله هي الوجود نفسه ، والذي معناه إن هذه العدالة غير محرمة على المخلوقات . وتتجلى العدالة بالنسب الصحيحة للأشياء ، وليس هناك فقدان للتجانس .

من ذلك يتضح أن الخير مطلق وسائد .

وبعد هذه المقدمة عن الخير نستطيع الآن أن نستمر في حوارنا لمعرفة أصل الشر . وقبل أن ندخل في الموضوع سوف نحاول أن نقربه من الذهن أكثر ، وسوف نأخذ بنظر الإعتبار ما يطلق عليه شر القدرة ، وهو أكثر أنواع الشر الذي يشار إليه عند الكلام عن الشر . وهو شر الإنسان نحو أخيه الإنسان . فإذا إشتريت سكيناً من حداد وطعنت بها شخصاً فقتلته ، أين الشر في ذلك ؟ هل هو في الحداد ؟ أم في السكين ؟ أم فيك ؟ طبعاً أنه ليس في الحداد لأن الحداد ليس مسؤولاً عن الجريمة بسبب صنعه للسكين التي صنعها لكي يستفيد منها الناس في عمليات التقطيع لما فيه الخير لسعادتهم وتسهيل أعمالهم (على فرض ذلك) . والشر ليس في السكين التي لا يمكن رمي اللوم عليها حيث أنها ليست واعية ولا تمتلك من زمام أمرها شيئاً . لذا فإن الشر فيك أنت المسؤول عن الجريمة لأنك تمتلك الإرادة وأسأت إستخدامها ، والشر أساسه إساءة إستخدام الإرادة التي يمتلكها الإنسان ، وإساءة إستخدام الإمتيازات والقابليات والخصائص الأخرى التي منحها الخالق له . ومَثَلُ السكين هنا كَمَثَل هذه القابليات ، ومَثَل الحداد كَمَثَل الخالق ، تعالى الله عن تمثيله بالأشياء . فلا الخالق مسؤول عن الشر وإلا القابليات التي يعطيها للإنسان مسؤولة عن الشر ، ولكن االإنسان هو المسؤول عن الشر . ولا يمكننا أن ننسب الشر الموجود في الإنسان الى الله (كما يدعي رسل) لأن الشر يكمن في محاولة الإنسان الحصول على ما ليس من حقه بإستخدام الوسائل المتوفرة لديه في غير ما يجب وغير ما هو مرسوم لها أن تستخدم من أجله . ويتضح من ذلك أنه إذا كان الإنسان سبب

الشر فإن الشر نسبي وليس مطلقاً وهذا بدوره يجعله غير موجوداً في الخالق ، لأن ما يوجد في الخالق يجب أن يكـون مطلقـاً ، بخلاق الخـير المطلق . إن الله خلق الوسائـل والقابليـات في الإنسان من أجـل أن يستعملها الإنسـان لسعادتـه ومن أجل الخير ، والإنسان هو الذي يسيء إستعمال هذه الإمتيازات من أجل غايـاته الأنانية خلافاً للغاية التي مُنِحَ من أجلها هذه الإمتيازات .

إن الحب الذي تمتلكه المرأة تجاه طفلها هو شعور ضروري أودعه الله فيها لكي يدفعها الى المحافظة عـلى الطفـل ورعايتـه من أجل إنشـاء الأسر المترابـطة والمجتمعات البشرية الصالحة . فإذا مات الطفل وكان ذلك مؤلماً للأم فإن ذلـك لا يعني أن الله أودع الحب في المرأة تجاه طفلها لإنزال الألم بها عند مـوته والـذي قد يعتبر شراً ، ولكن أَلَمها نتيجـة عرضيـة لا بد منهـا ، فهي أن لم تشعر بـذلك الشعـور القوي نحـو الطفـل فـإنها سـوف لن تتمكن من تحمـل أعبـاء رعـايتـه والمحافظة عليه ، بل ربما تقتله في كثير من الأحيان لكي تريـح نفسها من تـربيته المتعبة فالحب هذا خير أودعه الله في المرأة ، وليس شراً بالرغم مما يمكن أن ينتـج عنه من ألم في حالة موت الطفل . وقد اقتضت عدالة الله تعـالى ان يتلاشىٰ هذا الالم بعد فترة زمنية معينة .

وإذا كان الخير هو السائد ، وإن الله أعطى كل شيء حقه ، وبـذلك فقـد ملأ الوجود خيراً ، فإنه يمكن القـول (كما بـين ذلك الفـلاسة الإسـلاميون) إن الشر عموماً هو فقدان الخير . أي أنه إذا كان الخير هو ما منحه الله للأشيـاء فإن إنعـدام وجود الخـير يمكن النظر إليـه على أنـه الشر لأن الشر هو نقيض الخـير . وعلى سبيل المثال فإن الـطرش هو ليس سـوى فقدان القـابلية عـلى السمع وهـو ليس شيئـاً بحد ذاتـه ولكنه فقـدان لشيء . والظلم هـو فقدان الـرحمـة في قلب الظالم . والجهل فقدان المعرفة التي هي كمال ، وعندما لا يمتلك الإنسان المعرفة فهو لا يمتلك صفة أو خاصية تسمى (فقـدان المعرفـة) والتي لا يملكها العـالم ، فالعالم كـان جاهـلاً قبل أن يتعلم وهـو لا يفقد شيئاً عند إكتساب العلم وإنمـا

يكتسب شيئاً . ولو كـان الجهل شيئـاً بحد ذاتـه لكان التعلم مصحـوباً بفقـدان شيء ما . ومن الأمثلة الأخرى الفقر الذي هو عدم إمتلاك الثروة والمـوت الذي هو فقدان الحياة وليس إكتساب شيء أخـر . ويتبع ذلـك أن الأشياء التي تسبب فقدان شيء ما ، مثل الهزات الأرضيـة والبراكـين والحيوانـات الوحشيـة وغيرهـا تسمى شراً ، ولو لم تسبب فقدان شيء ما كالحياة لما إعتبرت شراً . فالأشجار لا تعتبر شراً ، والجبال لا تعتبر شراً ، وهذا النوع من الشر هو النسبي . وبـالنسبة لهذا الشر فإن (رسل) يقول[1] (إنني لا أعتقـد أن الدكتـور بارنـز سيقبل الحـل الذي يقدمه وليم جيلسبي أن أجسام الوحوش الضارية كـانت مسكونـة من قبل الأشـرار الذين سبقت خـطيئاتهم الأولى خلق الـوحوش ، ومـع ذلـك فـإنـه من الصعب رؤية إمكانيـة إقتراح أي جـواب آخر منـطقي ومقبول) . وتعليقنـا على هذا الرأي يتضح مما أسلفنا من القول بأن الحيوانـات الضاريـة ليست شراً بحـد ذاتهـا . فالكـائنات الحيـة لا بد وأن يعيش بعضهـا على بعض عـلى شكـل دورة كاملة ، وبذلك فإن الحيوانات تمثل شراً نسبياً لنا . ومن خـلال هذه النـظرة فإن الخروف شر بالنسبة للأدغال .

إن سبب شر الخصـائص ، مثـل الجهـل ، وضعف الإرادة ، يمكن تقفي سبب أثـره الى الانسان في النهـاية ، وهـو ليس خاصيـة ذاتية في المخلوق بسبب الخالق . وحتى العيوب التي يمتلكها بعض الناس بالولادة فـإن سببها الإنســان . مثلاً أن تكون نسب المواد الغذائيـة التي تأكلهـا الأم ليست صحيحة ، أو بسبب شـرب الكحول أو التـدخين أو المخـدرات ، أو إستعمال بعض الأدويـة في فترة الحمـل أو العيش تحت ظروف صحيـة رديئة تؤثـر على نفسيـة الأم ، كالـظروف العائلية الكئيبة أو العلاقات العائلية الفاسدة أو المقلقة ، او ظلم الانسـان لاخيه الانســان ، أو سبب ضعف من الماضي ينتقـل الى الأجيـال عن طـريق الـوراثـة

(١) انظر المصدر ٢٥ ص١٩٤ .

والذي سببه يرجع في الاصل الى الإنسان أيضاً .

وبعد هذا السرد نود أن نناقش الرأي التالي (لرسل) الذي يقول[1] (من المألوف أن السعادة لا يتم إحرازها كما يجب من قبل الذين يبحثون عنها بصورة مباشرة ، ويبدو أن نفس الشيء صحيح بالنسبة للخير . واعتقد ، على أي حال ، أن أولئك الذين ينسون الخير والشر ويبحثون عن معرفة الأشياء هم أكثر إحتمالاً لإحراز الخير من أولئك الذين يرون العالم من خلال الوسط المشوه لرغباتهم الذاتية) .

يبدو أن (رسل) هنا يصطنع تشويشاً ويثير غباراً كثيفاً حول الموضوع بواسطة ربط مواضيع ليس لبعضها علاقة ببعض ، ثم يستعمل مفهوماً لا يختلف عليه أحد لكي يبرز في النهاية بنتيجة كان قد صمم عليها سلفاً . فالمواضيع التي لا علاقة لبعضها ببعض هي أولئك الذين يبحثون عن السعادة وأولئك الذين يبحثون عن الخير . وأنه لمن الواضح أن الذين يبحثون عن السعادة ليسوا سعداء وإلا لما بحثوا عنها ، ولكن عندما يقول (رسل) أن نفس الشيء صحيح بالنسبة للخير فهل أنه يقصد أن أولئك الذين يبحثون عن الخير هم أشرار وإلا لما بحثوا عن الخير ؟ فإذا كان هذا هو ما يرمي إليه ، فهل أن ذلك يعني أن الناس التقاة الذين يدعون الى الخير هم أشرار ؟ في هذه الحالة ، وبرسم التشابه مع السعادة بنفس الأسلوب الذي إستعمله (رسل) ، فهل يعني ان الناس الأشرار هم الأفضل قدرة على امتلاك الخير واحرازه مثلما ان اولئك الذين لا يبحثون عن السعادة هم سعداء ؟ وهل يعني ان الناس الذين يبحثون عن الخير يفعلون ذلك لأنهم لا يمتلكون الخير ، أي انهم اشرار؟ الا يناقض ذلك تعريف مفهوم الشر نفسه حيث أن الشر لا يعرف الخير؟ وهل أن الناس الذين يبحثون عن الخير يفعلون ذلك من أجل أنفسهم فقط ولأجل رغباتهم الشخصية ؟ وماذا عن المصلحين والأنبياء الذين تحملوا المعاناة والآلام لأنهم

---

(١) نفس المصدر السابق ـ ص٢٩ .

كانوا يبحثون عن الخير للبشرية ؟

و (رسل) بعد ذلك يخلط بين شيئين لكي يصل الى مقصده . وهذان الشيئان يتمثلان بأولئك الذين يبحثون عن الحقيقة ، ولا شيء سوى الحقيقة ، وهو شيء نبيل ، وأولئك الذين يمتلكون الرغبات الشخصية التي تشوه الطريق نحو الخير ، وهو شيء قبيح طبعاً . وأنه لواضح أن طريق الخير بالنسبة لإنسان يتمسك بمعتقدات خاطئة أو رغبات ذاتية يكون مشوهاً . ولكن هذه الطريق بالنسبة لإنسان يتملسك بمعتقدات صحيحة ويمتلك رؤيا واضحة لا يكون مشوهاً حتى ولو لم ينس الخير والشر . وعلى كل حال ، ما هي الحقيقة وكيف نصل إليها بدون معرفة الخير والشر والفرق بينهما ؟ وكيف نستطيع أن نميز بين الخير والشر عندما نصل إليها إذا كنا غافلين عنهما أو نسيناهما كما يرغب (رسل) ؟ و (رسل) يتوسع في هذا الموضوع بالقول[1] (يبدو لي أن الناس الذي تمسكوا به «أي الخير» كانوا هم الأشرار في معظم الأحيان . وأنك لتجد الحقيقة الملفتة للنظر أنه كلما كان الدين أكثر قوة في أي فترة زمنية كلما كان الإعتقاد المتغطرس أكثر عمقاً وكانت القساوة أعظم وكانت الحالة أكثر سوءاً . وفيما يسمى عصور الإيمان ، عندما كان الرجال يؤمنون حقاً بالدين المسيحي بكل كماله ، كان هناك الظلم والتعذيب،وكان هناك الملايين من النساء المسكينات اللاتي أُحْرِقْن بإعتبارهن ساحرات ، وكان هناك كل أنواع القساوة والوحشية التي مورست على كل أنواع الناس بإسم الدين .

وإذا بحثت في العالم فإنك ستجد أن كل تقدم صغير في الأحاسيس الإنسانية وكل تحسن في قانون الجريمة ، وكل خطوة نحو إزالة الحروب ، وكل خطوة نحو التعامل الأفضل مع الأجناس الملونة ، وكل تخفيف للعبودية، وكل تقدم أخلاقي حدث في العالم ، قد عارضته الكنيسة العالمية المنظمة بصورة

---

(١) انظر المصدر ٢٧ ـ ص٢٤ .

ثابتة . وأنا أقول وبكل تعمد أن الدين المسيحي ، كما هو منظم بكنائسه ، كان ولا زال العدو الرئيسي لتقدم الأخلاق في العالم) . وهذه الملاحظات ولا شك ، لها ما يبررها ، ولكن (رسل) يبادل بين الدين والمسيحية . والمسيحية أحد الأديان ولكن ليس كل الأديان مسيحية الأصل أو التفرع . ولذا يجب أن يكون واضحاً للقاريء أن (رسل) يتكلم عن المسيحية فقط ، ولا يجب أن توسع أراؤه لتشمل الأديان الأخرى التي لم ترتكب شناعة الكنيسة أو ممارساتها اللانسانية في أوربا . ولو كان النبي عيسى (ع) حياً لما قبل أن ترتكب تلك الجرائم بإسمه ، أو بغير إسمه . وبدلاً من ذلك كان سيأمر بمعاقبة مقترفيها . فليس الله تعالى ولا عيسى ، ولا أي إنسان يمتلك ذرة من الرحمة في قلبه يقبل بحرق النساء أمام الناس بدعوى السحر والشعوذة . وحتى أولئك اللاتي يستحقن الموت بسبب جريمة يقترفنها فإنه بالأمكان سلب حياتهن بطرق أقل بشاعة وإهانة من الحرق في الأماكن العامة ، والتي بالتأكيد لا بد وأن إنعكست على نفسية الأطفال الذين شاهدوها ، خالقة أجيالاً جديدة متوحشة بدلاً من المجتمع الذي يسوده الحب والأمن الذي أراده الله وعيسى .

وعلى كل حال فإن وصف أولئك الذين يبحثون عن الحقيقة بأنهم أولئك الذين يجب أن ينسوا الخير والشر ، وأولئك الذين لا يفعلون ذلك بأنهم يمتلك رغبات مشوشة ليس صحيحاً على الإطلاق . بل على العكس ، إن الذين كانوا يدعون الى الخير كانوا يطلبون من الناس أن يتعرفوا على الحق ويتبعوه ، وعلى الباطل فيجتنبوه . وكانوا يتمسكون بمعتقداتهم ولم ينسوا الخير والشر ، وهذه المعتقدات لم تكن رغبات رخيصة . ومن هؤلاء الناس نحن تمكنا من معرفة الأخلاق الحميدة التي نعرفها اليوم (أو ما بقي منها) والتي جاءتنا خلال الأجيال . وأن الربط بين الناس الذين يبحثون عن السعادة وأولئك الذين يبحثون عن الخير محاولة غش وخداع ، وكذلك فإن الإلماح بأن أولئك الذين يتمسكون بمفهومَيْ الخير والشر يمتلكون رغبات مشوهة وأنهم لا يبحثون عن

الحقيقة ، محاولة دس وغش هي الأخرى ، ولا تليق بالحكماء من أصحاب العقول . فهذا هو (رسل) ، وهذه محاولاته ، ومع ذلك فإن البعض من الناس يعتبرونه الفيلسوف الحكيم .

هل أن الله على كل شيء قدير ؟

يجادل بعض الماديين حول معنى قدرة الله تعالى ، فيقولون إذا كان الله على كل شيء قدير فهل يستطيع أن يتخلى عن خلقه ؟ أي هل أنه يستطيع أن يفصل خلقه عنه بحيث أنه لا يمكن إرجاع سلطانه على الخلق ؟

وفي ذلك إحتمالان :

الأول ، إذا كان الله لا يستطيع أن يفصل خلقه عنه فإنه ليس على كل شيء قدير .

والثاني ، إذا كان الله يستطيع أن يفصل خلقه عنه بحيث لا يمكن إرجاع سلطانه عليه فيصبح ليس على كل شيء قدير .

إذن في كلتا الحالتين إن الله ليس قادراً على كل شيء وبذلك فإنه ليس إله .

ولحل هذا التناقض نود أن نذكر بأن هذه الحجة تشابه في طبيعتها تلك الأسئلة غير المنطقية التي واجهناها سابقاً . وتكمن أسباب التشوش حول هذه القضايا في عدم إدراك المعنى الحقيقي لتعريف الله وصفاته . ويتضح أن فكرة الله يساء فهمها الصحيح حتى من قبل أولئك الذين يحملون فكرة الإيمان بها . فالكل يتصور أن الله شيء واحد ولكن بإتجاه واحد من التفكير فقط . ولذا فإن الحوار في إتجاه مختلف يصل الى التناقض لا محال .

إن الله واحد من ناحية نوع الوجود وليس من ناحية العدد ، وهذا معناه أن طابع وجوده فريد النوع . فالأرقام والأعداد جزء مما خلق ، ولذا فإنه لا

يمكن تطبيقها عليه ، وهو لا يخضع لها ولا لحكمها لأنه لا يمكن أن يخضع لما خلق . وكما رأينا سابقاً فإن وجود الله لا يحتاج الى الزمان أو المكان ، ولا يخضع لهما . ولذا فإنه من غير الممكن إدراك ماهية وجوده (لأن إدراكاتنا محدودة بالزمان والمكان ولا يمكنها أن تتصور شيئاً خارجهما) والشيء الوحيد الذي يمكن قوله هو أن الله فريد في ماهيته . فالمقصود بوحدانية الله إذن هو فرادة النوعية ، ولا يمكننا أن نقول أكثر من ذلك .

والله يمتلك صفات عديدة ، قال تعالى[1] ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ ، وهذه الصفات لا تكوّنه ، أي أنه لا يتألف منها ، ولكنها تنبع منه وتشع منه ومن عطائه بكميات لا محدودة ولا متناهية ، وتأثيرات هذه الصفات لا يمكن فصلها عنه . فالله عادل ورحيم وجميل وجبار ومقتدر وعالم الخ ، وكل هذه الصفات مطلقة ومجتمعة بنفس الوحدة الواحدة التي هي واحد نوعاً (وليس عدداً فالأعداد ليس لها معنى هناك) . وهذه الصفات لا يمكن فصل بعضها عن بعض ، أي أنه لا يمكن النظر الى الله على أنه مقتدراً مثلاً وننسى الصفات الأخرى ، أو عادلاً وننسى الصفات الأخرى ، بل يجب أن نتصور الله وفيه جميع هذه الصفات مجتمعة بنفس الوقت ، وهي عطاءاته التي لا تنضب لأنها مطلقة ، والمطلق لا ينقص لأنه إذا نقص فهو ليس مطلقاً . وتشع عطاءاته منه كما يشع الضوء من الشمس ، ولكن ليس على سبيل تشبيه المكان بل من ناحية الوجود كوجود، فالزمان والمكان هما تصوراتنا عن الوجود ونظرة الله الى الوجود قد تكون مختلفة عن نظرتنا . والله يستطيع أن يتصور الوجود كما نتصوره نحن أيضاً بطبيعة الحال لانه هو الذي خلقه وصوره .

والسؤال القائل هل أن الله يستطيع أن يفصل خلقه عنه يتضمن إنفصالاً من ناحية المكان ، والذي لا يمكن قبوله لأن الله غير خاضع للمكان ، أو إنفصالاً

(١) سورة الأعراف، الآية ١٨٠ .

من ناحية نوع الوجود والذي لا يمكن قبوله أيضاً لأنه يعني أن نوعية وجودنا ونوعية وجود الله مختلفتان ، وهذا بدوره يتضمن الحاجة الى وجود واسطة تربط الله بالخلق ، أي أن الله بحاجة الى شيء يربطه بالخلق وهو مستحيل لأنه ينافي مطلقية الله . كما أنه يُلْمِع الى وجود إنفصال فراغي بين الله وخلقه وهو مرفوض أيضاً كما تقدم .

يتضح من ذلك أن السؤال يتضمن إفتراضات ومفاهيم غير مقبولة منطقياً ، وغير مقبولة بموجب تعريف الله ، بالرغم من عدم وعي الماديين لهذه الإفتراضات الضمنية في أسئلتهم .

إن الخلق يكتسب وجوده من الخالق بطريقة تشبه حصول الضوء على وجوده من الكهرباء ، فإذا قطع التيار يختفي الضوء وينعدم . وكذلك إذا إنفصل الخلق عن الله بأي مفهوم كان فان الخلق يختفي الى العدم . من هنا فإن السؤال الذي نحن بصدده مرفوض ولا يمثل سوى جملة لغوية لا تحمل أي معنى منطقي من وجهة نظر االواقع ، ومنه نستنتج أنه لا يوجد أي تناقض ، والتناقض الذي رأيناه سابقاً وهمي ولا وجود له .

وكذلك فإن السؤال السابق يتناقض مع تعريف الله وصفاته التي ذكرناها . فهو يأخذ صفة واحدة ويتناسى الصفات الأخرى وعليه فإن هذا ليس الله الخالق لكل شيء لأن الخالق كامل من كل الوجود وفي جميع الإتجاهات بنفس الوقت كوحدة واحدة ، ويجب النظر إليه هكذا . وبطبيعة الحال ، إذا أخذنا بعض صفات الله بنظر الإعتبار ونسينا الصفات الأخرى نصل الى التناقض ، وذلك لأنه في هذه الحالة فإن كلامنا سيخص شيئاً آخر غير الله . أما إذا أخذنا جميع صفات الله بنظر الإعتبار في نفس الوقت فسوف لن يكون هناك تناقض . وفي الواقع أن جميع الذين يتطرقون الى الله وصفاته ويصلون الى التناقض هم في الواقع يرتكبون هذا الخطأ ، وهو أخذ بعض الصفات ونسيان

الصفات الأخرى، وبذلك فإنهم في الواقع يتكلمون عن جزء لا عن الكل، ولما كان الله لا يمكن تجزأته بأي إسلوب أو مفهوم كان ، فإن الكلام عن الجزء ليس كلام عن الله . وبذلك فإن هؤلاء الفلاسفة ، خاصة الأوربيين وعلى رأسهم (رسل) ، هم في الواقع يتكلمون عن شيء غير الله (لأنهم يتكلمون عن الجزء) وينسبونه الى الله متصورين أنهم على صواب . وأنه لمن العجيب كيف أن هؤلاء المفكرين لا يعون هذه المسألة البسيطة وهم المتبحرون في الفلسفة . وصدق الله حينما قال[1] **﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾** .

وعلى سبيل المجادلة ، دعنا نفترض أن الله يفصل خلقه عنه . ماذا سيحدث ؟ هناك شيء واحد نستطيع أن نقوله بكل تأكيد ، بسبب ملاحظاتنا عن الإنسان وتاريخ الإنسانية ، ذلك إن الظلم سيجد طريقه الى المجتمع الإنساني ، وبأقل تقدير سيسود في إحدى زوايا الخلق ، خاصة الإنسان . والظلم هو عكس العدالة . ولذا فإن الحالة ستعني أن الله سمح للظلم أن يحدث بطريقه مطلقة لأنه سوف لن يكون ما يعيقه إذا فصل الله الخلق عنه . وهذا يعني أن الله يقبل بالظلم وهو منافي لصفة العدالة المطلقة له . وبطبيعة الحال فإن ذلك غير ممكن لأنه سيعني أنه بالرغم من أن الله هو العدل المطلق فإنه يقبل الظلم ، وهو تناقض مرفوض ففصل الله للخلق عنه معناه وقوع المستحيل وهو مستحيل .

ويتضح أن المقصود (بأن الله على كل شيء قدير) ليس مفهوماً بصورة صحيحة . فإنعدام القدرة هو نتيجة لتصوراتنا نحن البشر لأن الله في وجوده لا يحتاج أن يفعل شيئاً لأنه ليس بحاجة الى أي شيء . والحاجة هي تصورنا عن الأشياء ، وليس تصوره هو . لذا فإن إنعدام القدرة لا يوجد في وجوده لأنه ليس هناك إنعدام في وجوده ، فإنعدام وجود أي شيء يناقض وجود الله المطلق

---

(١) سورة الفرقان، آية ٤٤ .

وهـو مستحيل . وإنعـدام قدرة الله تجـاه أي شيء يناقض قـدرته المطلقـة وهـو مرفوض . لذا نستنتج أنه ليس هناك مـا يمكن أن يطلق عليـه إنعدام القـدرة في وجود الله . والتعبير عن اللاقدرة أو العجز هو تصورنا الذي لا يمكن تطبيقه على الله . فالمطلقية معناها القدرة فقط ، واللاقدرة لا توجد . وبـذلك فـإن إفتراض عـدم قدرتـه على الأشيـاء التي لا يفعلها معنـاه إفتراض وجـود التناقض ، وهـو مـرفوض لأنـه ينافي المنـطق . ذلك لأنـه إذا كانت القـدرة المطلقـة موجـودة فإن إنعدام القدرة يشكل تناقضاً وهو مستحيل .

إن سوء الفهم الصحيح لهذه المفاهيم ، وعـدم المقـدرة عـلى أخذ مفهـوم الله بنظر الإعتبار بفكر واضح قاد القديس (أكـويناس Aquinas) الى القـول أن الله (لا يستـطيع) أن يشـأ الأشياء المستحيلة التي تمتلك الإستحـالة في ذاتهـا ، بدلاً من القول أنـه لا يفعلها لأن ذلـك ليس ما كـان قد قـرره هو . فـإستحالـة الأشياء في ذاتها ليست خارجة عن إرادة الله وإنما هو الذي خلقها مستحيلة بهـذا الشكل وإن شاء بدلها . إن مفهـوم الإستحالـة ومفهوم التنـاقض وغيرهمـا عبارة عن مفـاهيم خلقها الله تعـالى لأنه خلق كـل شيء . والأشياء التي تمتلك مفهـوم الإستحالة ومفهوم التناقض وغيرهما عبارة عن مفاهيم خلقها الله تعالى لأنه خلق كـل شيء . والأشياء التي تمتلك مفهـوم الإستحالـة كجـزء من كينـونتهـا التي خلقهـا الله عليها تصبح مستحيلة . وكذلك الحال مع الأشيـاء المتناقضـة . وأنه لـواضح أن هذه المفاهيم كانت قد وضعت في هذه الأشياء من قبل الله تعالى ، ولم تـأت من نفسهـا ، والقول أنها أتت من ذاتهـا معناه أنها خـارج قدرة الله وإن الله لا يقـدر عليها . والقول بذلك معناه إن هناك بعض الأشيـاء مطلقـة (لأنها خارجـة عن إرادة الله) ، والـذي معنـاه وجـود المـطلق خـارج الله وهـو مستحيـل لأنـه يعني أن الله مطلقاً حيث أن المطلقية يجب أن تتضمن كـل شيء وليس هناك شيء خـارجها . كذلك إذا كانت المفاهيم ذاتية في أصلها ، كـما يتضمن قول أكـويناس ، فكيف دخلت الى الأشياء التي هي من خلق الله (والتي يُفْهَم منها أنها خُلِقيت من قبـل

الله كلياً) ؟

وفي خضم سوء الفهم لهذه المفاهيم يأتي القديس (اكويناس) ليطرح فكرته تلكِ عن الله ، والتي دعت (برتراند رسل) الى القول[1] (أنه على سبيل المثال أن الله لا يستطيع أن يجعل تناقضاً ما صحيحاً . ان مثال القديس بأن هناك شيئاً ما خارج القدرة الإلهية ليس مثالاً سعيداً جداً ، فهو يقول إن الله لا يستطيع أن يجعل إنساناً ما جحشاً) . إن التشويش وعدم وضوح ارؤيا المحيطين بهذه الفكرة سببها النظرة غير واضحة لصفات الله تعالى . فالتناقض لا يوجد في ذات الله (لأن التناقض جزء مما خلق). والكلام في هذه المفاهيم هو من نوع أفتراض إفتراضات في عالمنا ثم نسبها الى الله ، وهو بطبيعة الحال حجة غير واردة . ولكي يكون الحوار مجدياً فإنه تجب البرهنة على أن هذه المفاهيم توجد في ذات الله قبل الكلام عنها .

هل لله علة ؟

وهناك موضوع آخر مشابه لما مر علينا من ناحية سوء الفهم ، وهو إخضاع الله الى علة سببت وجوده . و (رسل) يقول إذا كان كل شيء يحتاج الى علة فإن الله يحتاج الى علة . والصحيح هو أن نقول أن كل شيء في عالمنا ، أي كل شيء مخلوق ، يحتاج الى علة ، لأن العلة هي إحدى قوانين كوننا الذي خلقه الله ، وطبعاً فإنه لا ينطبق على الله ، لأنه وكما قلنا ، لا يخضع لما خلق . فالله خلق الأشياء وربطها بقوانين وجعل بعضها علة لبعض ، وهو علة الكون لأنه موجده . ولما كنا نجهل ماهية وجوده فإنه من غير الممكن ، ولا المعقول ، أن نتكلم عن علته لأن وجوده قد لا يحتاج الى علة . كذلك فإن قانون العلية يحكم الأشياء الناقصة التي بحاجة الى شيء آخرِ لكي توجد ، والكامل بالتعريف

---

(١) المصدر ٢٨ ـ ص٤٤٩ .

لا يحتاج الى شيء آخر ، فهو لا يحتاج الى علة .

إن أخطر تشويش للأفكار هـو تطبيق القـوانين التي خلقهـا الله على الله . وهذا بطبيعة الحال ، وكما قلنا ، مـرفوض لأنـه كيف يمكن أن يخضع لما خلق ؟ وهو معنى القول الحكيم[1] (لا يجـري عليه السكون ولا الحركـة ، وكيف يجري عليه ما هـو أجراه ، ويعـود فيه مـا هو أبـداه ، ويحدث فيـه ما هـو أحدثـه) . وصعوبة إدراك هـذه الحقيقة قـادت (برتـراند رسـل) أن يجادل بـواسطة تطبيق القـوانـين عـلى الله فانتهى القول بأن الله وسيط وأن إدخـالـه في النقـاش غـير ضروري ، على حد تعبيره . وعلى سبيل المثـال ، فإنـه يقول[2] (إذا كـان هناك سبب للقوانين التي وضعهـا الله ، فإنه نفسـه خاضـع للقوانـين) . وهذا يمثـل قصوراً شديـداً في الرؤيـا لأن القانـون ضروري بـالنسبة لنـا وليس للشيء الذي كماله مطلق . فإذا كـان الله بحاجـة الى القانـون فهو ليس كـاملاً لأنـه سيكون بحـاجة لشيء خـارج عنه لتنـظيمه . ولكن إذا كـان الله كامـلاً ، وهـو كـذلـك بموجب التعريف ، فـإنـه ليس بحاجة للقانـون أو لأي شيء آخر . ونحن نـرى أن مـا يجهله الناس هـو معنى الكمال والمـطلقية ومـاذا يتضمنـان . والمخلوقـات بحاجة الى هداية ، وإذن هي بحاجة الى القانون . أما المطلق فإنه يعرف الأشياء بدون الحاجة الى ما يسيّره .

لماذا خلق الله الخلق ؟

الحديث الذي سردناه يضعنا أمام السؤال الذي يطرحه كثير من الناس ولا يجـدون عليه جـواباً . وهـو لماذا خلق الله الخلق ؟ وهنـاك من يقول أن المسـألـة ليست في متسعنـا ، وليست عندنـا القابليـة لمعرفـة الأسبـاب لأنها تقـع مـا وراء إدراكاتنا ، وهذا صحيح بطبيعة الحـال . إلا أن القول أن هنـاك أسباب للخلق

(١) علي بن أبي طالب ـ نهج البلاغة .

(٢) انظر المصدر ٢٧ ، ص١٧ .

معناه إخضاع الله لهـذه الأسباب وهـو مرفـوض لأن الله لا يخضع لشيء . ومنهم من يقول أن الله خلقنا لكي نعبده ، كما يصرح هو بذلك في اية الكريمة[1] **﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون﴾** . وهذه الآيـة تتكلم عن الأنس والجن فقط وليس عن مجمـل الخلق (وسوف نـاقش مسـألـة العبـوديـة في الفصـل الـرابـع عشر) . وهناك من يقول أن الله خلق الخلق ليبرهن على وجوده ويظهر وجوده . وهـذا معناه أنـه بحاجـة لإظهار وجـوده ، وهـو ينـافي غنى الله عن الخلق ، لأن حاجة الله لإظهار وجوده معنـاها رغبـة (أو ضرورة) ونقص ، والله تعـالى ليس مضطراً لشيء ، وليس ناقصاً .

ولكن إذا كان الله ليس بحاجة لخلق الأشياء فلماذا خلقها ؟ والجـواب على هذا السؤال لا يمكن إعطاؤه إلا من قبـل الخالق نفسـه . وهو لم يعـطنا الجـواب الواضح ، فهو القائل ، عزّ من قـال ،[2] **﴿وإذا قال ربـك للملائكـة إني جاعـل في الأرض خليفة قالـوا أتجعل فيهـا من يفسد فيهـا ويسفك الـدماء ونحن نسبـح بحمـدك ونقدس لـك قال إني أعلم مـا لا تعلمـون﴾** . ولكن ذلـك لا يمنعنـا من محاولة البحث حول الموضوع بشرط عدم الوقـوع في تناقض مـع صفات الله التي سردناها ، وعدم إخضاع الله لشيء ، كالقانون أو السببية مثلاً ، ونحن نعتقـد أنه إذا كان الله مطلقاً من كل الوجوه ، وهو كـذلك طبعـاً ، فإن الخلق ليس إلا نتيجة من نتائج هذه المطلقية ، ويتبع ذلك إحتمال وجود عددٍ لا متناهٍ من أنـواع ومستويات الوجود ، وعالمنا لـيـس إلا واحداً من هـذه الوجـودات . وكل هـذه الـوجودات مجتمعـة تمثل جـزءاً من المـطلقيـة التي تغمـر كـل شيء وتحتضن كـل شيء . وبالمقارنة مع الوجود المطلق فإن العالم الذي ندركه تافه بتفاهة الذرة عند مقارنتها مع الوجود . وهذا هو أحد الأسباب التي تدعونا الى القول أننـا تافهـون

---

(١) سورة الذاريات الآية ١٨ .

(٢) سورة البقرة آية ٣٠ .

بالنسبة لله . وإذا كان كوننا ليس سوى أحد الوجـودات فإنـه من غير الممكن أن يكون مطلقاً ، أو أن يكون هو الوجود بأكمله .

وبامكان تصور أن الوجود ينبع من رحمة الله وعدالته ، ومن الله كما هـو . فـإن عدم خلق الخلق مـع القدرة عـلى ذلك معنـاه أن الله رحيم وعـادل ولكنـه يحجب هذه الرحمة وهذا العدل من أن ينالهما من يستطيع من الكائنات التي يمكن أن يخلقها الله . وهذا يناقض مطلقية الله . فالرحمة المطلقة لا بد وأن تغمر أقصى ما يمكن وهو الوجود المطلق . وكذلـك الحال مـع عدل الله . فـالله يخلق الأشياء رحمة بها . وإذا كانت الأشياء بإمكانها أن تـوجد نتيجـة لقدرتـه المطلقـة ، وهي كذلك ليس بسبب الأشياء ولكن بسبب مطلقية هذه القدرة ، فإن عـدله المـطلق لا يمنعها من أن تخلق . بل على العكس من ذلك فإن هذا العـدل يعبّد الـطريق أمـام الخلق لكي يُخلق لأنه (أي العـدل) مطلق . لـذا فليس هناك ضـرورة أو إحتيـاج أو سبب لخلق الخلق كما يجـادل البعض ، وإذا كـان هنـاك سبب فهـو مطلقية الله ، وليس سبباً يؤثر عـلى الله . والأشياء تنبـع من عطائـه ، وكل شيء بحـاجـة إليـه ولكنه ليس بحـاجة إليهـا . وهـذه الحـاجـة هي مـا نـطلق عليـه العبودية .

فبـالنسبة الى الله تعـالى إذن ليست هناك حـاجـة ولا ضـرورة ولا إرادة أو رغبة في إظهار نفسه . والخلق ينبع من مطلقيته لأن المـطلق يحوي كـل الأشياء ، والخلق جزء من هذه الأشياء . قال تعالى[1] **﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** .

---

(١) سورة الدخان آية ٣٨ و٣٩ .

الفصل الرابع عشر

لِمَنْ العبودية ؟

تدعو الأديان السماوية على إختلافها الى عبادة الله بطرقها المختلفة . وفي هذا الفصل سوف نحاول إستكشاف المعاني الخفية لهذا الموضوع الذي أدى سوء فهمه الى ترك الناس لعبادة الله . ففي أوربا تحولت العبادة في أفضل أشكالها الى الذهاب الى الكنيسة يوم الأحد ، والحال ليست أفضل من ذلك بالنسبة لمعتنقي الأديان الأخرى . وكما بينا سابقاً أن الله تعالى ليس بحاجة الى الأشياء الأخرى لأنها كلها من خلقه ، لذا فإنه ليس بحاجة الى عبادة المخلوقات له ، وهو القائل[1] (﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ . من ذلك يتضح أنه إذا كان هناك من هو بحاجة الى العبادة فإنه نحن . ولكن الماديين يجادلون بالقول أن الذين بحاجة الى العبادة هم ضعفاف العزيمة الذين تساعدهم العبادة على لم شملهم ، وأولئك الذين يخافون الموت ويخافون المجهول . أما أقوياء العزيمة والإرادة ، والذين يمتلكون الشجاعة والثقافة

---

(١) سورة ابراهيم، الآية ٨.

الكافية والوعي ، فإنهم ليسوا بحاجة الى العبادة لأنهم يستطيعون إدارة حياتهم بدون الحاجة الى العبادة ، أوالله ، لمساعدتهم ، وهؤلاء هم الذين يؤمنون أن الله ليس موجوداً ولكنه مفهوم خلقه الإنسان لنفسه . فها هو (برتراند رسل) يقول[1] إن الدين ، كما أعتقد ، بُنِيَ أولاً وأساساً على الخوف . وجزئياً فإنه الخوف من المجهول ، وجزئياً فإنه الرغبة في الإحساس بأنك تمتلك شيئاً أشبه بالأخ الكبير الذي يقف بجانبك في جميع مشاكلك ونزاعاتك) . وأنا لا أعلم كيف ينطبق كلام (رسل) هذا على أولئك المسيحيين الأوائل في روما الذين كانوا من الشجاعة بمكان بحيث أنهم كانوا يُقذفون الى الأسود لتأكلهم فيتلقون الموت الرهيب بهذه الطريقة الوحشية بكل شجاعة ولم يتخلّوا عن دينهم . فلو كان هؤلاء قد إعتنقوا الدين عن خوف لكانوا تخلوا عنه بسبب الخوف أيضاً عند مواجهتهم للأسود الضارية . كذلك فإن تاريخ المسلمين زاخر بالتضحيات وحب الشهادة التي تفوق كل التصورات والتي لسنا هنا بصدد ذكرها . وأنا أتساءل كيف أن رجلاً بهذه الضحالة من التفكير مثل (رسل) يسمى فيلسوفاً ويقرأ له الناس تفاهات كهذه لا تستند على المنطق ولا على الأحداث التاريخية . أم أنه الأوربي الأبيض صاحب التكنولوجية التي بهرت العقول ، فانساقت هذه العقول وراء كل ما هو أوربي حتى وإن كان تافهاً كهذه الفلسفة الجوفاء !! أم ماذا ؟ وقد يكون (رسل) تناسى التاريخ هنا متعمداً لأنه لا يسند إدعاءه . إن الماديين مثل (رسل) فاتهم فهم الموضوع كلياً ، وقد يكونوا تصوروا أن العبادة هي الذهاب الى الكنيسة يوم الأحد لسماع موسيقى الأرغون وأغاني تكريم الرب . وقد لا يكون ذلك ذنبهم وحدهم فهؤلاء قد جُلِبوا على ذلك وترعرعوا فيه ، وبطبيعة الحال فإن الكنيسة تتحمل القسط الآخر من الذنب لأنها عكست للناس العبادة، وطيلة تأريخها ، على أنها ليست أكثر من الذهاب الى الكنيسة .

---

(١) انظر المصدر ٢٧ ، ص٢٥ .

ولكي نحصـل على مفهـوم أفضل للعبـادة يجب علينا الغـوص في مفهـوم أعمق لا تشكل العبادة سـوى جزءاً صغيـراً منه ، ذلـك المفهوم هـو العبوديـة . فالعبيد يعبدون ، ولكن ليس بالمفهوم الذي تَعرَّض فيه الأفارقة السـود الى أقسى الظـروف وأبشع أنـواع الإضطهـاد على يـد الإنسـان الأبيض عنـدمـا نقلوا الى الأرض التي كانت حديثة الإكتشاف يـومئذ (امريكا) بـأبشع الـطرق على متن السفن فمات أكثرهم ، ومن نجا ربما كـان الأفضل لـه أن يموت عـلى أن يعيش تلك الحياة التعيسة على يد الإنسـان تالأبيض والتي لم يشهـد لها التـاريخ مثـلاً . ولكننا هنا نتكلم عن العبودية لله . فكل شيء عبد لله . والسؤال الذي نريـد أن نجـد له جـواباً هـو : ما معنى ذلـك ؟ ولكي تتوضـح الفكرة سـوف نتطرق الى الأشياء المادية أولاً ، ثم الى الإنسان .

عبودية المادة

تتكـون المادة من جسيمـات صغيـرة ذات وزن خفيف وطـاقـة صغيـرة ، وأحياناً شحنة كهربائية . أو على الأقل أنها تبدو كذلك . والخواص التي تمتلكهـا هذه الجسيمات هي جـزء لا يتجزأ من كينـونتها ، والجسيم يتحـول من نوع الى آخـر إذا فقد أحـد خـواصـه . والمـادة عبـارة عن تجمـع هـذه الجسيمـات تحت ظروف خاصة . وكما رأينا فإن المادة في حدودها النهائية عبارة عن ظواهر مرتبـطة ببعضها البعض بواسطة علاقات وثيقة . وهذه العلاقـات ليست عشوائيـة ، لذا فإن هناك تخطيطاً وتنظيماً وهذا معناه وجود السيطرة والقوانين .

وعند الهبوط الى مستوى الوجـود المحسوس الـذي يتكون من الجسيمـات وخواصها نجد أن هذه الخواص تعطي كل جسيم سلوكة المعين ، وهذا السلوك ثابت لا يتغير . فـالجسيم الذي يمتلك شحنـة كهربـائية من نـوع معين ينفـر من الجسيمات التي تمتلك شحنات مشابهة لشحنتـه ولكنه ينجـذب لتلك التي تمتلك شحنات معاكسة لشحنته ،وهكذا مع بقية الخصائص . وهذا يبين أن الجسيمات

مرتبطة مع بعضها البعض بواسطة علاقات صارمة وتحكمها قوانين محددة ، والجسيم يمتثل لهذه القوانين بكل صرامة وبصورة عمياء ، وليس هناك خيار أمامه بالنسبة للطريق الذي يسلكه . بل أن كل شيء مقرر سلفاً ، وهذه الحالة في الواقع هي التي جعلت الإكتشافات والإختراعات العلمية ممكنة . وعلى سبيل المثال ف أنه من المستحيل لجسيمين يمتلكان شحنتين كهربائيتين متشابهتين أن تنجذبا لبعضهما البعض ، وكذلك فإنه من المستحيل أن ينفر جسيمان يمتلكان شحنتين مختلفتين عن بعضهما البعض .

المادة إذن تطيع قوانين الفيزياء والكيمياء طاعة عمياء ، بدون أي تردد أو تراجع ، وهذا ما جعلها على حالتها . فالحديد مثلاً يتكون من أجزاء صغيرة هي ذرة الحديد التي هي على شكلها ولها صفاتها لكونها ذرة حديد تتكون من عدد معين من البروتونات والإلكترونات والنيوترونات . ولو تغير هذا العدد تغيراً بسيطاً لتحولت الى مادة أخرى غير الحديد . كذلك فإن الالكترون يحمل شحنة معينة أطلق عليها الشحنة السالبة بينما البروتون يحمل شحنة مساوية لشحنة الإلكترون ولكنها معاكسة لها ، وأطلق عليها الشحنة الموجبة . ولو أخذنا مثلاً بسيطاً من أمثلة الكيمياء فوضعنا الأوكسجين والهيدروجين معاً وفي ظروف خاصة فإنهما سوف يتحدان لتكوين الماء ، وهذا الإتحاد (تحت تلك الظروف) حتمي وسوف يحدث ولا شيء آخر يحدث لهذين العنصرين . ونلاحظ هنا أن الأوكسجين لا خيار له سوى الإتحاد بالهيدروجين ، والهيدروجين لا خيار له سوى الإتحاد بالأوكسجين . وهذه الطاعة الحتمية لهذا القانون الكيمياوي (وهو طاعة لأوامر معينة ومحددة) طاعة عمياء مادام الأوكسجين أو كسجيناً والهيدروجين هيدروجيناً ، وسوف لن يحدث الإتحاد (أي إطاعة تلك الأوامر) فقط في حالة تحول أحد العنصرين ، أو كلاهما ، الى مواد أخرى . وفي تلك الحالة فإنهما سوف يمتثلان لقوانين وأوامر أخرى بنفس الصرامة .

إن طاعة هذه المواد للقوانين تمثل العبودية الحقة لأنه ليس هناك أي

عصيـان لهذه القـوانين أو أي إنحـراف عنها ، وهذه العبـوديـة مبنيـة كجـزء من كينونتها وبنيانها . لذا نرى أنه إذا حدث خلل فإن الأشيـاء تعيد تـرتيب حالتهـا ووضعها ، سواءاً شكلاً أو تكويناً ، الى حالة جديدة بموجب القـوانين والأوامـر لتسير كما يجب عليها أن تسير ، ولا يمكنها أن تحيد عن هذا السلوك .

المادة إذن ، وكجزء من تكوينها ووجودها تخضع لقوانـين معينة خـضـوعاً تاماً بدون أي مناقشـة أو تردد ، ولا يمكن لأحـد أن يتصور أي معنى للمـادة كما نراها لـو كانت لاتخضـع لهذه القـوانين . وقـد يقول البعض أن المـادة عبارة عن طاقة متجمعة ، أو بصورة أساسية أكثر ، ظواهر تربطها عـلاقات وثيقـة . وهذا لا يغير من الموضوع شيئاً لأن الطاقة هي الأخرى تتبع قوانين صارمة ، كـالمجال الكهربائي والمجال المنغاطيسي مثلاً ، وبإتباعها تلك القوانين تجمعت على شكلها الـذي نراه ونسميـه المادة ، وهـو تجمع ليس عشـوائياً بـطبيعـة الحـال . كـما أن الظواهر ترتبط بواسطة العلاقات الوثيقة التي هي ليست سوى قوانين أخرى أيضاً .

ما هي القوانين ؟ أنها أوامر . ولكن أوامر مَنْ ؟ لابـد وأنها أوامر الـذي أوجد المادة والطاقة والظواهر ، وهو الله تعالى . فالمادة إذن تطيع أوامـر الله تعالى طاعة عمياء ، وهذا مطلق الطاعة ، ومطلق الطاعة هو العبوديـة ، وهي عبوديـة المـادة لله تعالى . قـال تعالى[1] **﴿أفغـير الله يبغـون ولـه أسلم من في السمـوات والأرض طـوعا وكـرهـا وإليـه تـرجعـون﴾** . وقـال تعـالى[2] **﴿إن كـل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾** . فعبودية المادة لله تعـالى إذن جزء من وجودها ، وفي الحقيقة أنها سبب وجودهـا ، لأنها لا يمكنها البقـاء كما هي بـدون الإمتثال للقوانين التي تحكمها ، بل أن مخالفة القوانـين يؤدي بها الى الفنـاء ، أو التحول من نوع الى آخر ، أو من حالة الى أخرى . وهذا الفناء أو التحول يمكن

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية ٨٣ .

(٢) سورة مريم الآية ٩٣.

إعتباره عقاباً، بينما إطاعة القوانين والبقاء هو الثواب .

عبودية الإنسان والحيوان والنبات

يتكـون الإنسان من مـادة تمثـل جسمـه ومن العقـل الـذي يمثـل التفكـير والسلوك . وكما رأينا فإن جزءه الجسمي تحكمه قوانين الفيزياء والكيمياء . فـإذا رميته من مرتفع سقط ، وإذا وضعت حامض الكبريتيك عـلى يده فـإن الحامض يتفاعل مع العناصر المكـونة لجسمـه ، شأنـه في ذلك شـأن أي مادة أخـرى لأن الجسم يتكون من هذه المواد . وهنا تتجلى عبودية هذا الجزء من الإنسان (وهـو الجسم) المطلقة لقوانين الطبيعة وأوامـرها ، وهي أوامـر الله تعـالى لأنـه موجـد هـذا الكون . وبنفس الـطريقة فـإن أجسـام الحيـوانات والنباتات تمتثل لأوامـر الخالق تعالى .

أما تفكير الإنسان ، فإنه بالإمكان إعتباره يتكون من نوعين مترابـطين من التفكير ومتداخلين مـع بعضهما البعض ، وهمـا الغرائـز والوعي (أو الإرادة) . أي أنه ، ولغرض الحوار الذي نحن بصـدده ، سوف ننـظر الى العقل البشـري على أنه ينقسم الى نوعين من العمليـات التفكيريـة . أحدهمـا سوف نـطلق عليه إسم العقـل (أو التفكير) الغـريزي وهـو الـذي يختص بـالإستجـابـة والسلوك الغـريزي . والثـاني سوف نـطلق عليه إسم العقـل (أو التفكير) الإرادي وهـو الـذي يمثل الحـدود النفسية للعقـل بصـورة واضحـة ، ولكنـه بنفس الـوقت لا يتناقض مع قوانين علم السيكولوجيها ، أو مع حقائق الأشياء . وبالرغم من أن التفكير يحدث داخل الدماغ بفعل التغيـرات الحاصلة في الـدماغ من تحـول المادة الى طـاقة ، وهـو بحد ذاتـه عملية منسبقة تحكمها قـوانين معينـة ، فـإن السلوك الناتج هو سلوك لا مادي . والتفكـير بكلا نـوعية ، الغـريزي والإرادي ، هـو التنبه لأسباب أو ظـواهر معينـة والقيام بفعـل يلائم متـطلبات الـظروف (وهذا يتضمن ايضاً الأفعال اللاارادية كالتنفس وضربات القلب وغيرها والتي يتم التنبه إليها تلقائياً بصورة اللاشعور) . فـإذا أحس الإنسان بـالعطش فـإنه يشـرب ولا

يأكل ، وإذا أحس بالجوع فإنه يـأكل ولا يشـرب . والسلوك مختلف في الحالتـين تبعاً لنوع الأمر .

التفكير الغريـزي ينصاع لقـوانين وأوامـر معينة بصـورة صارمـة . وهو في الحقيقة سلسلة من الأوامر المحـددة والتي ليس للإنسـان سيطرة عليهـا . فهو لا يستطيع تغييـرها أو العمـل ضدهـا . فالإحسـاس بالعـطش مسألـة لا يستطيـع الإنسان تفاديها أو منع نفسه من الإحساس بها . فهو يحس بالعطش كلما إحتـاج جسمه للماء . وهذا الإحساس بالعطش أمر صارم يطيعـه الإنسان بـواسطة الإحسـاس بـه ، ثم يطيعـه مرة أخـرى بواسـطة سلوك محدد ، وهـو الشـرب ، وليس شيئاً آخر . وقد يجادل البعض بالقول أنه يستطيع أن يختـار عدم الشـرب . ولكن في هذه الحالة فإنه يموت وينتهي وجوده كإنسان . ولكي يحافظ على كينونتـه ووجوده كإنسان فإنه يجب أن يطيع الأمر ويشرب . وهذه الطاعة للأوامر الغريـزية تشبـه طاعة الجسم للأوامر الفيزيائية والكيميائية تماماً . ويتضح أن التفكـير الغريـزي يتبع قوانين وأوامر محددة ، وهي قوانين الخالق . والغرائز عند الإنسان (وكذلك عند الحيوان والنبات) عبارة عن قوانين وأوامر الغرض منها المحافـظة على الحيـاة الموجودة في الكـائن الحي . والإنسان لا يملك حيلة إلا الإنصيـاع إليها ، وإذا لم يطعها فإنه سيدفع الثمن على شكل ألم أو المـوت ، وهو العقـاب . ومرة أخـرى تتجلى العبوديـة في الإنسان لهـذه القوانـين ، وبالتـالي لخالقهـا . وهذا معنـاه أن الحياة لا يمكن المحافظة عليها ، أو إنتاجها ، (أي أنها لا يمكن أن توجد) بدون العبودية للخالق . فالعبودية للخالق إذن جزء لا يتجزأ من جوهر الوجود بالنسبة للحياة ، ولا يمكنها الوجود إلا بالإرتباط بالله تعالى .

نأتي الآن الى التفكير الإرادي ، حيث الإختلاف فيه مع التفكير الغـريزي هو أنه فيه الخيار . فالإنسان مخير أن يفعل كذا أو لا يفعله ، أو أن يسلك هكذا أو هكذا وهذا هو التفكير المميّـز لنوعيـة السلوك ، وتنصَب عليه جميـع القوانـين التي تحكم المجتمعات البشرية ، والتي تأخـذ أحيانـاً شكل الأعـراف الإجتماعية

والتي هي قوانين أيضاً ، وإذا شذ الإنسان عنها فإنه يعاقب من قبل الأخرين . والعقوبة قد تكون الإعدام أو السجن أو الغرامة أو النبذ من قبل الأخرين ، أو ما شابه . ونوع العقوبة يعتمد على نوع الشذوذ ومقداره . فالقتل قد يستغرق بعض الثواني الا ان عقوبته الاعدام أو السجن المؤبد والسرقة عقابها أقل صرامة . هنا فإن العقوبة تعتمد على درجة الشذوذ ، وهي مشابهة من هذه الناحية لقوانين الفيزياء والكيمياء والقوانين الغريزية . فكلما جاع الإنسان لفترة أطول كان الألم أشد ، أي أن العقوبة أقسى . وكلما كان الارتفاع الذي يسقط منه أعلى كان الضرر الذي يحدث أكبر ، أي أن العقوبة أشد . فالعقاب يعتمد على نوعية المخالفة ، أي نوعية الشذوذ وهذا قانون عام ينطبق على الجسم المادي وعلى التفكير بنوعيه الغريزي والإرادي على حد السواء ، والفرق يكمن في أن قوانين الجسم والسلوك الغريزي تنفّذ حكمها مباشرة ، بينما لا تنفذ القوانين التي تحكم الفكر الإرادي حكمها مباشرة ، لأنه في هذه الحالة سوف لن يكون هناك معنى للإختيار والإرادة . فإرجاء تنفيذ الحكم على الشذوذ عن القانون ضروري لوجود الإرادة لأنه بدون ذلك سيكون من المستحيل خروج هذه الميزة (الإرادة) الى حيز التنفيذ . لذا كانت هناك القوانين التي سماها الإنسان العدالة . فالمحكمة تنظر في شذوذ السلوك الإرادي بالضبط كالقوانين الفيزيائية أو الغريزية . وبطبيعة الحال فإنه لو لم تكن هناك قوانين تحكم السلوك الإرادي للإنسان لتحوّل المجتمع الإنساني الى شريعة الغاب وفقد إنسانيته وتحول الى مجتمع حيواني . لذا ، وللحفاظ على إنسانية المجتمع يجب إتباع قوانين معينة ومحددة لضبط هذا السلوك . وإطاعة هذه القوانين هي العبودية لموجدها . وفي الواقع إننا أحرار للقيام بالافعال التي تسمح بها القوانين فقط والتي لا تؤثر على حقوق الأخرين وسعادتهم .

عبودية الفكر الارادي

ان هذا الوجود الذي نراه ونحسّ به متوازن وتسري فيه العدالة ، ولولا

ذلك لاختلّ توازنه . وتنبع عدالته من اتباعه القوانين المحددة له ومن عبوديته المطلقة لهذه القوانين . ومعنى ذلك انه تحكمه قوانين معينة ومترابطة لتنظيم العلاقات المختلفة بين اجزائه ، ولا تسمح لهذه الأجزاء الاخلال به لان أي انحراف لأي شيء هو اعتداء على حقوق الاشياء الاخرى . وهذا ما تقره وترويه لنا علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات . والعدالة تسري في جميع أرجاء الكون ، وبضمنها الانسان والاحياء الاخرى لان الكائنات الحية جزء من الكون . وقد رأينا أن قوانينها تبسط نفوذها على جسم الانسان وتفكيره الغريزي بنفس الصرامة . كما رأينا أن تفكير الانسان الارادي محكوم بالقوانين أيضاً .

ولما كان الخالق لهذا الكون أعطى الأشياء كلها قوانينها الضرورية التي تحكمها وتمكّنها من الوجود ، فانه لا يمكن ادراك أي سبب معقول لترك الانسان تائهاً في هذا الوجود دون اعطائه قوانين لتنظيم حياته ومجتمعه سوية بباقي الأشياء . لأن القول بذلك معناه ان الله ظالم وهذا يناقض الفكرة القائلة ان الله هو مطلق العدالة . لذا فان الخالق لا بد وان وضع قوانين للانسان لادامة حياته وسعادة مجتمعه ، خاصة وقد عرفنا ان الخالق قد وضع القوانين التي تحكم جسم الانسان وغرائزه . فالعدالة لا بدّ أن تسري ، والقوانين التي وضعها الخالق سلفاً لاعطاء كل شيء وجوده وكينونته يجب أن تُطاع ، والتي تؤدي الى الحفاظ على وجود الأشياء كلها . وانها قابلية الخالق ، والخالق فقط ، ان يسبب انعدامها ، وكما قلنا عند مناقشة العدل الالهي ان الله أعطى كل شيء المقدار الذي يستحقه من الوجود . لذا فانه من غير الممكن أن يُترك الانسان بدون قوانين وتعليمات يتبعها لتنظيم حياته ، والا فان الظلم سيسود المجتمع ولن يكون هناك من سبيل لاستعادة العدالة إليه . واذا حدث ذلك ، فانه سيكون الشيء الوحيد الذي انفرد عن العدالة الكونية في هذا الوجود . وفي الواقع ليس هنالك ما يدعو الى أن تكون الحالة هكذا .

ان اتباع الانسان للقوانين هي العبودية لله الذي خلق الانسان كما خلق

الأشياء كلها ، وكلها تخضع بالعبودية لله ، وهو معنى قوله تعالى[1] **﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون﴾** . وبهذه الطريقة وحدها يمكن أن تسود العدالة التامة والحرية الكاملة لأن قوانين الله تعالى تعطي كل شيء حقه ، ولا يمكن لشيء أن يخطو خارج دائرة حقوقه الى دوائر حقوق الأشياء الاخرى . وبطبيعة الحال ، فان الله لا يسلب حقوق المخلوقات لأنه ليس بحاجة لان يفعل ذلك .

ان القوانين التي تحكم المادة والغرائز موجودة في ذات الأشياء وتولد مع الأحياء ، ولكن ليس القوانين التي تحكم السلوك الواعي . ولما كان الله مطلق العدالة فانه لا يترك الانسان جاهلاً بهذه القوانين . وقد يسأل البعض لماذا لم يجعل الله هذه القوانين تولد مع الانسان كجزء من خلقه كما هي الحال مع القوانين الاخرى ؟ والجواب على ذلك هو انه في هذه الحالة فان المخلوق سوف لن يكون انساناً ، بل سيكون مخلوقاً من نوع آخر . وقد تكون هناك مخلوقات كهذه في أماكن اخرى ، كالملائكة على سبيل المثال ، والذين يخلقون وهم يعلمون ما يحتاجون ان يعلموه . وعلى كل حال فان الطريقة الوحيدة لاطلاع الانسان على القوانين يجب أن تكون خلال واسطة يفهمها ، أي خلال السمع والبصر . وعقل الانسان لا بد وانه مصنوع بحيث يمتلك القابلية على فهم هذه القوانين . والاسوف لن يكون هناك معنى للمشروع بأكمله ، لأنه سيعني ان الله ظالم (تعالى عن ذلك) ، فهو خلق الانسان على مستوى من الادراك لا يمتلك معه القابلية على فهم وتطبيق القوانين التي تحافظ على وجوده وسعادته كبقية المخلوقات . وهذا بطبيعة الحال يناقض عدالة الله المطلقة . من ذلك نستنتج ان الانسان لا بد وان يكون قد تم اخباره بهذه القوانين بواسطة احد افراد مجتمعه ، أو مجموعة من الافراد الذين يستطيع أن يتفاهم معهم ، وهو ما تقصده الآية

---

(١) سورة النور، آية ٤١ .

الكريمة[1] ﴿**قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً**﴾ . وهؤلاء الأفراد هم الأنبياء الذين يتم اختيارهم تحت ظروف خاصة (وقد ذكرناها سابقاً) لاستلام التعاليم خلال واسطة معينة ثم يخبرونها الى الآخرين . فالانسان وحده لا يستطيع معرفة هذه القوانين لأنها لا تولد معه كبقية قوانين الفيزياء وقوانين الغريزة ، والسبب في ذلك ان هذه القوانين خاصة بإرادة الانسان الحرة ، والتي تكون حرة فقط اذا فُسح لها المجال لان توضع موضع التنفيذ أولاً ثم بعد ذلك يأتي الحكم على صحة استخدامها ، بالضبط كما نشاهد كيفية الفصل في قضايا المحاكم بعد اقتراف الجريمة أو حدوث الاختلافات بين الناس .

ضرورة العبودية :

كيف يكون الحديد حديداً ولا شيء سوى الحديد ؟

تقول لنا علوم الفيزياء والكيمياء انه يبقى حديداً باتباعه القوانين وخضوع مكوناته وذراته الى القوانين التي تجعله حديداً . وهذا معناه انه لو لم تطع مكونات الحديد تلك القوانين لما وُجد الحديد ، أي انه سيفنى كحديد . إذن فان طاعة الحديد لتلك القوانين ضرورية لوجوده . ولما كانت هذه القوانين هي أوامر الخالق تعالى ، فان الحديد موجود كحديد بضرورة طاعته لله ، أي ان اتصاله بالله تعالى وعبوديته له ضرورية لوجوده ، ولا يمكن أن يوجد في هذا الكون بدون العبودية لله .

وكذلك الحالة مع جميع المخلوقات فانها لا يمكن ان يكتب لها الوجود بدون اتصالها بالله تعالى وعبوديتها له . فالعبودية اذن ضرورية لوجود الأشياء ، وبدونها تفنى الأشياء لانها انما أصبحت على ما هي عليه بسبب اطاعتها للقوانين

---

(١) سورة الاسراء ـ الآية ٩٥.

التي تسري فيها لربط اجزائها ببعضها البعض . وهذا هو معنى العبودية للخالق ومعنى ضرورتها ، فهي جزء من كينونة الأشياء لان الأشياء ليست أشياء بدونها . ومن هنا جاء قوله تعالى[1] ﴿وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ . وهذه العبودية هي الارتباط بين الأشياء والخالق . وهو المقصود بالقول الحكيم[2] (فارق الأشياء لا على اختلاف الأماكن ، وتمكن منها لا على الممازجة) . والذي معناه ان الارتباط بالله هو الطاعة العمياء لقوانينه ، وبُعد الأشياء عن الله هو بُعدٌ نوعي (من ناحية نوع الوجود) وليس بعداً من ناحية المسافة .

والناس ليسوا أناساً بدون العبودية لله ، لأنه بدون اطاعة قوانين الخلق يتحولون الى اشياء اخرى تماماً بنفس الطريقة التي يتحول فيها الحديد الى شيء آخر اذا لم يطع القوانين الفيزيائية (وهي قوانين الخلق بالنسبة له) . ولكن الى أي شيء يتحول الانسان عندما يسير بعكس قوانين الخلق ؟ انه يهبط الى مستوى الحيوان . وهذه الحالة مشابهة لحالة المجتمع اذا خالف فيه جميع الأفراد القوانين والاعراف فيتحول الى فوضى كاملة ويسود الظلم وتنتشر المعاناة والتعاسة وتنفقد الراحة والسعادة . فالأشياء التي تخالف قوانين الخلق تفقد حقها في الوجود لانها تشذّ عن المسار المرسوم لها . والانسان خلق كإنسان ، فاذا فقد حقه في الوجود فانه يفقد حقه في الوجود كإنسان ويتحول الى وجود من نوع وجود الحيوان . والحيوانات لا تحتاج (بموجب خلقها) الى الحب والعطف الذي يحتاجه الانسان ، ولذا فاذا عاش الانسان عيشة الحيوانات فانه سيعاني من حرمان الحب حرماناً تاماً ، وهذا بطبيعة الحال يقوده الى جميع انواع المعاناة الاخرى . وهذا هو المقصود بفقدان رحمة الله وعطفه ، وهذا هو المقصود بان الانسان

---

(١) سورة آل عمران ـ آية ٨٣ .

(٢) الامام علي، نهج البلاغة.

يتحول الى حيوان . فهو يتحول الى مخلوق مادي التطلعات والسلوك بكل معنى الكلمة مما يؤدّي الى التدمير التام للمجتمع خلال الحروب والويلات . وهذا ما حدث للمجتمعات القديمة التي شيدت حضارات ضخمة والتي لم تكن حضارات إلّهية عادلة ، ولكنها حضارات مادية سارت ضد قوانين الخلق فانتهت بالدمار والفناء . وهذا ما سيحدث للحضارة المادية المعاصرة أيضاً . فسنّة الله هي نفسها[1] **﴿فلن تجد لسنّة الله تبديلا ، ولن تجد لسنّة الله تحويلا﴾** . فالأشياء التي تشذّ عن مسارها المرسوم لها تتيه في عالم الوجود ، ولكن الناس والمفكرين الماديين ، خاصة الأوروبيين منهم ، في جهل كامل لهذه الحقائق لأنهم بعيدون كل البعد عن التحليل الصحيح للحوادث والأمور . فالله خلق الانسان ومعه قوانينه التي تحافظ عليه كما خلق الحديد وقوانينه التي تحافظ عليه ، وكما خلق بقية الأشياء وقوانينها . واذا أراد الانسان أن يصل الى النهاية الصحيحة المرسومة له من قبل الخالق فعليه اطاعة القوانين . اما اذا اختار عصيان القوانين وانتهى الى الدمار والفناء فسيكون ذلك ذنبه هو وليس الخالق . فالخالق وضع بنا الرحمة والعطف على بعضنا البعض ، وهذه يمكن لها أن تسود بصورة صحيحة اذا أطعنا الأوامر ، وهذه الطاعة تؤدّي الى الحفاظ على حقوق الافراد وامتيازاتهم بموجب الخلق ، والتي هي الحالة الوحيدة الصحيحة ، وأي شذوذ عن هذه الحالة الصحيحة تتضمن الظلم بالضرورة لأنها محاولة تبديل المسار الذي قرره الخالق المطلق .

ولتوضيح ما أسلفنا بنظرة اخرى نقول ، لما كان الله تعالى قد خلق الأشياء كلها ومنحها حقوقها في الوجود وفي ممارسة امتيازاتها التي تخص وجودها ، وكما قلنا فان ممارسة هذه الامتيازات بصورة صحيحة هي في الحقيقة جزء من العبودية للخالق واطاعة أوامره لأنه لا يحدث شيئاً بدون القوانين ، فانه سيتبع ذلك ان اخذ امتيازات شيء ما معناه حرمان ذلك الشيء من ممارسة حقوقها ومن ممارسة

---

(١) سورة فاطر ـ الآية ٤٣ .

طاعته للخالق ، وهذا يطلق عليه الظلم . لذا فان سبب تحريم الظلم هو لأنه تمردٌ على قوانين الخلق التي جعلت الكون كما هو ، وسلبٌ لحقوق الآخرين والاعتداء عليها وهو أيضاً عدم وضع الشيء في موضعه . وأي عصيان يُقضى عليه للسبب البسيط هو ان العصيان معناه خروج المخلوق من مساره الى مسار آخر تحكمه قوانين اخرى مختلفة ليست موضوعة له ، ولذا فانها لا تنسجم مع طبيعته . فاذا خضع لقوانين كهذه فانه لا محال يتغير الى شيء آخر بموجبها . لذا فان الذنب هو ذنب المتمرد لما يمكن أن يحصل له ، وليس الخالق . قال تعالى[1] **﴿ما يبدل القول عندي وما أنا بظلّام للعبيد﴾** .

فالخلل الذي يحدث في تركيب مادة معينة لا يُسمح له بالوجود وانما يقضىٰ عليه مباشرة وفي منتهى القسوة بواسطة تغيير هذه المادة الى نوع آخر أو الى حالة اخرى . والظلم عصيان لا يسمح به أيضاً ولكن يُقضى عليه بطريقة مختلفة لان الخروج عن القانون فعل واع كما رأينا . ولما كان الخالق مطلق من جميع النواحي ، وهو خالق الأشياء كلها ، وهو السبب في وجودها ، فانه من العدالة والاخلاق ، ومن صحة الامور أن تعبده المخلوقات وتطيع أوامره . وهذا هو المقصود بالقول الحكيم[1] (إلّهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكنني عرفت أنك أهل للعبادة فعبدك) وهذا هو معنى العبادة ، انها اطاعة أوامر الخالق دائماً وفي كل الأعمال ، وليست الذهاب الى الكنيسة مرة في الأسبوع والاستماع الى أغاني الارغون . كما انها ليست بسبب الخوف من المجهول كما يظن (رسل)، ذلك الفيلسوف الأبله ، ولكنها لأن الله يستحق ان يُعبد ويطاع . وهذا معنى الآية الكريمة[3] **﴿وما خلقت الانس والجنّ الاّ ليعبدون﴾** .

---

(١) سورة ق، الآية ٢٩ .

(٢) الامام علي ـ نهج البلاغة . .

(٣) سورة الذاريات ـ آية ٥٦ .

الثواب والعقاب بعد الموت

تسود العدالة الكون ، ولقد رأينا ان هناك ردعاً وعقوبة لكل شيء يشذ عنها . ولكننا نرى ان الانسان يشذ عن هذه العدالة فيظلم ويعبث في الأرض فساداً ثم يموت دون عقوبة تتفق مع عمله وظلمه فكيف يمكننا أن نفهم ذلك من خلال مفهوم الوجود الذي سردناه ؟ هل انه شذوذ عن الاطار العام ؟ اذا كان كذلك ، لماذا يكون الاستثناء الوحيد عن القاعدة ؟ عند التمعّن في هذا الموضوع نرى انه ليس هناك مبرر لاستثنائه .

ولكن اذا كان الظالم يموت بدون عقاب يتلاءم مع ظلمه فمتى وأين العقاب إذن ؟

لا شكّ ان نوعية العقاب ووقته ، وأي شيء آخر في هذا الوجود المتزن ، لا بد وان يكون متناسبين مع نوعية العصيان . فالزمن يكون مباشرة بعد الشذوذ ، عدا ما يخص تلك الأفعال التي تتعلق بالارادة والاختيار ، والتي تتأخر العقوبة بالنسبة لها الى ما بعد اكمال الأفعال المخالفة للقوانين . وعلى سبيل المثال ، اذا القي القبض على انسان يقترف جريمة فانه يقدم الى المحاكمة ، وهي عملية تستغرق وقتاً للنظر في موضوع الجريمة ونوعيتها ، وتُعقد المحاكمة بعد وقت اقتراف الجريمة والسبب في ذلك هو ان الانسان يجب أن يُعطى الفرصة لاطاعة القوانين أو الشذوذ عنها لأنّه ليس من المعقول معاقبة الأبرياء بدعوى انهم قد يقترفون الجرائم . لذا فان ارجاء انزال العقوبة ضروري لممارسة الارادة . وبذلك فان العقوبة تأتي بعد عصيان قانون الخليقة الالهي . ولذا بالنسبة للانسان فان العقوبة تأتي بعد اجراء المحاكمة الالهية ، والتي تقام بعد الموت للنظر في الجرائم ، أي بعد أن ينهي الانسان مدة اقامته في هذه الحياة الدنيا ، لأنها لا تحدث في هذه الحياة . وبهذه الطريقة فقط تكمل مطلقية العدالة الالهية ، والا فانها لن تكون مطلقة .

وقد يتساءل البعض ، انه لما كان الله يعرف ان فرداً من الناس سيعصي الأوامر ويتجه بعكس قوانين الخليقة ، لماذا يتركه يفعل ذلك ؟ لماذا يعاقبه بعد الموت وبعد اجراء المحاكمة ؟

في الواقع ان السؤال الأول قد تمت الاجابة عليه لأن الانسان يمتلك الارادة التي لا معنى لها اذا لم يمارسها . أما السؤال الثاني فان اقامة المحاكمة بعد اقتراف الجريمة هي الطريقة الوحيدة التي تنطبق على تعريف العدالة الحقيقية ، حيث يُسأل الانسان عما فعل وعن الأسباب التي دعته ان يظلم ، ويُعطىٰ فرصة للدفاع عن نفسه .

وكما ان العقوبة ضرورية لاقامة العدل ، فان الثواب ضروري لاتمام الهدف الذي تُجرىٰ من اجله العقوبة ، وهو تحقيق العدالة . فاذا كانت العقوبة قد وُضعت لأولئك الذين يعصون الأوامر ، فماذا عن أولئك الذين يطيعونها ؟ لا بد وان هناك ثواباً على ذلك لانه بدون الثواب يصبح المشروع ناقصاً ويفقد معناه . فما هو الثواب ؟ انه البقاء في الوجود والسعادة . فبالنسبة للحديد فانه يبقى حديداً، وبالنسبة للأرض والشمس فانهما لا تصطدمان مع بعضهما البعض بل كل منهما يبقى في مساره . وثواب الغرائز هو الاحساس بالنشوة واللذة . فمن الصعوبة تصور كيفية الحفاظ على الحياة بدون اللذة والألم ، أي بدون الثواب والعقاب . وماذا عن أفعالنا الارادية إذن ؟ الجواب على ذلك هو أننا باطاعة الأوامر الالهية نحافظ على سعادة المجتمع الانساني ، وعلى حقوق وممتلكات الأفراد دون المساس بها . فالذين يقترفون الجرائم يجب معاقبتهم والذين يتبعون الأوامر يجب اثابتهم لأنهم يساهمون في المحافظة على سيادة العدالة في المجتمع ، والمحافظة على سعادة وممتلكات الآخرين . ومن هنا جاءت أحقية الجنة والنار . ان وجودهما ضروري لاكمال مشروع الوجود . وثواب المطيع يكون في الدنيا والآخرة ، سعادة في الدنيا وسعادة في الآخرة ، اما عقاب العاصي للأوامر فانه تعاسة في الدنيا وتعاسة في الآخرة . فالمجرم يعيش تعيساً في

دنياه مكروهاً من قبل الناس، وله في الآخرة عقاب شـديد . ومن هنـا جاء قـوله تعالى[1] ﴿فوربِّ السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون﴾ .

ونود هنا أن نذكر ما يقولـه (برتـراند رسـل) عن موضـوع العقابِ . انـه يسأل أي إله هذا الذي يعاقبنا بهذه القسوة ما بعد الموت بسبب الذنوب التافهـة والصغيـرة التي نقترفهـا في هذه الحيـاة ؟وواضح ان (رسل) أساء فهم المـوضـوع كلياً ، وفاتت عليه سببية العـلاقات بـين الأفعال الخـاطئة (أو الـذنوب) وبـين عقابها . فلو اننا حذّرنا انساناً من عدم رمي نفسه من بناء شاهق ، ولو انـه كان عنيداً ورمى نفسه من أعلى البناء وتكسـرت عظامـه ، فهل يستـطيع (رسـل) أن يقول ان هذه العقوبة قاسية بالمقارنة مع عناد الشخص؟ بالـطبع كـلا . وبالـرغم من ذلك فانه لا يستطيع أن يرى بأن نوعية العقوبة تتناسب مـع نوعيـة الذنب . فقتل انسان قد لا يستغرق أكـثر من فعل الضغط البسيط عـلى زناد المسـدس الا ان النتيجة كبيرة وهي اعـدام حياة انسـان . وكذلـك الحال مـع الثواب ، فـان نوعيته تتناسب مع مقدار الاتباع الصحيح للقوانين .

والسؤال الـذي يبقى هنا هـو : ما هي قـوانين الخـالق التي يجب اتباعهـا بالنسبة لأفعالنا الارادية ؟ وبطبيعة الحال اننا نعتقد أنها قوانين الاسـلام . الا ان معتنقي الاديان الاخرى لا يتفقـون مع هـذا الرأي بـطبيعة الحـال لان كلاً منهم يعتقد انه هو الصحيح . وليس الغـرض من هذا الكتـاب بحث هذه المسألة ، ولكننا نستطيع أن نقول بكـل ثقة انـه اذا كان الله عـادلاً ، وهو كـذلك ، فـان قوانينه يجب أن تكون نفسها لكل البشريـة لانه ليس من المعقـول تطبيق قـوانين مختلفة على المجتمعات البشريـة المختلفة فيسمـح لبعضهم بممارسـة ما يمنـع عنه الآخرين . وهذا أيضـاً يفنّد الـرأي القائـل ان الأديان المختلفـة هي كالنـظر الى نفس الشيء من زوايا مختلفة . وبذلك فـان هناك دينـاً واحداً صحيحـاً ، وجميع

---

(١) سورة الذاريات ـ آية ٢٣ .

الأديان الاخرى خاطئة . وقد لا تكون جميع تعاليم الأديان الاخرى خاطئة ، ولكن كل واحد منها ذا أُخذ لوحده فسوف يتضمن بعض التعاليم الخاطئة مما يجعله غير مقبول عندما يؤخذ ككل .

المصادر

BIBLIOGRAPHY

1 - (Man , Time and Fossils), by , Ruth Moore , Alfred A. Knopf , 2nd edition , 1971 .
2 - (Process of Organic Evolution) , by , G . Ledyard Stebbins , Prenticehall , Inc . , 2nd edition , 1971 .
3 - (Genesis Revised), by , Glenn G. Strickland, The Dial Press , 1979 .
4 - (Chance and Necessity) , by , Jacques Monord , translated to English by Austryn Wainhouse , Alfred A . Knopf , 1971 .
5 - (Three Billion Years of Life) , by , Andre De Coyeux , translated to English by joyce E. Clemow , Stein and Dry Publishers , New York , 1969 .

6 - (Evolution Now) , Edited by , John Maynard Smith , W. H. Freeman and Company , 1982 .

7 - (The Story of Life from The Beginning to You) , by , Kim Marshall , Holt , Rinchart and Winston , 1980 .
8 - (Human Origin) , by , Richard E. Leakey , Ladestar Books , 1982 .
9 - (Evolution Goes on Every Day), By , Dorothy Hinshaw Patent , Holiday House - New York , 1977.
10 - (Genesis Mystery) , by , Jeffery Goodman , Times Books , 1983 .

11 - (The Naked Ape) , by , Desmond Morris , Jonathan Cape , 1986 .
12 - (Not From the Apes) , by , Bjorn Kurten , Pantheon Books , 1972 .
13 - (The Global Brain) , by , peter Russell , J.P. Tarcher , Inc ., 1983 .
14 - (Evolutionary Anthropology) , by , Herman K. Bleibtreu , Allyn and Bacon , Inc ., 1969 .
15 - (Adam»s Ancestors)by , L.S.B. Leakey , Harper and Row , Publishers , 1960 .
16 - (African Genesis) , by Rober Andrey , New York Atheneum , 1968 .
17 - (The Ascent of Man) , by , J. Bronwski , Little , Brown and Company , 1973 .
18 - (The Human Race) , by Terence Dixon and Martin Lucas , Thames Methuem , 1982 .
19 - (The Phenomenon of Man) , by , Pierre Teilhard De Chardin , Collins Sons and Co . Ltd , 1966 Print .
20 - (The Myth Mader , Paul and The Invention of Christianity) , by , Hyam Maccoby , Weidenfeld andd Nicolson , London , 1986 .
21 - (The Forces of Nature) , by , P.C.W. Davies , Cambridge University Press , 1979 .
22 - (ABC of Relativity) , by , Bertrand Russell , Unwin Paperbacks , Third Revised Edition , 1969 .
23 - (General Relativity from A to B) , by , Robert Geroch , The University of Chicago Press , 1978 .
24 - (Space , Time , and Gravity) , by , Robert M. Wald , The University of Chicago Press , 1977 .
25 - (Religion and Science) , by , Bertrand Russell , Oxford University Press , 1961 .
26 - (Mysticism and Logic) , by , Bertrand Russell , George Allen and Unwin , 1970 Print .
27 - (Why I am not a Christian) , by , Bertrand Russell , Unwin Books , 1975 .
28 - (History of Western Philosophy) , by , Bertrand Russell ,

Unwin , 1982 .
29 - (The Problems of Philosophy) , by , Bertrand Russell , Oxford University Press , 1978 .
30 - (Dictionary of Mind , Matter and Morals) , by , Bertrand Russell , The Citadel Press , 1965 .
31 - (The Christian Centuries from Christ to Dante) , by , Robert Payne , W.W. Norton Company , Inc . 1966 .
32 - (The First Urban Christians) , by , Mayne A . Meeks , Yale University Press , 1983 .
33 - (The Analysis of Mind) , by , Bertrand Russelle . George Alen and Unwin Ltd ., 1971 .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة المؤلف	٧
الباب الأول ـ تخبط الفكر الأوروبي	١٣
الفصل الأول ـ الحالة الفكرية للكنيسة	١٥
الفصل الثاني ـ الإنسان ومشكلة الخليقة	٣٣
الفصل الثالث ـ تأثير نظرية التطور	٥١
الباب الثاني ـ التطور	٦٩
الفصل الرابع ـ نظريات الخلية الحية	٧١
الفصل الخامس ـ المعلومات التي احتاجتها الخلية	١٠٣
الفصل السادس ـ التطور ونقده	١١٧
الفصل السابع ـ تحليل بعض المفاهيم	١٥٩
الفصل الثامن ـ الإنسان والتطور	١٧٩
الفصل التاسع ـ الخلق	٢٠٣
الباب الثالث ـ وجود الروح والخالق	٢١٣
الفصل العاشر ـ الزمن والسؤال	٢١٥
الفصل الحادي عشر ـ الصفات الإلهية	٢٣٣
الفصل الثاني عشر ـ الروح	٢٤٩
الفصل الثالث عشر ـ العدل الإلهي	٢٧٩
الفصل الرابع عشر ـ لمن العبودية ؟	٢٩٩
المصادر	٣١٧
الفهرس	٣٢٠